

د. سيد صبحي



مكتبة الأسرة
٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

الإنسان و صحته النفسية



لؤي القزويني

الخامسة



الأعمال

الإنسان وصحته النفسية

الإنسان وصحته النفسية

د. سيد صبحي

طبعة خاصة
تصدرها الدار المصرية اللبنانية
ضمن مشروع مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(سلسلة الأعمال الخاصة)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

الإنسان وصحته النفسية

د. سيد صبحي

العلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

الإخراج الفني والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعي:

محمود عبدالمجيد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتسم عطرها ربيعاً للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهداً ووعداً ليس لنا إلا الوفاء به لنثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

نحو مفهوم الصحة النفسية

• معنى الأمن النفسى.

• الإنسان وكيف يسعى لتحقيق صحته النفسية.

يتعلق الإنسان الفرد اليوم بأذيال الصحة النفسية، وفي نظره أنها كلمة يتشدد بها في عالم، يستطيع أى شخص من أصحاب الزخارف اللفظية أن يلخصها بفكره الكليل في كلمات معدودات، مؤداها:

« إن الصحة النفسية تتجلى في كونك مطلق الحرية، فاصنع ما شئت والحياة تحتاج منك أن تتواءم معها.. لأنها سخيصة بطبيعتها وتورث القلق والضجر وتبعث إلى الملل!!

وهكذا قدر للصحة النفسية أن تشيع تحت وطأة هذا المفهوم الضيق الساذج، وأن تدور على ألسن المثقفين في شكل العقد النفسية تارة، أو في شكل المشكلات الانفعالية تارة أخرى.. أو في كوامن النفس وما يتعلق بها من مكونات تغط في نوم عميق في خزائن اللاشعور، تتحكم فيها الغرائز ببطشها المعهود محقوفة ببعض الأحاسيس الدنيوية.

والمعجب أن معنى هذا اللفظ سرعان ما اتسع اتساعاً، جعل من غير الميسور أن يجد له العلماء والمشتغلون بمجالات علم النفس مضموناً واضحاً.. ولكن قد يبطل العجب إذا عرفنا أن الصحة النفسية جاءت كمصطلح علمي ذائع الصيت شديد الانتشار في عصر، شهد انهيار النظرات التفاضلية المنسمة برضا الإنسان الفرد والإيمان العميق بالتقدم والثقافة: »¹

وفي رحمة هذه الحياة، فقد الإنسان أيضاً عمق الإحساس بالوجود والقيم، وعاش الإنسان الفرد ولا يزال في أزمة هذا العصر يعاني من غربته عن ذاته، وترك نفسه نهياً للتقدم التكنولوجي، الذي جعل منه (ترساً) في ماكينة أو (قطعة غيار) في جهاز، لا يحسب لها في حد ذاتها أى درجة من درجات الحساب.

عاش الإنسان غريباً في هذا العصر، على الرغم من النجاح الباهر الذي أحرزه العلم في القرنين الأخيرين، ولقد نتج عن ذلك التقدم العلمي الهائل أن شهد الناس مولد الخرافة بالإيمان المطلق بالعلم^(*) وما أحرزه من نتائج باهرة؛ إذ خيل للإنسان وقد يسرت له العلوم التجريبية أن يتحكم في الطبيعة ويسيطر عليها، وأن العلم بفضل تحكمه وضوابطه يمثل له تلك الضالة المنشودة، وما على الإنسان إلا أن ينظم نفسه وعالمه المحيط ومجتمعه، الذي يعيش بين جوانبه تنظيمًا علميًا؛ حتى يحو منه الشرور والآفات وتتوافر له فيه الراحة والعيش الرغيد.

وأراد الإنسان أن يعمل كل شيء، وأصبح ينتظر من العلم كل شيء من خلال تطبيقاته، بحيث لم يعد هناك ما يعلو أو يند فوق طاقاته.

وكان طبيعيًا لأمر هذا الإنسان المفتون بإنجازات العلم التطبيقية، وما يواكبها من إجراءات، أن يتملكه الغرور والصلف، وأن يتوه في ظلام الولع بقدراته ومقدراته وسيطرته على كل شيء، وأضحى كل شيء ملك يديه. وكانت نتيجة كل ذلك أن أزهت الأخلاق النفعية، وانتشرت القيم الحسية، التي تستبعد كل ما هو إنساني وقيمي وديني، وتبته فقط إلى الاستمتاع الحسي العاجل المباشر، دون أن تقيم وزنًا لصون الضمير، وأن تراعى مبادئ الحق والخير والجمال!! فماذا عسى أن يكون موقف الصحة النفسية من هذه الأزمة الصارخة، التي يعيشها الآن إنسان العصر الراهن؟ لعل الجواب هو: أنها قد تكون في مقدورها أن تعين الإنسان على أن يحقق ذاته، وأن يربى شخصيته وهو على وعى تام للوجود... أو بعبارة أخرى تعينه على أن يكون موجودًا فعلاً منتجًا حرًا واثقًا بالله متواصلًا بالناس... لأن الإنسان لا يملك سوى هذا السعى الخثيث نحو القيم، وما يتبعها من اتجاهات دينية قوية، يجد الإنسان فيها نفسه بعيدًا عن هذه المتاهات الحسية، التي أغرقته في بحر القلق والتوتر المتلاطم الأمواج، الذي أبعدته عن سكينة النفس.

(*) ظهرت هذه الأيام موجة «العلمانية»، التي تحاول أن تجعل العلم هو المحك الوحيد في سعادة الإنسان وعبثًا تحاول، فقد أدى التطرف العلمي إلى صراعات نفسية.

فمشكلة الإنسان الآن أنه،

لم يعد يفهم من أين يأتي بهذه السكينة وهذا الأمن النفسى، فهو أحياناً يتوهم أنها متاحة بالشروة، ولا تكون فيها سكينة النفس، وأحياناً يتصور وهماً أنها قد تأتيه فى هجر مباهج الحياة وملاذها وإيثار حياة الزهد ويقلب كفيه عما أصاب فلا يجد أنه أصاب شيئاً. . ويتساءل أين هى سكينة النفس؟ فلا يجدها؟!

ثم قد يبحث عنها ويتوقع أنها قد تكون متاحة فى القوة والسلطان ويأتيه الحكم والسلطان، فإذا هى (أقصد سكينة النفس) أكثر بعداً عنه وأنه أساء الطريق إليها.

أين الأمن النفسى إذا؟ وأين سكينة النفس؟

هل هى مطلب مستحيل أو هى مطلب يناقض طبيعة الحياة، وأن الإنسان قد حكم عليه بالقلق والخوف والتطلع إلى كل ماهو مادي ومحسوس والسعى فى دأب؛ ليحقق تطلعاته دون أن يتوقف، ودون أن يبلغ مما أراد شيئاً؟
لعل الإجابة عن تلك الأسئلة تكون من خلال ثنايا فصول هذه الدراسة، التى تتصور أن الصحة النفسية بمعنى ما من المعانى وبشكل ما من الأشكال تتمثل فى هذا الوعد الإلهى، الذى وعد الله به عباده الصالحين، والله لا يخلف وعده، ولا ينسى موعداً ولا ميعاداً.

أين المشكلة إذا؟ أين الخطأ؟ أين النقص؟ وأين الطريق السوى؟ هل هو فى الهدف والغاية؟ أم هو فى الوسيلة؟ هل هو فى شىء خارج عنك؟ أم هو فىك، وأن سعيك لا بد وأن ينبع من داخلك دون أى تأثير لعوامل خارجية؟ وهل الحياة بظاهرها هى الأخرى، أم أن الحياة بجوهرها والنفس بدخائلها؟

وإذا راجعنا تاريخ الهداة والمتقين والقادة والمرشدين، فإننا نتعلم منهم دروساً. نتعلم منهم جهاد النفس، والصراع من أجل الوصول إلى الغاية. . وأن القيمة هى الجزء الأعلى، وأنها هى الجزء الأوفى.

نتعلم منهم أن خداع النفس يبعدها عن الصراط المستقيم. . نتعلم منهم أن الخداع يقود إلى القلق، وأن هدوء الخاطر وسكينة النفس من الأمور التي تحتاج إلى أن يكون الإنسان الفرد على أعلى منزلة، نجعله في خدمة الإنسان الآخر ابتغاء مرضاة الله. ولن يتم له ذلك بطبيعة الحال إلا من خلال هذا الوصال الوجداني، الذي يأتي من خلال القيم الدينية من حيث هي إرشاد وإحسان وإخلاص ومستولية، كما يتجلى أيضاً في المناقشات العميقة لسيرة الصالحين والأبرار. . تلك المناقشات التي لا بد وأن تأتي بثمراتها الخصبة، طالما توافرت فيها صدق النوايا وحسن التفاهم.

والكلام عن صدق النوايا وحسن التفاهم قد يقودنا إلى تعرف الطبيعة الإنسانية وأبعادها السوية، طالما أن موضوع دراستنا في هذا الكتاب يتحدد من عنوانه؛ فهو يتناول تلك الطبيعة البشرية من زاوية السلوك الإنساني، وما يتبعه من قيم أخلاقية قد نجعلنا نتماشى مع ذلك الانسجام المنشود بين ما يتعلق بالقيم والأخلاق، وتلك الطبيعة الإنسانية. . ومن ثم يقودنا إلى الصحة النفسية من خلال هذا الوفاق بين طبيعة الإنسان وأفعاله، أو بين نفسه وتصرفاته.

وجدير بالذكر أن مراعاة الطبيعة الإنسانية من الأمور المهمة، لوجود ارتباط وثيق بين تصرفات الإنسان السلوكية وطبيعته، ويتوقف نجاح النظام الأخلاقي على مدى درجة انسجامه مع واقع هذه الطبيعة البشرية.

والواقع أن هذه الدراسة تعتبر محاولة في طريق صعب لأراني موفيه حقه؛ خاصة وهو يتناول قضية النفس وبعض الآراء، التي تعتبر رائدة في ميدان الصحة النفسية، فنحن سوف نسترشد بإذن الله تعالى بالدراسات، التي قمنا بها وتناولت البعد الديني وأهميته بالنسبة للإنسان، موظفين آراء وجهود بعض العلماء المسلمين، مع الاستناد إلى آيات من القرآن الكريم كمصدر للصحة النفسية، والاسترشاد ببعض الدراسات التي قمنا بها، والتي تتناول بعض القضايا الخاصة بتصرفات الإنسان كمحرك تطبيقي للسلوك السوي، الذي ينبغي أن يسود مهما تعرض المجتمع لعوامل التغير التكنولوجي أو أصابه مس من شيطان التقدم،

الذى يحاول جاهداً أن يبعدنا عن القيم الأصيلة؛ مما أدى إلى ظهور الأمراض النفسية وانتشار القلق وعوامل التوتر انتشار الهواء فى أجواز الفضاء!!
ذلك هو الهدف الذى نتطلع إلى تحقيقه من خلال هذه الدراسة، فإذا أصبنا الهدف فالحمد لله والشكر على توفيقه، وإذا لم نوفق فالحمد لله والشكر أيضاً وكفانا شرف المحاولة.

أستاذ دكتور/ سيد صبحى

◆ شعاب الطريق

- دراسة النفس البشرية وصعوبتها.
- النفس بين قدماء الفلاسفة والقرآن الكريم.
- الصحة النفسية وبعض الاتجاهات الفكرية.

تعد دراسة النفس البشرية والتوصل إلى كنهها وأبعادها ومكوناتها من الأمور الصعبة؛ لأن النفس الإنسانية... بل الطبيعة البشرية ذاتها... شديدة التعقيد... أو هي في الواقع محيرة ومثيرة!!

ولعل هذه الصعوبة تدفعنا إلى محاولة دراسة الطبيعة الإنسانية، دون أن نفرق في متاهات النفس، وسيتافيزيقا الإنسان... وعلى الرغم من هذا الاتجاه نحو دراسة الطبيعة الإنسانية، فإن الصعوبة قائمة أيضاً... لأنه لا يوجد شيء على ظهر هذه الأرض محير ومثير للمشكلات والمتاعب مثل الإنسان، ذلك الذي صنع صنعاً عجباً وفريداً ومخيفاً!!

والذي يتناول الطبيعة الإنسانية بالدراسة، يلاحظ أن هناك مجموعة من الاتجاهات تتناول هذه الطبيعة، فهناك ذلك الاتجاه الذي يراها طبيعة حيوانية. وإذا كان هناك ثمة فارق، فإنما هو في الدرجة لا في النوع، أي في درجة التعقيد السلوكية فقط.

وواضح أن هذا الاتجاه يميل إلى تفسير طبيعة الإنسان ودراستها من خلال الطبيعة الحيوانية؛ باعتبارها طبيعة أبسط من طبيعة الإنسان، وهذا معناه أن هذا الاتجاه يسير على منهج دراسة الأعقد عن طريق الأبسط، وتفسير الطبيعة المعقدة بالطبيعة البسيطة من نوعها.

وأما الاتجاه الثاني... فبرى أن الطبيعة الإنسانية طبيعة منفردة، فهي ليست امتداداً أو استمراراً للطبيعة الحيوانية، وبناءً على ذلك ينبغي دراسة هذه الطبيعة مستقلة عن الدراسات الطبيعية الأخرى، بحيث لا يصبح تفسيرها على غرار

الطبائع البسيطة الأخرى. لأنه يرى أن دراستها وتفسيرها فى ضوء الطبائع الأخرى يهدم جوهر الإنسان ويفقده حقيقته المتميزة.

وهناك اتجاه ثالث ينتهج منهجاً وسطاً بين المنهجين السابقين فى دراسة الطبيعة البشرية، والعمل على تفسيرها مؤداه:

أنه لا ينبغي أن نغفل دراسة الطبيعة المادية فى الإنسان، إلى جانب دراسة الجانب المعنوى، وأن نأخذ هذا الجانب المعنوى مأخذ الجد، وأن نوليّه اهتماماً خاصاً؛ لأن الجانب السيكلوجى أو المعنوى لتلك الطبيعة الإنسانية يكتشفه الغموض، ويحاط بمجموعة من الأسرار لا يعرف عنها بخلاف الجانب البيولوجى، الذى يرتكز بالأعضاء المحسوسة والملموسة للإنسان، وما يواكبها من وظائف وتفاعلات حيوية وكيميائية.

ولعل السر فى عدم استطاعة العلم الحديث أن يفحص فى أغوار النفس البشرية يرجع إلى أن الإنسان نفسه قد أحس بمشكلاته، حين أدرك أن وجوده مخاطرة، وحين فطن إلى أن حياته معركة ليست خاسرة أو رابحة منذ البداية، وإنما لا بد فيها من الصراع والمجاهدة لحظة بعد أخرى، ومن هنا نشأت كل المحاولات التى أرادت أن تلغى مشكلة البحث عن طبيعة الإنسان وجوانبه المعنوية لحساب العلم؛ لأن الإنسان نفسه هو الذى يصنع العلم...

ومن هنا كانت صعوبة إخضاع النفس البشرية للمناهج التجريبية والمقاييس المقتنة، ولعل ذلك ما جعل علماء النفس المحدثون يتجهون إلى دراسة مظاهر السلوك الإنسانى؛ تجنباً لتلك الجوانب الخفية، التى تكمن وراء حقيقة النفس والروح والعقل، وهنا نحضرنا عبارة القوصى^(١):

«إن علم النفس كان يبحث أولاً فى الروح ثم صار يبحث فى العقل، وانتقل بعد ذلك إلى الشعور...» وأخيراً صار موضوع بحثه هو السلوك الخارجى،

(١) ارجع إلى الدراسة العميقة الموسومة باسم (علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية) للأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى - دار النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة السادسة ١٩٧٠ - ص ٢٥ .

وكاننا بإزاء تصور فكّه من خلال أستاذنا القوصى؛ لأنه يشخص لنا مسار علم النفس بوصفه رائدًا لهذا العلم فى عالمنا العربى المعاصر، ويتصوره ذلك العلم الذى زهقت روحه فى بداية ظهوره، ثم خرج عقله ثم زال شعوره، ولم يبق منه إلا المظهر الخارجى وهو السلوك.

وهكذا نلاحظ أن علم النفس قد استقر الآن - إلى حد ما - عند محاولة تأويل القدرات الوظيفية للإنسان، ووصفها بمعزل عن التأويلات القديمة والتفسيرات الغيبية، التى يتتهجها أصحاب الدراسات النفسية القديمة، تلك التى كانت تحوم حول دراسة جوهر النفس، وخلودها، ووحدتها، والصلة الوثيقة بينها وبين الجسم، والاسترشاد بالأدلة على تلك الصلات، بينما لمجد الدراسات الحديثة فى مضمار علم النفس تتركز أساسًا على مظاهر الأداء فى ميادين الحياة المختلفة. . . ولعل ذلك ما جعل علم النفس يتفرع إلى فروع كثيرة متعددة، قد لا نستطيع أن نحصيها، ولكن الذى يهمنا أن هذه الفروع قد اتجهت إلى دراسة السلوك الإنسانى، ودرجة تفاعل الإنسان مع الإنسان الآخر، وتوافقه فى تفاعله ومعاملاته.

والسؤال الآن الذى ينبغى أن نوجهه إلى أنفسنا - طالما نحن ندرس الصحة النفسية للإنسان، وطالما نحن نتعامل مع طبيعته البشرية بالدراسة - هل من الممكن أن نصف الإنسان من حيث أبعاده الداخلية (أعنى طبيعته المعنوية أو النفسية) وصفًا يند عن عوامل التأويل والتنويم، والغوص فى مناهات اللاشعور، ومكونات الخبرات الاليمية، وما يسمى بالتغذية المرتدة Feed back، التى يحاول الآن بعض المشتغلين فى ميدان العلاج النفسى أن يفتشوا عنها من خلال جلسات الاسترخاء والمقابلات الكليينكية، وما يتبعها من أمور قد تصل إلى الصدمات الكهربائية؟

للإجابة عن هذا السؤال، قد نستطيع أن نقول إن الأمر يمثل غاية فى الصعوبة، ومهما حاول هؤلاء الحفاريون فى الطبيعة البشرية من خلال جلساتهم،

فإن حفائزهم وما تخلفه من معلومات تعتبر موقفية (أى ترتفع بالموقف العلاجي فقط) وهى لا تمثل سوى موقف مؤقت، يعبر من خلاله صاحب المشكلة عن عرض مرضى مؤقت أيضاً؛ لأن الإنسان (أو صاحب المشكلة) لا بد وأن يعامل بطريقة فيها ضرب من ضروب الصحو واليقظ لمشكلته، ويحاول هو أن يطرحها ويناقشها، ثم ما على ذلك المعالج إلا أن يرشده بمعلوماته إلى خيوط المشكلة، وعلى صاحب المشكلة أن يمسك بالخيوط... متعرفاً إياها، ناسجاً من خلالها أبعاد مشكلته على منوال فكره المتيقظ الواعى، بعيداً عن هذا الاسترخاء المعجيب الذى يفقد الإنسان التوازن ويفكك أوصاله وينعكس على فكره ووعيه، وبالتالي قد يجعل المعلومات مشوهة وغير دقيقة.

والذى يجعلنا نتوسع فى هذه النقطة بالذات أن طبيعة الإنسان تحتاج فى دراستها إلى المواجهة الواقعية... دون أن نغرقه فى بحر اللاشعور المزعوم، وإذا كانت الكثرة الغالبة الآن ممن يتناولون الإنسان بالعلاج والتوجيه، ويدفعونه دفعاً إلى أن يجرى وراء خبراته الماضية... فإنهم ينسون أن الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى تبدو أفعاله غير مضمونة، فهو الموجود الذى يتردد ويتجسس ويتعثر، وهو الذى يضع مشروعات يقتنع بها وهو مشبع بأمل النجاح وخشية الفشل، والإنسان أيضاً هو الكائن الوحيد الذى يشعر بأنه معرض للمرض، وهو الذى يعرف كذلك بكل تأكيد أنه لامحالة ذائق الموت!!

ومن هنا كيف يتسنى أن نسبر غور الإمكانات البشرية، إن لم نقف أولاً على مقومات الوجود البشرى وطبيعة استعداداته، وحقيقة غاياته، وطريقة استجاباته وأسلوب حياته... ومن هنا كان لا بد علينا - كمشتغلين بمجالات الصحة النفسية والتوجيه والإرشاد النفسى - أن نعتزف بالحقيقة الآتية:

إن الوجود البشرى يستطيع أن يسهم معنا فى وضع الحلول، وأن دراستنا لمشكلاته لا تجعلنا بمعزل عنه كحضور له قيمته، وينبغى أن يُعترف به.

ولكن إذا كان من شأن دراسة الماضى أن تلقى كثيراً من الاضواء على

الحاضر . . فإن هذا لا يستتبعه أن يكون الماضي هو الحاضر، وأن علينا أن نتجنب كل التيارات التي ظهرت على مسرح علم النفس، ونحاول أن نقارن بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوان، أو نجري بعض التجارب على الحيوانات، ثم نحاول أن نعمم نتائجها على الإنسان، وعبثًا يحاول البعض أن يقارن الذكاء البشرى بالذكاء الحيوانى؛ لأنه من المؤكد أن أعلى الحيوانات فى سلم التطور لا تعرف القلق البشرى، ولا تستطيع أن تختزن من الصور البصرية والسمعية، مثلما يخزن الإنسان ولا ترى ما فى الأشياء من جوانب مبكية أو مضحكة كما يرى الناس، ولا تستطيع أن تضحى فى سبيل المبدأ أو العقيدة كما يضحى الإنسان.

من هنا كانت دراسة الطبيعة الإنسانية صعبة للغاية، وتنعكس هذه الصعوبة على مدى فهمنا لتصرفات الإنسان، اعتمادًا على طبيعته المعقدة التى لا ترقى إليها أية عقلية، مهما كان سموها فى المملكة الحيوانية: . الأمر الذى يجعلنا نتجه إلى الطريق السليم الذى اخترناه، وهو التعامل مع القرآن الكريم المصدر الأساسى فقه كل المعانى، ومن خلاله سوف تتضح الأمور، بعد أن اكتنفها الغموض وغاصت فى متاهات الفكر الفلسفى تارة، ومعامل التجريب على الحيوان تارة أخرى، وعلى أرائك ومقاعد ومهدئات وعقاقير بعض المشتغلين بالعلاج النفسى، وما يتبعه من فنيات علاجية وإرشادية قد تنجح حينًا وتفشل فى غالب الأحيان!!

النفس بين قدماء الفلاسفة والقرآن الكريم:

وإذا تأملنا الآيات التى تناولت جوانب الإنسان المادية والروحية، والتى تعبر عن الأبعاد النفسية والروحية، وجدنا أنها تتحدث عن أربعة أمور هى «النفس - الروح - القلب - العقل»، ولجد أن لكل من هذه الجوانب أوصافًا معينة، وحقيقة بذاتها وصفات تابعة لها. وقيل أن نتناول كيف تجلت هذه المعانى، وظهرت من خلال الآيات القرآنية الكريمة، نعرض لأراء بعض الفلاسفة الذين تناولوا هذه الأمور. . . على الوجه الآتى^(١):

(١) مثل الفارابى - ابن سينا - الغزالى - ابن رشد.

تضرعت أفكار الفلاسفة في ثلاثة اتجاهات،

١- اتجاه يمثل سقراط وأفلاطون، وهو على وجه العموم يرى أن النفس جوهر روحي مستقل عن الجسم وهي واحدة، ولها قوى وتقوم بوظائف مختلفة.

٢- اتجاه يمثل أرسطو ومن تبعه من علماء النفس، ويرى على وجه العموم أن النفس صورة منطبقة مع الجسم، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ لأنه لا وجود لها إلا مع الجسم.

واعتمادًا على الآراء التي وردت في هذا الاتجاه، فليس هناك تكوين بيولوجي وسيكولوجي مستقل كل منهما عن الآخر، بل الإنسان في الحقيقة وحدة متكامل فيها جسمه وروحه.

٣- الاتجاه الثالث يحاول التوفيق بين الاتجاهين السابقين، ويمثله الفلاسفة المسلمون. وإذا كان يبدو بينهم اختلافات. فإن هذه الاختلافات من حيث الدرجة لا من حيث النوع.

وإذا كنا قد عرضنا من خلال هذه العجالة آراء بعض الفلاسفة قديمًا في النفس، فلا بد لنا من أن نذكر رأي الإسلام في النفس، من خلال تلك الحقائق الروحية، التي فسرت كنه الطبيعة الإنسانية في ضوء آيات القرآن الكريم، انطلاقًا من الأمور الأربعة (النفس - الروح - القلب - العقل).

أولاً، النفس،

ذكر الله تعالى (أن الله خلق الناس من نفس واحدة)، وقد وصف هذه النفس بعدة أوصاف.

المطمئنة،

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾.

[الفجر: ٢٧: ٣٠]

الوسوسة:

في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ .

[ق: ١٦]

اللؤامة:

في قوله تعالى: ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ .

[القيامة: ٢]

الإمارة بالسوء:

في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ .

[يوسف ٥٣]

وبالنظر إلى هذه الآيات الكريمة، نجد أن النفس واحدة، ولكنها تمر بحالات

متعددة:

* فهي مطمئنة في حالتها السوية الطبيعية.

* وفي بعض الأحيان يوسوس لها الشيطان بالشر.

* ثم إذا ارتكب الإنسان الشر، فإن النفس قد تستفيق وتلوم.

* أما إذا استمرت في هذا الخضوع، فإنها تصبح أماراة بالسوء داعية إلى

الشر.

ثانياً: الروح:

من حقائق التكوين المعنوي في الإنسان (الروح)، وقد وردت لها تفسيرات من خلال القرآن الكريم وآياته البينات، نذكر بعضها على الوجه الآتي:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

[الإسراء: ٨٥]

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

[السجدة: ٧ : ٩]

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

[الحجر: ٢٩]

والتأمل في الآيات الكريمة، سيدرك أنها تنبهنا إلى أن إدراكنا لطبيعة الروح قاصر لثقل علمنا بها، وذلك كما قال الله تعالى؛ إلا أننا نستطيع أن ندرك مغزى ما يوحى به في الطبيعة الإنسانية من دلالات روحية، ذلك المغزى الذي يمثل أهم جانب في الإنسان، وهو الجانب المعنوي السماوي القدسي الذي يجعل الإنسان يميل فطرياً إلى أن يسمو بنفسه، ويعلو على ذلك الوجود المادى الحسى المتمثل فى أدران الشهوات وما يصاحبها من ماديات... ويتطلع إلى الجانب المشرق فى تكوينه، وهو الجانب الروحى، ذلك الذى أوضحته الآيات الكريمة أيضاً، عندما أعلنت المساواة بين الناس، وأن خلقتهم واحدة وأن الإنسان له قيمته كفرد... وكجماعة.

ثالثاً: القلب،

تناول القرآن الكريم القلب وعبرت عنه الآيات الكريمة تعبيراً روحياً، قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

[الشعراء: ٨٨ : ٨٩]

وقوله عز من قائل:

﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَتَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

[آل عمران: ١٥٩]

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

[الأعراف: ١٧٩]

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

[البقرة: ٨٨]

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾

[آل عمران: ٧]

واضح من تتبع بعض الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر القلب أن للقلب صفات، تتمثل في السلام والإنابة والغلظة والتفقه والزيغ، وورد في نصوص وآيات بينات أخرى بمعنى القسوة والعمى والاطمئنان والتقوى والتعقل.

أما نظرة المحدثين من علماء النفس في العقل وقدراته... فإننا نجد أنهم قد استبدلوا كلمة العقل (بالذكاء) أو القدرات العقلية، وقد نجد بينهم بعض الاختلافات في ماهية العقل وقدراته... فنجد (سبيرمان) قد عرفه:

«بأنه القدرة على إدراك العلاقات سواء كانت بسيطة أو معقدة»

ولجد (ثورنديك) قد حدد العقل على أنه:

«القدرة على تكوين ترابطات... واقترح له ثلاثة مستويات»

على الوجه التالي:

* الذكاء المجرد.

* الذكاء الميكانيكى .

* الذكاء الاجتماعى .

على أن يتضمن النوع الأول توظيف جميع الرموز اللغوية والأرقام وغيرها، ويصبح الذكاء الاجتماعى هو القدرة على تفهم الناس ومعايشتهم، والتفاعل معهم وأداء الأدوار الاجتماعية التى تفرضها الظروف المحيطة بالفرد، داخل إطار الجماعة بمهارة وأصول.

وواضح أن الفرق بين الذكاء المجرد والذكاء الاجتماعى أن النوع الأول قد يرجع إلى العوامل الوراثية، وأن النوع الثانى قد يرجع إلى عوامل مكتسبة ترجع إلى ظروف البيئة، وما يصاحبها من عمليات يتدخل فيها التطبيع الاجتماعى للفرد فى أسرته، وتأثيرات المؤسسات الأخرى فى المجتمع.

أما الذكاء الميكانيكى فهو السمة التى تنمو خلال ما يتاح للفرد من فرص تعليمية، تتجلى فيها خبرات وقدرات الفرد، وتحدد فيها ميوله واتجاهاته، وقد عرف (فريمان) هذا النوع من الذكاء بأنه «قدرة الفرد على أن يتعلم»، وقد جعل هذه القدرة على التعلم ترتبهن بعوامل معينة، هى :

* مدى تكيف الفرد مع البيئة المحيطة به أو ببعض جوانبها ودرجة تفاعله معها، وتأثيره وتأثره بها.

* قدرة الشخص على التعلم والتقاط خبرات جديدة تمكنه من تنمية مهاراته.

* قدرة الفرد على التفكير المجرد، وحسن توظيفه لهذا التفكير.

* قدرة الفرد على التصرف الهادف، والأداء السليم المشبع بالتفكير المنطقى والتعامل المجدى مع البيئة.

والماتمل العميق لهذه التعريفات المتعددة سوف يلاحظ أن مفهوم الذكاء أو ماقد يسمى (القدرة العقلية) قد أخذ مجموعة من الصفات، مثل: (الإدراك بوجه عام

واستيعاب المعلومات، والقدرة على فهمها وحفظها، والتصرف وفق الإدراك وتوظيف المعلومات).

وجدير بالذكر أن هذه المفاهيم وتلك التعريفات قد أوضحت أن الإدراك كقدرة عقلية، وأن اكتساب المعلومات ودرجة توظيفها، وربط العلاقات السليمة بين الخبرات في المواقف المتعددة قد أوضحت (أن العمل والعلم) بينهما رابطة قوية، وأنه ينبغي أن يتحقق التجانس والتفاعل بين ما يعلمه الفرد وما يعمل به ويصبح الفكر والعلم والنظر يواكب التصرف والسلوك والعمل، كما تقتضى الأحوال والمواقف التى يتعرض لها الإنسان الفرد.

رابعاً: العقل

أما من حيث تناول الآيات القرآنية الكريمة للعقل، فقد عبرت الآيات البينات عن العقل بوصفه قوة مدركة فى الإنسان خلقها الله فى الإنسان لتحدد مسئوليته، وتتحكم فى أعماله وتصرفاته. ويصبح العقل محكاً من المحكات الرئيسية، يلتزم بواسطتها الإنسان الفرد بالصراط المستقيم والطريق السوى، الذى يمكنه من الاستمرار المسئول السليم.

ويصبح الابتعاد عن توظيف العقل والاحتكام إلى منطق ضريباً من ضروب الضلال، وسبباً من أسباب الانحراف والجموح الذى يبعد الإنسان عن الصراط المستقيم، ويجعله - من خلال تصرفاته غير العاقلة - فى موضع المذنب المخطئ.

الصحة النفسية وبعض الاتجاهات الفكرية:

اختلفت الاتجاهات الفكرية والنظريات الفلسفية والنفسية فى تحديد مفهوم للصحة النفسية، يجعلنا نحتكم إليه ونستند إلى تفسيره. ولعل هذه الحيرة ترجع إلى تعدد الاتجاهات الفكرية التى تناولت سلوك الإنسان وتصرفاته؛ الأمر الذى يجعلنا نعرض لمفهوم الصحة النفسية، من خلال بعض الاتجاهات الفكرية العامة مع وضع الاعتبار الآتى:

«إن اختيارنا لهذه الاتجاهات يتماشى مع وجهة نظرنا حول طبيعة سلوك الإنسان، والتي ترى أن الإنسان عليه مسئولية من أفعاله «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

ومن هذا المنطلق نتناول بعض الاتجاهات؛ لنوضح كيف كان تصور هذه الاتجاهات للقيمة الوظيفية للسلوك الإنسانى، أو بالأحرى ما كان يسمى فى الاتجاهات الفلسفية (الإطار الأخلاقى المنظم للسلوك الإنسانى)، والذي فى ضوءه يتفاعل الإنسان ويتعايش ويحقق التوافق النفسى، أو يقع نهباً للصراع النفسى؛ إذ ابتعد عن هذا الإطار وجانبه الصواب فى التصرف.

١- الاتجاه الطبيعى؛

يحدد هذا الاتجاه مفهوم التوافق النفسى، على أساس ما يستشعره الفرد من خبرات تأتيه باللذة أو بالألم، فاللذة مرغوبة بالطبيعة، ويهدف الإنسان إشباعها وكذلك أيضاً الألم مكروه بالطبيعة وكل مكروه مؤلم، وكل لذيل خير، وكل مؤلم شر. . ومن هنا يرسى هذا الاتجاه قواعده على أساس:

«إن الصحة النفسية للفرد تتجلى فى كل شئ ينزع الإنسان نحوه ويميل إليه ويرغب فيه بالطبيعة، ويشتهي. . . وهذا الميل يجعل الإنسان يحدد ما يوافقه وما لا يوافقه، وبطبيعة الحال ماوافق الإنسان خير، وما لا يتفق مع طبيعته هو شر. . . وهنا نجد أن هذا الاتجاه يهدم قيمة الإنسان الحقيقية، تلك التى تظهر فى اختياره الواعى الحر، حيث صار الإنسان عبداً لشهوته، وخاضعاً لمطالبه الحسية المادية، هذا التصور معيب للإنسان ويفقده إنسانيته.

٢- الاتجاه الذى يؤكد الطبيعة النفسية الفاعلة؛

يرى هذا الاتجاه أن الصحة النفسية ليست مجموعة من الصفات تخلع على الإنسان، بل هى نابعة من الفاعلية النفسية، سواء أكانت هذه الفاعلية اهتماماً أم رغبة أم ميلاً أم تعاطفاً أم تحسناً أم تقييماً.

ومن هذا المنطلق تصبح الصحة النفسية مسألة ذاتية فردية، تلعب فيها إرادة الإنسان الفرد دوراً كبيراً وأساسياً، فكل ما يؤلم رغبات الإنسان النفسية الإرادية يعتبر خيراً بالنسبة إلى صاحب هذه الإرادة أو تلك؛ لأن تأثير الأجواء المحيطة بنا سواء كانت محسوسات أو أفراداً أو ظروفًا وملابسات... هذا التأثير سواء كان بالمواهمة أو المتأفة يدل على وجود علاقة بين طبيعة الأشياء وطبيعة نفسيتنا.

وبلاحظ أن هذه العلاقة من الممكن أن تكون موضوعية من ناحية التأثير، إلا أنها غالباً ما تكون ذاتية من ناحية التأثير، ذلك أن الناس يختلفون في العوامل الذاتية اختلافًا كبيراً.

ويمكن أن نلخص وجهة نظر هذا الاتجاه على الوجه الآتي:

إن الصحة النفسية لا ترجع في حقيقتها إلى المحسوسات والأجواء المحيطة، وإنما ترجع إلى ذات النفس الفاعلة... فالفنفس الفاعلة هي التي تجعل الإنسان يضيف على هذه المحسوسات وتلك الأجواء المحيطة به قيمة معينة، تجعله يتواءم من خلال أفعاله وأفكاره، تلك التي تمثل بدورها اهتماماً خاصاً، يجعل الإنسان متفاعلاً وفاعلاً ومتجاوباً بقدر توفر هذه الإرادة الفاعلة.

وواضح أن هذا الاتجاه يعتمد على الداخل في الإنسان، ويجعله المحك الأساسي؛ ومن ثم فإنه لا بد للتعامل الباطني من أن يجرى فيحررنا من هذا السجن الخارجي... سجن الأشياء، وقد يستسلم الإنسان لسحر الحياة الشخصية بما فيها من تهاويل نرجسية وتأملات ذاتية؛ فيجد بعد ذلك صعوبة كبرى في أن يعاود الاحتكاك بالواقع والاختلاط بالناس والاندماج في العالم الخارجي. ولكن مثل هذه الحياة الشخصية سرعان ما تكتسب طابعاً متحجراً، فلا يلبث صاحبها أن يقع ضحية لوهم الاستيطان. فإذا ما سألنا الآن عن قيمة البعد الخارجي وأثره على صحة الإنسان النفسية، وجدنا أن الإنسان خلق ليعيش على هذه الأرض، فهو سواء أراد أم لم يرد، لا بد له من أن يعبر ذلك الجسر الذي يتمثل في ذاتيته الباطنة، وأن يقذف بنفسه إلى العالم لكي يحقق ذاته في صميم الواقع

الخارجي.. . وتصبح غاية الحياة الروحية بالنسبة للإنسان إنما تتجلى في مدى تخلصه من حدوده الخاصة، واستغراقه في ذاته وتغلبه على ما لديه من تمركز ذاتي. ولعل هذا يوضح أن الصحة النفسية تعبر عن تلك العملية الروحية الشاقة التي يقوم بها الموجود البشري، حينما يحاول أن يتصر على أنانيته وتمركزه الذاتي وانشغاله بنفسه.

والواقع أن الإنسان لا يقوى على أن يعيش متمركزاً (حول ذاته)، بل لابد أن من أن يخرج من قوقعته لكي يتقبل كل ما يأتي به الواقع من أحداث، ويصبح الفعل والتفاعل والأداء المستمر والإنتاج المتدفق من قبل سلوك الإنسان، هو عبارة عن نحت الشخصية وإعلان عن أبعادها أمام الواقع وأمام الآخرين من أفراد المجتمع الذي يعيش بين جوانبه.

٢- الاتجاه الذي يرتكز إلى الواقع،

يحدد هذا الاتجاه الصحة النفسية للفرد على أساس أنها مجموعة من الصفات المستقلة عن الطبيعة وعن الذات الفاعلة.. . فهي تقع خلف الحوادث الطبيعية ووراء اللوات الفاعلة، وهي في الوقت نفسه تفرض نفسها على الذوات الفاعلة (أي أنها ليست نسبية بل إن الصحة النفسية وفق هذا الاتجاه لها وجود مطلق كأي وجود آخر، ولها قوانين مستقلة بنفسها كقوانين الطبيعة لا تتغير ولا تتبدل).

وبطبيعة الحال، فاعتماداً على هذا الاتجاه.. . فإن الصحة النفسية لا يخلقها الإنسان بعقله أو بإرادته، وإنما يجدها موجودة بين الموجودات في عالم الواقع في شكل سلوكيات، وعليه أن يلتقط دلالاتها وإماراتها، ثم يربط بين هذه الدلالات ليجمع من خلال هذا الربط مجموعة من الصفات، من خلال ما يسمى بالصحة النفسية للإنسان. وكان هذا الاتجاه يريد من الإنسان أن يحتكم دائماً إلى مقدرات الواقع، يتماشى معها، ويلملم من الواقع المعاش مجموعة من الصفات (من خلالها)، يقوم بعمل التركيب أو الإطار الذي يمثل شخصيته. ولم يوضح لنا هذا الاتجاه ماذا يكون موقف الإنسان من هذا الواقع.. . هل هو الواقع الراهن أم أن

الماضى له دور فى تجميع هذه الصفات؟ لاننا على الرغم من شعورنا فى قرارة أنفسنا بأن فى حياتنا النفسية ضرباً من الاتصال والاستمرار والتعاقب، إلا أننا مهما حاولنا التخلص من أحداث الماضى... فإننا لا نلبث أن نواجهها، فمهما حاولنا أن نهوى بمعولنا على ذلك الخصم العنيد (أعنى به الماضى وما يتعلق به من خبرات وأحداث)... فإننا لن نستطيع القضاء على ذلك الخصم العنيد الذى هو منا وليس منا.

٤- الاتجاه الذى يشترك الذات الفاعلة مع الواقع الراهن. ويتطلع إلى المثل الأعلى.

يحدد هذا الاتجاه الصحة النفسية على أساس أنها نظام للعمل، وأن هذا الإطار (أو النظام) لا يتحقق إلا بوجود ذات فاعلة عاملة - لها موضوعها الذى تعمل فيه وفق مثل أعلى تلاحظه وتتوخاه أثناء العمل، وعن طريق تفاعل واشتراك العوامل الثلاثة تتحدد الصحة النفسية للفرد؛ بحيث إذا فقدت هذه العوامل أو بعضهما فقدت الصحة النفسية قيمتها؛ لأنها محصلة هذه العوامل مجتمعة، ذلك أن الإنسان مجذوب ومشدود إلى الواقع، يجذبه إليه العقل والفكر، ويحدد تصرفاته المثل الأعلى.

وجدير بالذكر أن تحديد الصحة النفسية بصفة عامة - من خلال عرض بعض الاتجاهات الفلسفية المختلفة - يجعلنا نحدد من وجهة نظرنا الاتجاه الذى نراه ملائماً أو ماذا نقصد بالصحة النفسية، من خلال هذا العرض المتعدد فى أفكاره والمتشعب فى تصوراتاه؟

وللإجابة عن هذا السؤال، نقول:

إن الصحة النفسية فى أساسها هى قيمة الشخص من خلال أفعاله وسلوكه وتصرفاته، وليست القيمة هنا هى تلك التى تأتى عن طريق الأشياء أو الأفكار، والتى قد تظهر فى شكل بعض الآراء التى تهتد بالإنسان عن القيم الدينية - بل هى الاتجاه إلى الخير، والخير هو أن يأتى الإنسان بسلوك وتصرفات ابتغاء مرضاة الله.

وتعلم ذلك ما يقودنا إلى الحقيقة التي بدأنا منها، وهي:

إن الإنسان إذا أراد لنفسه أن يكون صحيحاً نفسياً . فإن عليه أن يستمد قيمته من إرادة الله ، فالإنسان عندما يريد من سلوكه ما أراد الله منه أن يريد . . فإنه يكون قد اتحدت الإرادتان أو الغايتان (غاية الإنسان ، وغاية الله) .

لقد أراد الله للإنسان الخير . . ومن ينشد الخير يصل إلى التوافق مع ذاته ، وينعكس هذا التوافق في تعامله مع الآخرين من بنى البشر . . فغاية الله تتجلى من خلال ما يتم من أعمال من قبل الإنسان؛ بشرط أن تكون هذه الأعمال ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى . وقد حدد القرآن الكريم الصحة النفسية للإنسان من خلال آياته الكريمة . . . سلوكاً وفعلاً وتصرفاً وفكراً؛ لكي يحاول الإنسان أن يحقق تلك الغاية السامية المنشودة التي أرادها الله منه .

◆ شباب الطريق

- معنى السواء النفسى.
- خطوات السواء النفسى.
- الاتجاهات المختلفة التى تناولت السواء النفسى.

موضوع الشخصية السوية من القضايا التي طرحت في ميدان علم النفس؛
بغية التوصيل إلى الإمارات التي تميزها والملامح التي نحدددها، وإلى أي حد
يمكن أن يقال عن شخص بأنه سوى، وعن شخص بأنه غير ذلك.

وقد سبق لنا الإشارة إلى أن النفس السوية هي تلك التي نمت نموها الطبيعي
وتكاملت جميع جوانبها، فأخذت تعمل بكل طاقاتها، متخذة المسار السليم
والصراط المستقيم هذا عكس الانحراف أو الشذوذ؛ لأنهما يفسدان بنيان النفس
الراسخ ويحولان طاقته إلى ضلال السبيل بعيداً عن الصراط المستقيم. وقبل أن
نتناول موضوع الشخصية السوية بالدراسة بغية تحديد أبعادها التي تميزها، نود أن
نقول:

إن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان بخصال كثيرة، من بينها هذا السعة
العجيبة في أنماط البشرية؛ فهي تشابه كلها دون أن تتماثل حتى لنستطيع أن
نقول أنه لا يوجد فردان من البشرية يتماثلان تماثلاً كاملاً على مدار الأجيال،
كما لا تتماثل بصمات الأصابع بين أي فردين على مدار التاريخ.

وبطبيعة الحال.. فإن هذا التعدد يعطى الحياة البشرية ثراءً وخصوبة لا يعرفه
عالم الحيوان.. ثراءً يجعل الحياة أوسع بكثير وأعمق بكثير من هذه المحسوسات
التي تمثل الجانب الظاهر من الحياة.. فكل إنسان له عالمه الخاص، بل يقال عليه
إنه نسيج وحده على الرغم من تشابه هذه العوالم وتقاربها.

وهذا التعدد يمثل نعمة الله على عباده من بنى البشر، فلو أن الإنسان الذي
وهبه الله من قوة الإدراك والمعرفة، والقدرة على الإنتاج المادى والتطلع إلى

المستقبل وزوده بالقيم الروحية والجمالية، كان صورة مطابقة للإنسان الآخر لتحولت الحياة إلى ما يجعلها رتيبة وعملة، بل وقد تفقد رونقها وحيويتها ولكنها بهذا الثراء الذى يأتى من التعدد جديرة بهذا المخلوق، الذى كرمه الله بعقله ورعاه بعنايته، وأعطاه الإمكانيات المتعددة.

وجدير بالذكر قبل أن نتناول الشخصية السوية، أن نشير إلى وجهة نظر نقدسها؛ لتوضح من خلالها معنى السواء النفسى، ووجهة النظر هذه نرى:

إنه ليست هناك خطوط حاسمة للصحة النفسية والسواء والانحراف فى عالم الشخصية الإنسانية، كما لا توجد خطوط حاسمة للصحة والمرض فى عالم الأجسام.

ولكن هناك أموراً معينة، يكون من المؤكد أنها داخلية فى دائرة الانحراف وأمور أخرى داخلية فى دائرة السواء.

وإذا أردنا أن نوضح وجهة نظرنا هذه من خلال عقد مقارنة مثلاً بين الزعيم الطاغية، نجد أن الطغيان مرض نفسى، لا يمكن أن يلجأ إليه شخص سوى، فى الوقت الذى نجد فيه الزعيم شخصاً عظيماً؛ أى إنه يتمتع بشخصية لها أبعادها الخصبة والمؤثرة، وهذه الأبعاد هى التى تجعله فى مكان القيادة وليست أنانية الطاغية التى تميل إلى استبعاد الآخرين وإخضاعهم. . وربما كان المحك الواضح الذى يفرق بين التركيبة النفسية للزعيم والتركيبة النفسية للطاغية:

إن الزعيم يبحث عن القوى والطاقات فى الجماعة فينميها، ويسعد بكل طاقة تنفع الجماعة فيوظفها ويستعين بها ويشجعها ويدفعها إلى الإنجاز والعمل المثمر لمصلحة الجماعة، بينما الطاغية لا يطبق إلا نفسه، فكلما وجد طاقة بارزة سعى إلى التخلص منها، ولو بطريق العمل الخسيس؛ لأنه لا يهتم إلا بأمر نفسه ولا يسعى إلا لتحقيق مصلحته.

وهكذا يتضح لنا أن الفردية الانطوائية تمثل مزيجاً من مرضين معاً هما الفردية والسلبية الزائدة. . وكذلك نجد الفردية العدوانية مزيجاً من مرضين هما الفردية

والإيجابية الزائدة.. . وفي كلتا الحالتين ينحصر الجانب الجماعى من النفس ويرز الكيان الفردى فى صورة من الصور.

وبطبيعة الحال تختلف درجة السوء من فردية إلى أخرى، ولكنها فى جميع الحالات تمثل انحرافاً عن السواء النفسى المنشود.

وكذلك الحال بالنسبة للانصياع فى الجماعة دون تفكير، فإن هذا الانصياع يمثل مرضاً قد يذهب بالشخصية ويضعفها.. . فالشخص الذى لا رأى له ولا شخصية، والذى ينساق وراء كل رأى ويهتف وراء كل ناعق ويسير تارة إلى الشمال وتارة إلى اليمين، هو شخص ضاعت فرديته وفقد هويته.

ومن هنا يتحدد خط السواء النفسى، فهو يتحدد على أساس مدى ما يتمتع به الشخص من قدرات وعوامل، وما يصاحب هذه القدرات وتلك العوامل من أفعال وسلوكيات بعيداً عن عوامل الإفراط أو التفريط... . فإن الله لم يخلق الناس ليفقدوا شخصيتهم فى رحمة المسيرة أو الإمعان فى الأتانية، بل طالبهم بإقامة الحياة الراشدة، تلك التى تحتاج إلى أشخاص قوى شخصية ورأى وقدرة على احتمال التبعات.

ومن هنا كان لا بد وأن ننبه، قبل أن نحدد الأبعاد التى تمثل الشخصية السوية والصفات التى تتمتع بها، إلى ضرورة التحول النفسى؛ لكى يتم صلاح المجتمع الذى نعيش فيه تمشياً مع قول الحق تبارك وتعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

[الرعد: ١١]

والمأمل العميق لهذه الدعوة الربانية إلى تغيير النفس، سوف يجد أنها تطالبنا بالنظر إلى أنفسنا بغية تغييرها والعمل على إصلاحها؛ فالتغيير النفسى ضرورة ملحة تسبق كل التغييرات الاجتماعية، وجدير بالذكر أن نوضح أن هذا التغيير لا بد وأن يكون تلقائياً، دون إكراه أو عنف أو تسلط، فالحياة النفسية لا يؤثر فيها

مثل هذا الأسلوب الغاشم، ومثل هذه التصرفات العنيفة، بل لابد إن أردنا أن نغير من الاتجاهات السالبة في نفوس الأفراد، من أن نعتمد على الإقناع وتبادل الرأي والمناقشة المنطقية.

ذلك هو الأسلوب الأمثل الذى يقره الشرع وينادى به؛ خاصة وأن أسلوب الإكراه والعنف والبطش غالباً ما يسبب عناداً ومكابرة (أو ما يسمونه بعض علماء النفس بأسلوب المخالفة واتخاذ الضد)، الذى يعد من الشروط الأساسية لتغيير المجتمع، أن نتبع الخطوات الآتية:

✽ ضرورة توضيح العادات السيئة وما يصاحبها من تقاليد، يغلب عليها الطابع المادى، ويشوبها فكر يتسم بالجهل والبعد عن الصواب.

✽ يستمر هذا التوضيح فترة ليست بالقصيرة، حتى يتم لذوى هذه العادات وتلك التقاليد الفهم أو الوقوف على مافيهما من أخطار وأخطاء.. ثم نبداً بالنهاى عنها.

✽ وضع برامج العادات الأخرى البديلة، والترغيب فيها من خلال ما تقدمه من مؤشرات سلوكية تليق بالمستوى الإنسانى، وترتقى بالوجود البشرى إلى المكانة السامية التى تليق به.

✽ إذا تم الترغيب على الصورة المكتملة المقنعة، فلا بد من الإلزام باتباع هذه العادات المرغوبة، والابتعاد عن تلك العادات، التى كانت تمثل حجر عثرة بين الإنسان والصراط المستقيم.

ومن هنا يتم التعبير إذا كان الإيمان صادقاً... والعزيمة جادة.

وقد يطالبنا سياق الحديث بأن نسترشد بآيات من القرآن الكريم، توضح ضرورة الترغيب والإقناع والابتعاد عوامل القهر والمناداة بالإقناع.

يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ

السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾
 إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ
 يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾

[الإنسان: ٢: ٧]

والتأمل للآيات الكريمة، سوف يجد أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بقدرته العظيمة من نطفة أمشاج «صفات متباينة ولكنها ممتزجة بقدر وعناية» لا عبثًا ولا جرافًا ولا تسليّة، ولكنه خلق الإنسان ليبث فيه ويمتحنه ويختبره، ويجزيه وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه، ومن ثم جعله سميعًا بصيرًا؛ أي زوده سبحانه وتعالى بوسائل الإدراك ليستطيع التلقى والاستجابة وليدري الأشياء والأمور المحيطة به، وعليه أن يحكم ويختار ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار.

وذهب الله الإنسان الاستعداد للتلقى والاستجابة والمعرفة والاختيار، وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة بمقدار!! ثم زوده إلى جانب المعرفة بالقدرة على اختيار الطريق، وبين له الطريق الواصل ثم تركه ليختاره، أو يضل طرق أخرى لا تؤدي إلى الله.

وهنا ينبغي للإنسان أن يشعر بجديّة الأمر ودقته، ويدرك أنه مخلوق لغاية وأنه مشدود إلى محور، وأنه مزود بالمعرفة ومحاسب عليها، وأنه قد وجد في هذه الحياة ليخوض امتحانها ويجتاز البلاء، ونلمس ذلك في الآيات الكريمة التي تسمى المؤمنين «بالأبرار»، وهم عباد الله تكريماً وإعلاءً للفضل تارة وللقرب من الله أخرى؛ لأنهم يفعلون ما التزموا من الواجبات، ويتحملون كل المسؤوليات التي تدفعهم إلى الأعمال الصالحة؛ لأنهم يخافون يوماً كان شره مستطيراً.

هنا تتجلى الشخصية السوية في أعظم معانيها؛ فهي تتمثل في حساسية القلوب وحيوية العاطفة، والرغبة في عمل الخير ابتغاء وجه الله والتجرد من كل للمحسوسات والابتعاد عن سلوك المصلحة، الذي يجعل الإنسان في وضع أناني يفقده إنسانيته.

ويلاحظ أن القرآن الكريم، قد حدد أهدافه بالنسبة للنفس البشرية على الوجه التالي:

خطوات السواء النفس،

١- تمحيص النفس وتطهيرها،

أراد الله سبحانه وتعالى للنفس البشرية أن تصفو وتذق من خلال تحملها للشدائد والمحن، وقدرتها على مواجهة الصعاب، وتقبلها ورضاها بقضاء الله وصبرها على البلاء وشكرها على النعماء.

ومن هنا كانت إرادة الله سبحانه وتعالى، ولاتزال النفس البشرية تعاني حلول الحياة ومرها وخيرها وشرها، وأن يكون لها في تلك المعاناة تمحيص وتطهير وتصفية وتنقية.

وبطبيعة الحال لم يجعل الله سبحانه وتعالى هذا الابتلاء موجهاً إلى نفس دون نفس، ولم ينقل منه أى وطن أو أمة معينة، بل جعله عاماً فى كل النفوس الإنسانية على السواء.

وإذا نظرنا إلى الأنبياء، وجدنا كيف كان الابتلاء والاختيار من نصيبهم فى الحياة؛ فإبراهيم عليه السلام ألقى فى النار بلا رحمة، لولا أن تداركته رحمة الله.

ويوسف عليه السلام أودى من أخوته، وبيع بثمان بخص بدرهم معدودات وتعرض للفتنة والابتلاء وطرح فى السجن، ومكث فيه بضع سنين.

وأيوب عليه السلام قد ابتلى بالمرض ومسه الضر.

وعيسى عليه السلام قد تعرض لأضطهاد اليهود وتعذيبهم.

وخاتم الأنبياء محمد ﷺ:

قوبل بالكذب والتعذيب والسخرية، واضطهده أقرب المقربين إليه فلا أثر ذلك فى نفسه، بل مضى يدعو إلى الله تعالى مستسهلاً كل صعب مستعذباً كل عذاب حتى نصره الله ومكن له ولدته فى الأرض، وهكذا يكون الانتصار،

ويكون الجزاء في مواجهة معركة الحياة، بما فيها من مواقف صعبة وإبتلاء ومحن.

وتصور الآية الكريمة قانون النصر للعباد الصابرين في قول الحق تعالى:

﴿لَتَبْلُوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾
[آل عمران: ١٨٦]

٢- وضع النفس في موضعها الصحيح، دون مبالغة في مدحها أو إنقاص من وزنها،

يحدد القرآن الكريم قيمة أن توضع النفس البشرية في موضعها الصحيح؛ بحيث لا تخرج عن قيمتها الحقيقية عن طريق الزهر والفخر، ولا تنقص من قدرها عن طريق الإنقاص من قدرها. . . بل إن التوسط والاعتدال من الأمور المهمة التي ينبغي أن تراعيها النفس.

فليس هناك داع لتعظيم النفس ورفعها فوق قدرها، بحيث قد نجد في بعض الاتجاهات الفلسفية من يرى أن الإنسان سيد الكون، وأنه، رب أفعاله، وهذه الاتجاهات، على الرغم من أنها قد تبدو للمعتمل العابر أنها تمجد الإنسان، إلا أنها حطمت بهذه الغلالة وتلك الشرنقة التي جعلته يبدو مغروراً فكان ضحية لغروره.

وأيضاً هناك اتجاه عند بعض المتصوفة الذين غالوا في احتقار النفس وسلبوها كل قيمة لها، فانسحبوا من الحياة وطرحوا الشواغل وتركوا الأعمال، هؤلاء أيضاً قد أخطأوا الطريق ... ولا ينبغي للإنسان أن يتصور نفسه حقيراً أو أقل، وقد كرمه الله ووهبه الإدراك والعقل والمعرفة.

فلا يجوز التطرف في مدح النفس كما لا ينبغي احتقارها.

﴿فَلَا تَزْكُوا الْفُسْكَمَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

[النجم: ٣٢]

التطلع إلى المثل الأعلى من القيم والعادات،

ذلك هو الهدف الأسمى الذى يتركز فى إصلاح النفس والسمو بها؛ لكى يتم لها التعامل السليم مع غيرها من النفوس، ومكارم الأخلاق من الصفات الأساسية للنفس الإنسانية الظاهرة، وقد أوضح الله سبحانه وتعالى أهمية البعد الأخلاقى كأساس فى الشخصية، دون وضع اعتبار لكثرة المال أو عظمة الجاه وقوة السلطان، فكان مدحه للرسول الأمين محمد ﷺ:

﴿وَأَنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم: ٤]

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

[آل عمران: ١٥٩]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

[الأنبياء: ١٠٧]

النفس الإنسانية لابد لها وأن ترتقى من خلال تدريبها على مكارم الأخلاق وأن ترتبط هذه النفس بخالقها، وأن يخضع فى كل أمورها لله سبحانه وتعالى.

٤- تعليم النفس الطاعة من خلال الترضيب، وريدها عن المعصية بالترهيب،

إن طبيعة النفس البشرية تحتاج إلى أن نفهمها بعمق لنؤكد من خلال هذا الفهم أن الأعمال الخيرة لابد وأن تنبع من دوافع قوية إليها، ومن هنا وجب الترغيب، والحث على إتيان مثل هذه الأفعال.

وكذلك أيضاً تكون دوافع سلبية نحو الأفعال الشريرة، التى تدفع الإنسان إلى إتيان المعصية والأفعال الكريهة، ويوضح الله سبحانه وتعالى أهمية الطاعة والبعد عن المعصية فى قوله تعالى:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

[السجدة: ١٦]

٥- تحقيق الاتصال بين النفس وخالقها، عن طريق تعجيده وتسبيحه وتقديسه
وتحميده؛

يلاحظ أن التيارات الحديثة في علم النفس قد بلغ بها المطاف إلى ما يسمى
الآن بالانجاء الإنساني Humanistic approach، ذلك الانجاء الذي يرى أن العودة
إلى الإيمان هي السبيل الوحيد والغاية القصوى، التي من خلالها يصل الإنسان
إلى الأمن النفسي ويحقق السكينة لنفسه.

وبطبيعة الحال هذه الدعوة الجديدة لم تقدم جديداً، لأنها كما يقول المناطقة
«مصادرة على المطلوب»؛ بمعنى إذا كانت هذه الدعوة تعتبر جديدة لدى علماء
الغرب بحيث تدعوهم أن يعودوا إلى الدين بغية تحقيق الأمن النفسي، فإنها
أصيلة مستمرة بالنسبة لمن يريد أن يحقق لنفسه السواء النفسي في جميع مناحي
الحياة؛ لأن شفاء النفس لا يتم إلا من خلال هذا الاتصال بين الإنسان وربه...
فذلك هو الطريق السليم الذي يأخذ بيد الإنسان، ويجنبه كل سوء.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

(الرعد: ٢٨)

الاتجاهات المختلفة التي تناولت السواء النفسي؛

أولاً: الدوافع:

يدفع الفرد في نشاطه مجموعة من الدوافع، تمثل حالات نفسية لها تأثيرها
في الفرد؛ حيث تعمل عملها في توجيه الفرد وتحرير طاقاته النفسية، بحيث
تمكنه من العمل لإشباع الحاجة التي ظهر لها هذا الدافع لكي يحققها.

وتلعب الدوافع دورها الفعال في حياة الفرد، الأمر الذي يجعلنا نتناولها من
وجهة نظر بعض المدارس التي ذاع صيتها في مضمار علم النفس والصحة
النفسية؛ بغية التوصل إلى فكرة بسيطة عن كل مدرسة؛ لتوضح كيف كان مفهوم
الشخصية السوية يرتفع بهذه الاتجاهات الفكرية لكل مدرسة.

الدوافع من وجهة نظر مدرسة التحليل النفسى،

يمثل فرويد حجر الزاوية بالنسبة لمدرسة التحليل النفسى، ذلك الذى يتصور أن الغرائز تمثل بدورها تلك القوة الدافعة لإحداث التوتر الذى يشعر به الفرد، والتي تعتبر «الهى Id» مركزاً لهذه الغرائز... ويرى فرويد أن هذه الغرائز بمثابة مطالب للجسم، وهى محور الحياة النفسية للإنسان... فى إشباعها سعادته، وفى وأدها توتره وقلقه وعذابه!!

وبطبيعة الحال... فإن تفسير فرويد لدوافع الإنسان على أساس غريزى، بل وحدد هذه الغرائز فى غريزتين أساسيتين، هما: غريزة اللذة الجنسية تلك التى عبر عنها بالليبدو Libido تارة وبالأيروس Eros تارة أخرى، ثم غريزة التدمير أو التحطيم تلك التى تعكس كل جوانب الرغبة فى التحطيم لدى الإنسان.

هذا التصور العجيب الذى وضع الإنسان فى صورة مشوهة قد جعل البشرية كلها منحرفة... بل لقد قال فرويد نفسه هذه العبارة، بعد أن ترك الإنسان نهياً لغريزة الأيروس، ومتقهماً محطماً من خلال غريزة التدمير والتحطيم، قال:
«إننا جميعاً مصابون بالهستيريا إلى حد ما»⁽¹⁾.

وبطبيعة الحال يعد هذا التصور من قبل مدرسة التحليل النفسى ضعيماً للغاية وقاصراً فى وجهة نظره؛ لأنه اعتبر الوجود البشرى بمثابة تكوين سديم، لا يتحرك إلا من خلال وخز دوافع جنسية، ولعل هذا التأكيد على ضرورة وإلزام إشباع مثل هذه الغرائز يجعلنا نرفض هذا التصور الفرويدى، على الرغم من اعترافنا بأهميته كمرحلة كلاسيكية فى تاريخ علم النفس، تقرأ بحذر ولا يجوز أن تسيطر؛ حيث إن الإنسان الذى كرمه الله وأحسن تقويمه لا يجوز أن يترك سدى لتعبت به الغرائز وتحطمه الشهوات، وكيف يمكن أن نتماشى مع هذه المدرسة، وقد تصورت أن الإنسان الذى يتمسك بالقيم ويحرص على الدين، وما

(1) "We are all hysterical to some extent". Freud, S. "Three Contributions to sexual theory". Pelican books, p. 32.

يتبعه من أمور وتصرفات بمثابة المريض النفسى، الذى قد اغرق نفسه فى متاهات لا طائل من وراءها!!

المدرسة السلوكية والدوافع،

يتضح من مسمى هذه المدرسة أنها تركز على سلوك الإنسان، والسلوك المقصود هنا - ما يمكن ملاحظته، ومن ثم يمكن أيضاً إخضاعه للتجريب والضبط العلمى، ومن هنا اشتهرت هذه المدرسة بما يسمى تكوين العلاقة الحتمية بين المثير Stimulus والاستجابة Response.

والاتجاه السلوكى على وجه العموم بتصور دور الدوافع بالنسبة للشخصية على الوجه الآتى:

١- أن الغرائز لها تأثيرها على الشخصية، ولكنها ليست محورا أساسيا فى تكوين الشخصية.

٢- تهذيب الشخصية وتنميتها يأتى من خلال المواقف التى يمر بها الشخص، وبقدر ما يمر الشخص بمواقف بقدر ما يمتلك من خبرات^(١).

٣- تعترف هذه المدرسة بالدوافع الفطرية. وبدورها فى تحريك نشاط الفرد إلا أنهم يتصورون فقط أن هذه الدوافع الفطرية تركز على مجموعة محدودة من الانفعالات، هى: انفعال الخوف، وانفعال الغضب، وانفعال السرور. ويلاحظ أن هذه الانفعالات يمكن رصدها وملاحظتها بالعيان المباشر، دون الدخول فى متاهات اللاشعور، كما زعم فرويد وأصحاب التحليل النفسى.

ترى هذه المدرسة أن الإنسان إذا أراد أن يكون قيما وأخلاقه، فعليه أن يكونها

(١) ينطبق على هذه المدرسة المثل الشعبى الذى يقول:

اللى يمشى ياما يشوف واللى يمشى يشوف أكثر

بالأسلوب نفسه الذى يكون به مهاراته التعليمية وخبراته المختلفة، ومن هنا فإن القيمة التى لها معنى هى تلك التى لها نتاج محسوس وملمس، ولعل ذلك يوضح الاتجاه النفعى؛ حيث اعتمدت هذه المدرسة على ما يسمى Cash value، وهى القيمة الفورية من العمل، ولقد عبروا عنها من خلال القضية الآتية:

«إن الفكرة الصائبة تؤيدها دائماً نتائجها الفورية».

وواضح أن هذه المدرسة - وتبعاً لاهتمامها بما هو منظور ومحسوس - قد تغفل أمر الجوانب الروحية كمحرك أساسى، يحرك السلوك الإنسانى؛ على اعتبار أن هذا الجانب من الصعب تحديده وضبطه ضبطاً علمياً أمبريقياً!!

ولعل هذا يمثل نقداً لهذه المدرسة توجهه إليها، فكيف يمكن أن نتصور الإنسان صحيحاً نفسياً، وقد غرق فى بحر الماديات؛ حتى أعمته عن أهم جانب من جوانب شخصيته وهو الجانب الروحى!!

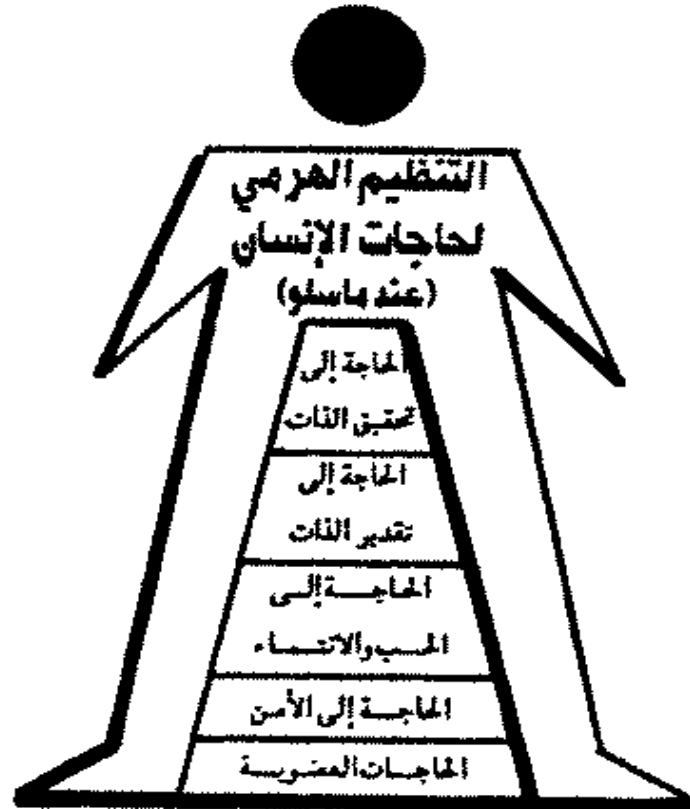
الدوافع من وجهة نظر الاتجاه الإنسانى:

الإنسان من وجهة نظر هذا الاتجاه، لا بد أن ينظر إليه بطريقة شمولية، فهو ليس موضوعاً تحركه بعض القوى الغريزية، أو هو يرتهن بهذه الموجات العصبية والشرارات التى تبعثها المشيرات بحيث تولد استجابات، ولكن الإنسان ككل لا يتجزأ، ومن المستحيل أن يتحول إلى مجرد سلسلة من الوقائع المحضة التى لا تنطوى على أية دلالة إنسانية.

وليس أمعن من الخطأ من تلك المحاولات السيكلوجية، التى يراد بها تفسير الحالات النفسية بإحالتها إلى مجرد حلقات فى سلسلة طبيعية من العلل والمعلولات، فى حين أن المهم لفهم الظاهرة النفسية هو إلقاء الضوء على الرابطة الفعالة التى تربطنى بالحدث النفسى؛ حتى يتبين لنا بكل وضوح كيف أنه لا يمكن أن تتحقق ظاهرة نفسية فى مجرى شعورى دونى أو على الرغم منى!!

وهكذا نرى أصحاب هذا الاتجاه لا يرفضون وجود غرائز لدى الإنسان، كما لا ينكرون هذا الاتصال العصبى بين المثيرات الخارجية وما يترتب عليها من استجابات، وإلى أى حد تتأثر الشخصية وتتعلم من خلال المواقف التى يمر بها الإنسان، غير أن هذا الاتجاه ينظر إلى الإنسان على أساس أنه كيان، يعمل ككل وأن الإنسان فى سعيه المستمر ينشد تحقيق ذاته.

وأن هذا السعى يمر بمراحل متدرجة قد وضعها ماسلو Maslow، وهو واحد من زعماء هذا الاتجاه.. فى شكل تنظيم هرمى، جعل فيه الإنسان يتطلع إلى هذه الغاية «تحقيق الذات» كقمة الهرم، وهو يمر بحاجاته العضوية والنفسية متدرجاً صاعداً لهذه الغاية القصوى، كما يتضح فى الشكل التالى:



ثانياً، الصراع النفسى ووجهة نظر بعض مدارس علم النفس،

إن الإنسان ليستطيع أن يحيا على نحو ما توجد الأشياء... فما عليه لكى يحقق هذا الأمر، سوى أن يترك نفسه نهياً للقوى الخارجية، ولكن لما كان الوجود البشرى ليس بشيء، فإن مثل هذه الحياة لا بد من أن تفرض عليه التنازل عن إنسانيته؛ ومعنى هذا أن الوجود البشرى إنما يصبح موجوداً مبتدلاً، عندما يكون مستغرقاً بأكمله فى غمرة العالم الخارجى.

من هنا ينشأ الصراع بين الإنسان ونفسه ومعطيات العالم المحسوس الذى يعيش بين جوانبه، لأن الإنسان عندما تدفعه رغباته لكى يحقق أمراً معيناً يصطدم بعائق... فإنه يقع نهياً للصراع النفسى، إذا تعرض لمجموعة من القوى المتساوية، تدفعه فى اتجاهات متعددة فيصاب بالتشتت والتوتر والصراع. ولما كان الإنسان مشغولاً دائماً عن نفسه بالعالم والناس وحركة الجماعة... فإنه فى غالب الأحيان ما يكون مأخوذاً بسحر المعطيات الحسية هارباً باستمرار عن ذاته؛ لأن التركيز الذهنى بضميه، والتأمل الباطنى يشل حركته ورقابة الضمير تثقل كاهله!!

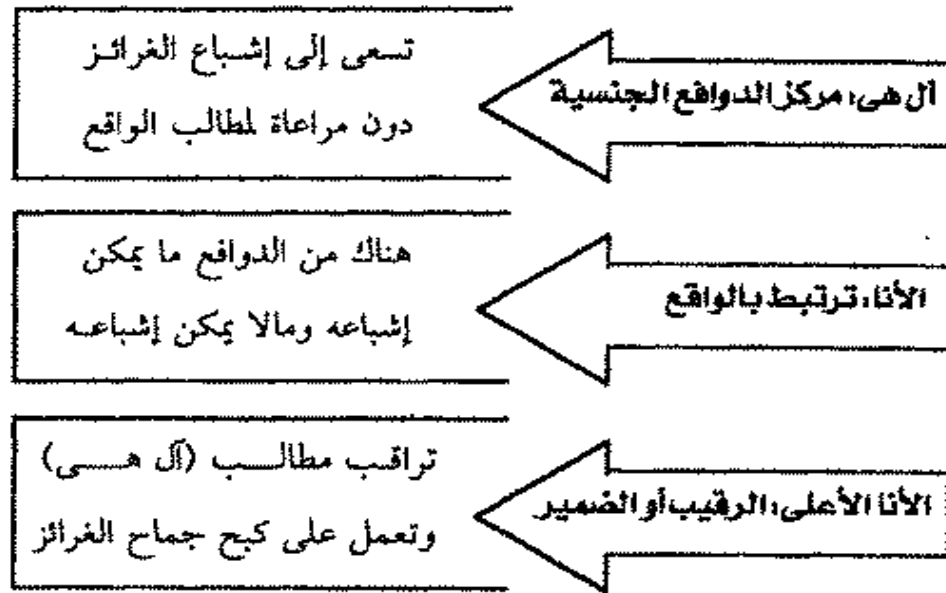
من هنا كان لا بد للإنسان من أن يقع فريسة للصراع النفسى، طالما هو قدلقى بنفسه إلى الخارج فى كل لحظة، محاولاً أن يشبع دوافعه ويحقق مأربه، فكيف يمكن أن يتخلص الوجود البشرى من الصراع النفسى، وهو يميل دائماً إلى تحقيق ذاته، وفى الوقت نفسه يسعى إلى الطمأنينة والسلوى، وينسى أن الانغماس فى عالم الممكنات سوف يؤدى به إلى التوتر والصراع النفسى!

من هنا كان لا بد وأن نتعرف بصورة وجهة نظر مدارس علم النفس حول قضية الصراع النفسى، كما سبق وعرضنا وجهة نظر هذه المدارس فى قضية الدوافع.

الصراع النفسى من وجهة نظر مدرسة التحليل النفسى،

سبق وعرضنا لوجهة نظر هذه المدرسة بالنسبة لقضية الدوافع، وعرفنا أنها تركز على إشباع مجموعة الغرائز الحيوية فى الإنسان، وتسحب وجهة النظر

عنده على قضية الصراع أيضاً؛ لتؤكد أن الإنسان الذي يريد لنفسه أن تتجنب الصراع والتوتر، عليه أن يشبع دوافعه البيولوجية دون أن يتأثر بما قد يصطلح عليه المجتمع من قيم وتقاليـد وعادات قد تصطدم مع هذه الحفزات البيولوجية، ويشكل هذا الاتجاه النفسى صورة الصراع النفسى على أنها بمثابة حرب ضروس تشنها أجهزة الشخصية، تلك الأجهزة التى صورها أصحاب مدرسة التحليل النفسى على الوجه الآتى:



الصراع النفسى قائم إذا لا محالة بالنسبة للإنسان اعتماداً على هذا التصور لتركيبية الشخصية، ولاسبيل للإنسان من وجهة نظرهم من الهرب من وطأة مطالب (آل هي) أو العلاقة المتوترة بين (الأناء وآل هي) أو المثول، أما محكمة الأناء الأعلى تلك التى تحاول جاهدة أن تقف (للهمى) بالمرصاد.

ولقد استطاع أصحاب مدرسة التحليل النفسى أن يجعلوا الإنسان فى حالة من التوتر والصراع المستمر، على اعتبار أن الإشباع الغريزى من الأمور المستحيلة، وأن ما لا يستطيع أن يشبعه الإنسان يحول إلى مكونات، تخزن فيما يسمونه مخزون اللاشعور، ومن هنا اعتبر أصحاب هذه المدرسة أن الصراع النفسى بمثابة المدخل الأساسى فى تفسير نشاط الفرد.

وإذا جار لنا أن نوجه نقدًا لهذه المدرسة في رؤيتها القاصرة للإنسان وتجريده من إنسانيته وتصورها لمفهوم السواء النفسى على أساس أن محوره إشباع غريزى . فإننا نقول: إن الإنسان قد خلقه الله لكى يؤدى رسالة فى الحياة، وأن يفكر فى كل ما من شأنه أن يجعله إنسانًا يفكر فى تكوين أسرته، ويتعامل مع المشكلات التى تواجهه وتخفف من حدة متاعبه، وما يمر به من أحداث وما اطلع عليه من أنباء، وما يعتزم القيام به من مشروعات.

إنه إنسان، والإنسان لا يستطيع أن يعيش دون أن يفكر، ودون أن يسمو بنفسه إلى أعلى درجة، تجعله يجاول أن يتفصل ولو إلى حين من هذا المستنقع الغريزى، الذى جعله أصحاب التحليل النفسى يفتح غطاءه، ويكشف بضراوة عن راحته العفنة التى تزكم أنوف أصحاب المبادئ والقيم والمثل العليا.

الصراع النفسى والمدرسة السلوكية،

سبق واشرنا إلى أن التنازع بين ميلين يؤدى إلى الصراع النفسى، ويضرب الأستاذ الدكتور القوصى مثلاً طريقًا ليحدد لنا أنواع الصراع، تلك التى سوف نسترشد بها فى تحديد الصراع النفسى عند المدرسة السلوكية، فيقول:

«نفرض أن شخصًا ما لديه حاجة ملحة شديدة إلى النقود، ولنفرض أن صديقًا له أعطاه نقودًا ليسلمها شخص ثالث، فإنه قد يتخذ واحدًا من المسالك الثلاثة الآتية:

- ١- يسلم النقود لصاحبها بغير تردد.
- ٢- يأخذ النقود لنفسه بغير تردد ولا يسلمها، أو يؤجل تسليمها لما بعد قضاء حاجته.

- ٣- يحدث صراع تقع فيه نفسه بين الرغبة فى قضاء حاجته، والرغبة فى أن يكون أمينًا، وينتج من هذا الصراع تغلب إحدى الرغبةين على الأخرى^(١).

(١) ارجع إلى الدراسة الرائدة الموسومة باسم (أسس الصحة النفسية) للأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى - دار الفلم - الطبعة الثانية ١٩٧٦ (ص من ٩١، ٩٥).

والمدرسة السلوكية يمكن أن نلخص وجهة نظرها في أمر الصراع النفسى، مع
توظيف المثال السابق على الوجه الآتى :

صراع الإقصادام:

وهو يشير إلى الموقف الذى يكون فيه الإنسان أمام هدفين مستقلين، على
اعتبار أن تحقيق أحد الهدفين يتمخض عن فقدان الآخر.

«يسلم الشاب النقود لصاحبها بغير تردد».

والملاحظ على هذا النوع من الصراع أن أمره سهل وميسور؛ حيث يستطيع
الإنسان أن يحسم الموقف بأن يرجح إحدى الكفتين، جاهلاً أحد البديلين هدفاً
مرغوباً فيه يفضل على الآخر.

صراع الإحجام:

وهو يشير إلى الموقف الذى يكون فيه الإنسان أمام هدفين؛ بحيث أن تجنب
أحدهما يكره الإنسان على الاتجاه إلى الآخر.
«ياخذ النقود لنفسه بغير تردد ولا يسلمها».

صراع الإقدام بالإحجام:

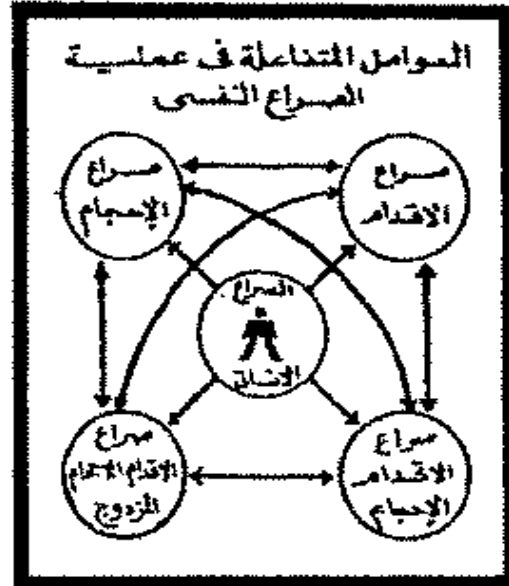
يحدث هذا النوع عندما يكون هناك هدف معين، يمثل رغبة ورهبة فى الوقت
نفسه «الرغبة فى الحصول على المال» والرغبة فى أن يكون أميناً مخلصاً».

صراع الإقدام بالإحجام المزدوج:

هذا النوع من الصراع هو تركيب من صراعات الإقدام والإحجام - وقد
توصل إليها أصحاب المدرسة السلوكية، من خلال تجاربهم التى أجريت على
الحيوانات وخاصة الفئران - وجدير بالذكر أن هذا النوع الرابع من الصراع
لا يمكن أن ينطبق على حياة الإنسان - تلك التى تتميز بالتشابك والتفاعل وأعمال
الفكر والإرادة؛ الأمر الذى جعلنا نتحيط ونحزن نتعامل مع مثل هذه الدراسات.

ولقد أورد (عبد الغفار ١٩٧٦) دراسة ميلر ومساعدة (١٩٧١)، وما وصلوا إليه من نتائج فى هذا المجال على أساس تفسير سلوك الإنسان والاسترشاد ببعض المفاهيم الأساسية فى عملية التعلم، كما يراها السلوكيون؛ وخاصة مفهوم مراتب الهدف على الوجه الآتى^(١):

- ١- يزداد الإقدام نحو الهدف كلما اقترب الكائن الحى منه؛ أى إن الفرد كلما اقترب من هدفه، ازدادت قوة الاستجابة التى تؤدى إلى وصوله إلى الهدف.
- ٢- يزداد الإحجام عن الهدف غير المرغوب فيه كلما اقترب الكائن الحى منه؛ أى



إن الكائن الحى كلما استشعر اقترابه من موقع الخطر، ازدادت قوة الاستجابة التى تمكنه من الابتعاد عن هذا الخطر.

- ٣- تزداد قوة استجابة الإحجام بمعدل أكثر من ازدياد قوة استجابة الإقدام (خاصة وأن الكائن الحى يميل إلى الابتعاد عن المثير غير المرغوب فيه).

- ٤- تتوقف ظهور الاستجابة سواء كانت استجابة إقدام أو استجابة إحجام على شدة الدافع، الذى يعمل على ظهور هذه الاستجابة بنوعيتها.

(١) أرجع إلى الدراسة التى قدمها الأستاذ الدكتور عبد السلام عبد الغفار (مقدمة فى الصحة النفسية) دار النهضة العربية - القاهرة، ١٩٧٦ ص ١٠٩ .

وهكذا قدر للسلوكيين أن يفسروا قضية الصراع النفسى على أساس من الارتباطات الشرطية وتصميم بعض المواقف التجريبية. وقد كانت الحيوانات محوراً لتجاربهم وأداة تستخدم فى معاملهم، ومن هنا وجب التحفظ على نتائج هذه المدرسة فى قضية السواء النفسى.

الصراع النفسى وأصحاب الاتجاه الإنسانى فى علم النفس،

فى عرضنا لوجهة نظر (ماسلو) فى قضية الدوافع، وجدنا أن الإنسان يتطلع إلى تحقيق ذاته كغاية قصوى، ولعل هذا الأمر ينسحب أيضاً على عرضنا لقضية الصراع النفسى، على اعتبار أن الاتجاه الإنسانى يرى أن الصراع النفسى ينشأ عند الفرد، عندما يصطدم بعوائق تحد من تحقيق إنسانيته، فإذا كانت الاتجاهات السابقة (ونعنى بها فرويد والتحليل النفسى والسلوكية) قد حددت قضايا الدوافع والصراع على أساس الإشباع الغريزى، وتشكيل بعض المواقف التجريبية التى تعتمد على مجموعة من المثيرات والاستجابات.

إن الاتجاه الإنسانى يتصور أن هذه المحاولات لا يمكن نكرانها؛ حيث استطاعت أن تمدنا بكثير من المعلومات والمعارف عن الإنسان. إلا أنها لم تنجح فى أن تعرفنا الإنسان فى جملته، أو هى لم تنجح فى أن تكشف لنا عن الإنسان. فالإنسان فى نظر هذا الاتجاه هو ذلك الموجود الحر، الذى يند عن كل معرفة حسية بل هو (حرية) وإرادة، تفلت من طائلة هذه الأغلال المتمثلة فى إخضاعه للمواقف التجريبية.

فالإنسان هو الموجود الحر الذى ينبغى أن ينظر إليه على أنه طاعة وإرادة، وتجنب الصراع النفسى يأتى من ممارسة الإنسان لإرادة الفعل Will of doing، ويعتمد على درجة العلاقات الارتباطية التى تحدث بين المثير والاستجابة، وتتم بالاشتراط، وتخضع لعوامل تعززها حيناً، وأخرى تجعلها فى حالة كمون أو انطفاء.

ثالثاً، الإحباطات وأثرها على صحة الإنسان النفسية؛

وإذا كنا قد تناولنا مفهوم السواء النفسى، من خلال عرضنا لبعض الآراء النظرية التى وردت عند الاتجاه الغريزى متمثلاً فى التحليل النفسى، وعند السلوكيين وأصحاب النزعة الإنسانية والخاصة بالدوافع والصراع النفسى.. فإننا لابد وأن نقرر أن الشخصية تتعرض إلى عوامل أخرى تتعلق بمفهوم الإحباط Frustration، وتأكيد عرض هذا الموضوع يأتى من أن الإنسان يواجه فى حياته مجموعة من العوائق، التى قد تتدخل وتقف حجرة عثرة أمام الشخص؛ فتمنعه من إشباع دوافعه وتحد من رغباته، فيشعر بانفعال خاص يشعره بالعجز وقلة الحيلة!!

وتختلف قدرة الأفراد على تحمل المشاق والصعوبات التى تواجههم فى الحياة؛ فكثيراً ما نجد من الناس من يصاب بهذا الإحباط؛ نتيجة أى تعبير غير متوقع فى مجرى الأمور أو لفشله فى الحصول على ما يريد، وهناك من الأفراد من يتمتع بصلابة قوية، تمكنه من مواجهة المتاعب والتغلب على عوائق الأحداث اليومية بدرجة عالية من الصمود والتحمل؛ بحيث لا يجعلول هذا الانفعال الناشئ من الإحباط يتمكن منهم أو يقلل من عزيمتهم.

والواقع أن الإحباط قد تتدخل فى أحداثه مجموعة من العوامل نذكرها، حتى نؤكد أن درجة تحمل المشاق تعتبر واحدة من أهم معايير الشخصية السوية.

ومن الممكن أن تكون هذه العوامل ما يلى:

- * يشعر الفرد بالإحباط عند مواجهة عائق يمنعه من إشباع حاجة، يتطلع إلى إشباعها بحرص شديد ودافع قوى.
- * تلعب الخبرات دوراً مهماً فى الأفراد؛ فبقدر مرور الإنسان بخبرات متعددة، بقدر ما يتمكن من تقبل الإحباط Frustration tolerance، ومن هنا يختلف الأفراد فى مدى تحملهم مواقف الإحباط، بعضهم عن بعض.
- * تلعب المحاور الثلاثة (أهمية الحاجة بالنسبة للفرد - شدة الإعاقة التى تواجه

الفرد وضراوتها - عدد مرات الفشل فى إشباع الدوافع) دوراً مهماً فى تحديد درجة الإحباط، التى يعانى منها الفرد.

* قد يظهر الفرد سلوكاً عدوانياً تجاه مصدر الإحباط Frustration Source، وقد يتصور نفسه سبباً فى عدم إشباع دوافعه فيوجه سهام عدوانه إلى نفسه. ومن هنا ينبغى الاهتمام بتفريغ طاقة العدوان هذه، ونحاول أن نتعامل معها بهوادة؛ لأن الإنسان إذا ما سار تجاه دوافعه محاولاً إشباعها، دون أن يتوقع أو يعمل حساباً لدوافعه، فإنه قد يواجه مشكلات لا يعلم تأويلها.

ومن هنا كان الأدنى للصواب أن يحصل الإنسان على ضرب من ضروب التوازن بين ما يريد وما يملك... أو بين ما عنده وليس عنده، ولكنى أرحب فيه وأتطلع إليه!!

فالإنسان لابد له من أن يحرص على اتزانه حرصه على الحياة؛ حتى يتمكن من الاستمرار فى التقدم... فإذا كانت هناك ثمة عوامل، قد يكون من شأنها رعدة تكامل الشخصية فى الحياة الواقعية (مثل المرمى والشفاء - الحزن الخطأ - الخطيئة)... فإن هذه العوامل لا يمكن أن تكون بمثابة (قوى هدامة تقضى تماماً على كل توازن)... بل هى فى حالة الإيمان العميق تصبح (قوى منشطة)، تحفز الإنسان إلى المزيد من النمو الروحى والترقى النفسى.

ومن هنا فإن الإحباط يمثل مؤشراً، نستطيع من خلاله أن نستشف مدى القدرة على تحمل الشخص للمشكلات التى تواجهه.

وليس من شك فى أن الإنسان الذى تستبد به المخاوف من أن يفشل أو يصاب بالإحباط من جراء خوفه من مواجهة المستقبل، مثل هذا الشخص بعيد من أن يكون شخصاً سوياً من الناحية النفسية، بحيث يصعب الركون إليه أو الاعتماد على تصرفاته وأفعاله.

والملاحظ على هذا العرض السريع لبعض مدارس علم النفس بالنسبة لقضية السواء النفسى، أننا لم نرد إلا أن نبرز هذه الآراء بصورة متعجلة؛ بغية التنويه

عن أن هذه المدارس لم تقدم جديداً، ولم تقدم القول الفصل في حل مشكلات الإنسان الذي صوروه مرة كجهاز تتحكم فيه الغرائز، ومرة أخرى على أساس أنه خاضع للمثير والاستجابة، أو أنه يتطلع إلى البعد الروحي الذي يمكنه من تحقيق ذاته.

وهنا نجد لزماً علينا أن نتجه إلى المصدر الحقيقي للصحة النفسية، ونعنى به ماورد من آيات قرآنية، تناولت الإنسان من حيث شخصيته وانفعالاته وصفاته، التي ينبغي أن يحرص عليها، إذا أراد لنفسه أن يتمتع بالسواء النفسى توطئة لتحديد ملامح الشخصية السوية^(١).

ولعل الهدف الذى نريد أن نؤكد أن الإنسان إذا كان قد اعتاد على أن يقبل على اللذة ويعزف عن الألم، فلا بد من أن يجد نفسه مدفوعاً إلى المبالغة فى تقرير أهمية الخبرات السارة على حساب الخبرات الاليمة.

وهنا مكنم الخطورة فى أمر الإنسان؛ لأن اللذة لو تحكمت فى أمر الموجود البشرى.. فإن حياته تصبح ضحلة، ليس فيها إلا الخواء والسأم.

ومن هنا لا بد من العودة إلى القيم الدينية، ففيها الاتزان الذى يجعل الإنسان يقبل على اللذة بقدر ومشروعية وينصرف عن الألم بقدر وحذر معين، دون أن يكون وجوده فى هذه الحياة الدنيا مجرد سعى لاهث وراء السعادة الحسية، أو دون أن تكون لإرادته أى قدرة أو لعقله أى إرادة، تمكنه من أن يتحكم فى غرائزه ويعمل على تهذيبها وتعقيها.

(١) لم نتناول ميكانيزمات الدفاع ودورها فى السواء النفسى - وراينا أن نذكرها فى فصل مستقل، لأنها حيل تبريرية يلجأ إليها الإنسان لسد نقص أو لتبرير سلوكه - ولذلك فهي أقرب إلى الأساليب المرضية - أرجع إلى ابن حزم ورايه فى جهود العلماء المسلمين.

◆ الشخصية وتكامل الإنسان

- التعريف الإجرائي للشخصية.
- الشخصية في حركتها وتكاملها.
- تصرفات معبرة عن شخصيات (المسعد والمتحوس ، النكدي والبحيوج).
- البناء النفسي للشخصية في الإسلام.

أعطى علم النفس بفروعه المختلفة لدراسة الشخصية اهتمامًا بالغًا؛ ذلك لأن دراسة الشخصية من أهم الدراسات، التي نالت حظًا عظيمًا على مر التاريخ. وعلى الرغم من ذلك.. فإن الدراسات التي اهتمت بدراسة الشخصية الإنسانية لاتزال في بداية الطريق؛ لأن هناك عوامل كثيرة تتدخل فتعطل فهم الإنسان لذاته، فالإنسان الذي ظل طوال حياته يعتبر نفسه محورًا لهذا الكون، وأن كل شيء مخلوق من أجله، مثل هذا الإنسان قد يجد صعوبة في النظر إلى الأمور التي تتصل به وبشخصيته بعين مجردة، أو أن يقف منها موقفًا علميًا موضوعيًا خاليًا من كل تمييز، ومن كل رغبة شخصية... وهكذا تأرجح الأمور في دراسة الشخصية بين الموضوعية والذاتية؛ مما أثر على الدراسات التي اهتمت بتناول الشخصية الإنسانية بالدراسة العلمية.

والماتمل الآن للدراسات الأجنبية التي تناولت الشخصية، يجدها قد اتخذت منهجًا جزئيًا، يتناول جانبًا من جوانب الشخصية؛ الأمر الذي جعل النظر إلى موضوع دراسة الشخصية الإنسانية من الأمور الشعبة، التي تحتاج إلى نظرة شاملة ومتكاملة.

وقد تعددت التعريفات التي تناولت مفهوم الشخصية، والذي يعنينا من هذا التعريفات أننا لمجدها تناول جزئيات من الشخصية، لا يمكن أن نعتمد عليها، وأصبح التعريف الإجرائي للشخصية هو المحور الرئيسي الذي ننطلق منه، إذا أردنا أن نحدد الملامح الرئيسية للشخصية الإنسانية.

• التعريف الإجرائي للشخصية:

يعبر مصطلح الشخصية عن «دراسة الفرد من حيث هو كل موحد» من الأساليب السلوكية والإنمائية المعقدة التنظيم، التي تميز هذا الفرد من غيره من الناس؛ خاصة في المواقف الاجتماعية.

وهذا التعريف يسوقنا إلى أن الشخصية:

نظام متكامل من الصفات الجسمية والسمات النفسية التي تتميز بالثبات النسبي، والتي تميز الفرد عن غيره من الأفراد، كما تحدد أساليب نشاطه وتفاعله من البيئة الخارجية المادية والاجتماعية التي يعيش فيها.

وترتكز هذه التعريفات على مجموعة من الأركان الرئيسية المميزة للشخصية الإنسانية، وهذه الأركان هي:

التمييز: بمعنى أن كل فرد يتميز بخصائص شخصية تخالف تلك الخصائص المميزة لغيره من الأفراد؛ أي إن الشخصية الإنسانية تختلف من شخص إلى آخر.

الحركية: بمعنى أن الشخصية الإنسانية هي محصلة التفاعل للعلاقة الحركية المستمرة بين الإنسان والبيئة المحيطة به أي إن الشخصية الإنسانية هي نتاج للتفاعل الاجتماعي.

الشمول: بمعنى أن الشخصية الإنسانية تنظيم من سمات Traits وخصائص معينة تميز الفرد، وتحدد استعداداته، وتعبّر عن مجموعة من توقعات لتصرفاته في المواقف المختلفة.

والسؤال الآن: ما العوامل المؤثرة في تكوين الشخصية؟ ومن الممكن أن تكون الإجابة على الوجه الآتي:

(*) يهتم بالتعريف المتكامل للشخصية لأنه هو المحور الذي يعتمد عليه المنظور الإسلامي في بناء الشخصية التكاملية.

١- العوامل الجسمية:

يلاحظ أن الأفراد يختلفون بعضهم عن بعض في التكوين الجسمي . وهناك من يظن أن هذا الاختلاف في المظهر الجسمي كالطول - العرض - ضخامة الجسم له علاقة بالشخصية؛ حيث أثبتت نتائج هذه الدراسات وجود ارتباط ضئيل جداً؛ مما يؤكد أن: التكوين الجسمي له أثر موجب، ولكنه ضئيل جداً في تحديد ملامح الشخصية، وضعيف في تشكيل أبعادها النفسية.

٢- العوامل النفسية:

ويطلق على هذه العوامل التكوين النفسي، وعلى الرغم من تعقد محيط الحياة النفسية وتشعبه وتنوعه، إلا أننا يمكن أن نميز بين تنظيمين جوهريين في الحياة النفسية للإنسان، وهما:

* التنظيم الإدراكي (العقلي):

وهو ما يتعلق بالذكاء والقدرات العقلية الخاصة (كالقدرة اللغوية والقدرة الحسابية، والقدرة الفنية، والقدرة العملية)، كما يتضمن العمليات العليا (كالتمثيل والتخيل، والتذكر، والمهارات العقلية المكتسبة التي ترتبط بمواقف التعلم والاكتساب).

* التنظيم الوجداني (الانفعالي):

ويتضمن أسس السلوك البشري ودوافعه والعواطف والميول والاتجاهات.

٣- العوامل البيئية:

تؤثر العوامل البيئية المحيطة بالفرد تأثيراً كبيراً في نمو شخصيته؛ فمثلاً نجد أن مركز الطفل في الأسرة يؤثر تأثيراً كبيراً على شخصيته، فالطفل الأول يختلف عن الأخير، وكذلك جنس الطفل يؤثر في شخصيته. كذلك تؤثر الظروف الأسرية المختلفة في شخصية الطفل وخاصة العلاقة بين الوالدين، فعلاقة الوثام تختلف في تأثيرها على الطفل عن علاقة الشجار والخلاف.

ومن بين العوامل البيئية المهمة في تشكيل شخصية الفرد: العامل الاقتصادي، ودرجة التعليم، وفرص اكتساب المهارات والخبرات الاجتماعية والمعرفية المختلفة. كما يؤثر العمل الذي يؤديه الفرد في سلوكه وعلى اكتسابه للعادات الفكرية والحركية، وأيضًا ما يصاحب كل ذلك من نواح خلقية؛ فالمهنة لها خلق معين وتقاليد معينة، وهذه التقاليد يجب أن يتبعها أفراد المهنة، ومن ثم فإنه ينتج عن اتباعها اكتساب صاحبها أسلوبًا وسلوكًا معينًا في معاملته مع الغير، يؤثر في تشكيل شخصيته(*).

الشخصية في حركتها وتكاملها،

تعددت الدراسات التي تناولت الشخصية في حركتها وتكاملها؛ فهناك من يرى أن الشخصية تعبير عن سمات، أو أنها محصلة لمجموعة من المؤثرات الاجتماعية واختلفت الآراء. هل هناك نظام ثابت في تناول الشخصية، تتفاعل وفق المواقف الجديدة المتعددة؟ هذه التساؤلات كانت محور اهتمام المشتغلين بدراسة الشخصية.

والواقع أن كلا المدخلين صحيح إلى حد ما، ولكن كلاً منهما على حدة لا يصلح أساسًا لتناول الشخصية وتفسيرها، حقيقة أن الشخصية مكونة من عدد من السمات التي تتغير أو تتعدل من غير حدود عند كل خبرة أو تجربة جديدة، كما أنه صحيح أن الشخصية تتشكل وتتعدل وتتغير، كلما واجهت مواقف اجتماعية مختلفة.

أما بالنسبة للتكامل في الشخصية.. فإن الفرد مكون من مجموعة كبيرة من الاستعدادات الغريزية والإدراكية العامة والخاصة، الفطرية منها والمكتسبة، ويوجد كل عنصر من هذه العناصر في شخصية الفرد بقدر معين.

ويحقق التفاعل بين الجوانب الوراثية والعوامل المكتسبة ضربًا من ضروب

(*) يلاحظ هنا مدى حرص المعلم على أن يزود بالقيم الإسلامية الرفيعة، التي من شأنها أن تجعله قدوة صالحة وشخصية مؤثرة وفعالة.

التكامل فى الشخصية، مع ملاحظة أن التكامل فى الشخصية لا يتحقق بصورته الكاملة؛ حيث تتخذ أساليب الحياة، وترتفع مع هذا التعقيد درجة انتشار التوترات النفسية والصراعات الانفعالية.

ويمكن القول بصفة عامة أنه لكى يتم التكامل والتوافق فى الشخصية.. فلا بد من تفاعل وترابط المكونات الجسمية والعقلية مع المكونات الاجتماعية والانفعالية.

• تصرفات معبرة عن شخصيات:

وإذا كنا قد عرضنا بإيجاز شديد لتعريف الشخصية والعوامل المؤثرة فيها وضرورة التكامل بين الجوانب الجسمية والعقلية، وكذلك بين الجوانب الاجتماعية والانفعالية.. فإننا نلاحظ أن هناك بعض الشخصيات، التى ظهرت بدافع من أفكار ضاغطة أو عوامل ثقافية معينة أو إطار حضارى، يتميز ببعض العادات والقيم المختلفة، وسوف نعرض لبعض أنماط هذه الشخصيات؛ لنستفيد منها ونحاول أن نتجنب سلوكياتها غير السوية.

المسعد والمنحوس:

يميل بعض الأفراد إلى أن يحيلوا الواقع المحسوس إلى كيان خاص، يخلعون عليه لغة خاصة مبنية على مشاعرهم الذاتية.. تلك التى يترجمون من خلالها أحاسيسهم ورؤيتهم للأمور، موظفين مامروا به من تجارب؛ لأن نظرتهم لهذا الواقع تأخذ طابعاً معيناً تحددته تجاربهم، وما قد مروا به من مواقف وموضوعات وقضايا.

وقد يتوهم هؤلاء اعتماداً على نظرتهم هذه أن الموضوعات أو المواقف، التى جعلتهم ينظرون هذه النظرة إلى الأمور فيها عناصر الضغط والقسر، التى تجعلهم لا يملكون سوى الخضوع لما تستثيره هذه الموضوعات من أحداث وعواطف وتكهانات... الأمر الذى يجعل أحاسيسهم تغلف هذه الموضوعات، فتخلع عليها وجوداً جديداً قد يجافى الواقع ويبتعد عنه، فمن خلال هذا الإسقاط

العجيب، والتوقع الذى قد يجسد توهمهم، نرى هذه النظرة المتشائمة. . أو نتوقع ما يمكن توقعه من أضرار وهواجس قائمة.

وواضح أن شعور الإنسان بهذه الأحاسيس التى يستوحى من خلالها أفكاره وانطباعاته القائمة (إذا صح هذا التعبير)، قد يكون مرجعه إلى أن هذا الإنسان يحاول ربط التغيير بالعاطفة بحكم شحنتها الانفعالية التى قد تجافى الحقيقة، وتند عن الواقع، ومن هنا لابد من التمييز بين التعبير والتأثير. . . فإن ما قد يبدو براقاً لامعاً قد لا يرتقى إلى مستوى المعدن النفيس، وما قد يبدو معتماً للمتأمل العابر يراه صاحب النظرة الفاحصة لامعاً متوهجاً؛ فالحكم على المواقف التى قد تؤدي بالإنسان إلى النظرة المتشائمة أو الفكرة؛ التى لا تكون صائبة فى إشراقها إنما مرده أن أصحاب هذا الحكم لا يرون سوى تلك النظرة العابرة، التى قد تحكم حكماً سريعاً على المواقف وما قد يصاحبها من تأملات. . فقد ترى الجمال مسطحاً ولكنه رائف غير طبعى. . . وقد نهتم بحسن المظهر دون أن يكون التعبير صادقاً!!

الإنسان لابد له من أن يضع ضوابط لأحاسيسه وموانع لشططها. . . ولا مانع للإنسان فى عمره أن يخفف من حدة الألم، حتى وإن عرف بأنه سيستمر طويلاً، أو يلفظ من تداعى الشيوخوخة مع معرفته الوثيقة بزوال الشباب!! المبالغة فى العاطفة والإغراق فى التأثير الوجدانى، الذى يصاحبها هو بيت القصيد لما سنعرضه من عوامل وأفكار قد تجعل الإنسان يستشعر السعادة، وأنه مصدر لها وأن جميع خطواته ناجحة لأنه إنسان «مسعد»، أو أن هناك من الأفراد ما يجعل من نفسه مصدراً «للنحس» والفشل، فيصطنع المؤثرات الانفعالية التى تجسم له أحاسيسه فيتوهم الفشل الذريع فى كل خطواته، ولا يملك إزاء هذا الشعور إلا أن يترك نفسه لقمة سائغة؛ يفترسها هذا الشعور بالقنوط والعجز وتوقع سوء المواقف.

• النذائر والبشائر:

ولما كان الشخص الذى يعتقد فى مثل هذه الأحاسيس، هو ذلك الذى يعتقد فى (النذائر) والبشائر تلك التى تدل بدورها على ما يخبئه القدر لهذا الشخص فى المستقبل؛ على اعتبار أن هذه النذائر وتلك البشائر هى بمثابة رموز ومنبهات قد تكون فى بعض حوادث، تلعب فيها المصادفة الخارجية دوراً «كإلهاء الطير أو الحيوانات - رؤية القطة السوداء فى الليل - التعامل مع رقم (١٣) . . . أو فى بعض الحوادث الداخلية، التى قد تكون من قبيل الأفعال المنعكسة التى لا تخضع لإرادة الشخص»، مثل:

«رف العين - الشعور بطنين فى الأذن - أو الإحساس بالأكال Itch (*)» فى راحة اليد أو بطن القدم؛ وهذه الرموز والمنبهات خارجية أو داخلية Intrinsic يقابلها استعداد لتفسيرها بحسب الصفات الانفعالية وعوامل، قد ترجع إلى ظروف التنشئة الاجتماعية، التى يمر بها كل شخص بحيث يضاف على هذه الرموز مغزى ومعنى، وقد يتخذ منها إما بشائر خير يتفاعل بها أو نذائر سوء يتشاءم منها.

وعندما نتكلم عن الشخص، الذى يمكن أن يقال عنه إنه شخص مسعد أو منحوس . . . فإننا نحاول أن نحدد منذ البداية ما يمكن أن يرتبط بهذا الشخص أو ذاك من سمات ندعو إلى التفاؤل أو سمات أخرى تجعله متشائمًا، خاصة وأن الكلام عن التفاؤل قد يجعلنا نشعر بضرب من ضروب الانقباض والجمود والتحجر بالشخص المنحوس.

وإذا حاولنا أن نوضح البعد النفسى لاعتقاد البعض أن هناك من الأفراد من يطلق عليه شخصية (مسعدة)، وهناك من يطلق عليه شخصية (منحوسة) . . . فلعل هذا الاعتقاد مرجعه إلى مجموعة من العوامل، التى قد تكون على الآتى:

(١) أرجع إلى: نجيب يوسف بدوى: سيكولوجية التطير - مجلة علم النفس، يونيو، ١٩٤٩، مجلد ٥، ص ١٦٨

• البيئة المنزلية ودور الوالدين:

تشكل الأسرة بإسهامها الفعال في عملية التطبيع الاجتماعي للفرد مطلباً مهماً من مطالب النمو الاجتماعي، بما تقدمه من محاولات لتعليم الأبناء وكيفية التمييز بين الصواب والخطأ والخير والشر ومعايير الأخلاق والقيم، وكيفية تكوين اتجاهات سليمة نحو الجماعات والمؤسسات والمنظمات الاجتماعية، وتكوين المفاهيم والمدرجات الخاصة بالحياة اليومية، وتعلم فن المشاركة في الحياة اليومية وكذلك تعلم وممارسة الاستقلال الشخصي، ونمو مفهوم الذات واكتساب اتجاه سليم نحو الذات.

ومن خلال هذا الدور المهم، نجد الأبناء والبنات يكتسبون عن طريق المحاكاة من الوالدين أو أحدهما بعض الاعتقادات، التي تدور حول علامات «السعد وعلامات النحس»، أو ما يمكن أن يسموه من خلالهم حول علامات «القال الحسن والقال السيئ أو الشؤم».. فمثلاً نجد بعض الأسر، وقد استخدمت تعاويذ معينة، وعلقت بعض الأحجية أو بعض العاديات، مثل «حدوة الفرس - خمسة وخمسة»، وهي التي يعبر عنها برسم أصابع اليد مفتوحة... واستخدام الحشرات الزرقاء؛ لكي تبعد العكوسات، وتدفع عنهم الأذى الذي قد يأتي من الحساد وأصحاب النوايا غير الطيبة.

وإذا كانت هذه الأساليب تمثل حماية من نوع معين، ووقاية فإن هناك من الأسر من تحاول أن تغرس في نفوس الأبناء بعض السلوكيات التي تجلب المشكلات أو تؤدي إلى النحس، ومن هذه الأفعال التي تنهى عنها بعض الأسر «سماع صوت البومة أو رؤيتها - كنس المنزل ليلاً - الغراب وصوته - رؤية الوجه في مرآة مكسورة - حياكة الملابس ليلاً... إلخ».

وهناك أيضاً بعض التكوينات لها علاقة ببعض الأشخاص، فإذا «رأيتهم في موعد أو في أوان معين ثم حدث لك أي مكروه».. فإنك قد تحاول أن تربط هذا المكروه بالشخص وكأنه قد أسهم في إحداث هذا المكروه.

كل هذه الأمثلة وغيرها يأخذها الأبناء من الآباء أو الأمهات، فيحاولون اعتماداً على غرسها المستمر أن يحاكوها أو يتمثلوا بها .

• الصدفة المتكررة:

وقد تتدخل بعض العوامل التي تحدثها «الصدفة»؛ فيقرن بعض الأفراد بين ما ترمز إليه هذه الصدفة، سواء كان الرمز حسيّاً كأن يشعر بحاجته إلى «هرش راحة يده اليمنى»، فيتوقع أنه سوف يأتيه المال وسوف يقبضه بهذه اليد، الذي يشعر من خلالها بحاجته إلى «حكها أو هرشها». والغريب في أمر هؤلاء أن يحدث لهم ما توقعوه، ويتصادف في شعوره نفسه بحكة اليد أن هناك من يدفع له نقوداً فعلاً؛ فيقرن هذا الشعور بموقف معين أو توقع محدد وقد يثبت هذا التوقع، وكذلك أيضاً قد يجعل هذا الشعور مغزى آخر، فهناك من يرى أن هذا الشعور المصاحب، لما يستشعره الفرد من حاجته إلى هرش أو حك راحة يده اليمنى هو توقعه أن يسلم على شخص آت من السفر أو شخص غائب وسوف نراه!! وقد تحدث المصادفة العجيبة ويأتي شخص طال انتظاره، أو عودة مسافر يشتاق المرء إلى رؤيته، وتكون المصادفة عجيبة لأن الشخص الذي قد شعر بهذا الشعور قد أعلن عن أحاسيسه، وناقش توقعاته سواء أمام بعض الحاضرين . . أو على أقل تقدير بينه وبين نفسه!!

وهناك أيضاً بعض المصادفات التي تتعلق ببعض الحركات أو التصرفات، التي يخلع عليها بعض الأشخاص دلالات معينة . . فإذا نبشت القطة «السجادة أو الكلیم» بمخالبها، فهذه علامة من علامات التنبيه إلى أن هناك ضيوفاً سوف يحضرون، وأن العين اليمنى إذا «رفت أو ارتعشت» . . فإن ذلك يشير بالخير عكس العين اليسرى فإن «رفتھا» أو رعشتھا نذير شؤم.

والملاحظ أن مواقف المصادفة المتكررة تعبر عن منبهات داخلية Intrinsic (مثل رف العين - الرغبة في عرش راحة اليد، والفروق الجوهرية بين رعشة العين المينى واليسرى وما تحمله من دلالات ومعان . . إلخ)، وهناك منبهات خارجية

Extrinsic، كما سبق وأوضحنا مثل رؤية قطة سوداء أو الاستماع إلى صوت البومة ورؤيتها أو التعامل مع رقم (١٣)، أو رؤية القطة تنبش بمخالبها البساط أو السجادة، أو رؤية من يكنس الأعتاب ليلاً... إلخ.

وجدير بالذكر أن هذه الحالات قد يتطرق أصحابها في أمر ترسيخ عقيدتهم بها، والتلذذ بما تحمله من رموز والإيمان العميق بما تستفر عنه من نتائج؛ فتصبح علامات لخير قادم أو تهديدات لشر مستطير، وهذا دليل على أن الأمر يتوقف إلى جانب ما أشرنا إليه من تأثيرات أسرية، تغرس من جانبها بعض الاتجاهات، من خلال ما يعتقد فيه الوالدان إلى جانب ما تحدثه الصدفة المتكررة من ترسيخ بعض المفاهيم، التي لها علاقة بما يجلب «السعد والنحس»، أو بما يؤدي إلى الفأل الحسن والفأل الشؤم.

ومن هنا لابد وأن يرتبط من وجهة نظر الشخص، الذي يعتقد في هذه المنبهات - تكرار ظهور رمز معين بحوادث سعيدة، اعتماداً على ما ترتب عليه من نتائج، والعكس إذا ترتب حدوث هذا الرمز بحوادث نحس أن يصبح هذا الرمز مثيراً للتشاؤم، وتلتصق هذه المنبهات وما تحمله من رموز ودلالات على سلوكيات هؤلاء الأفراد، فيحمل نفسه مسئولية النتيجة اعتماداً على حساباته وتوقعاته، فإذا «رقت عينه اليسرى ثم صادفه في يومه ما يكدره أصبح (رف) العين اليسرى رمزاً مرتبطاً بحوادث نحس ومنبهاً يتوجس منه الشر، ونذيراً للسوء وباعثاً على التشاؤم يجعله يستشعر مرارة ما سوف يحدث، ويظل يجتر هذا الإحساس، حتى ولو لم يحدث ما توقع! »

وبطبيعة الحال... فإن مثل هذه الأفكار وتلك الاحاسيس قد تؤدي بصاحبها إلى ما يمكن أن يحرمه من توظيف لغة المنطق والفكر، تلك اللغة التي تجعله ينظر إلى مثل هذه الأمور نظرة عقلانية، توجهه فيها إرادته الواعية، التي تمكنه من تنفيذ الأمور، والرؤية ببصارة ووعي... إلى جانب إيمانه الواعي بقدرة الله سبحانه وتعالى.

• التهويل من أمر الفكرة المتسلطة:

وهناك من الأشخاص من تسلط عليه بعض الأفكار، فيشعر بالخوف والفزع من جراء ماسوف يحدث لهم، إذا خطرت فكرة معينة على خاطرهم، أو تداعت بعض المعالي على منوال فكرهم، فتسلط عليهم بعض الأفكار وتطاردهم وتلاحقهم، وأصحاب هذه الأفكار من الأفراد يستشعرون الخوف والشؤم، ويصابون بنوع من المغالاة في تقدير الفكرة النفسية في داخلهم. وقد لا يستأهل الواقع الفعلى هذا التهويل المصاحب لأفكارهم، ولكن هذا الإلزام Obligation الذى يصاحب أفكارهم، مؤداه أنهم يجعلون من الفكرة، التى تسلط عليهم فكرة محسوسة ومجسدة فيغالون في أمرها ويهولون من سوء عواقبها وثنائجها. ومثل هذا الأمر يجعل الشخص لا يبحث عن السبب الحقيقى الذى قد يؤدي إلى العواقب السيئة، ولكنه يترك نفسه نهياً لضغط الفكرة، التى قد سجلت في تفكير الإنسان اعتماداً على تكرارها؛ بحيث لا يقوى هذا المستشعر لها أن يسيطر على هواجسه وأفكاره. وبطبيعة الحال لا يستطيع صاحب هذه التهويل أن يسيطر على الأعراض دون السيطرة على أسبابها الحقيقية، وكيف يمنع نفسه من تعميم الحكم اعتماداً على تقصى الحقائق، وإبتعاداً عن الموقف الجزئى، الذى يتشبث به ويفترض فيه النموذج والأصل في كل ما يحدث وسيحدث.

وقد نجد هذا الشخص صاحب «التهويل»، التى تند عن الواقع وتبتعد عنه بفضل أفكاره المنذرة بالسوء والمبشرة بالتشاؤم Omnipotence of thought يصاب بحالة عصابية من جراء هذه الأفكار، فيغالى في تقدير الفكرة ويجعل من «الحبة قبة»!!

ولعل هذه النماذج السلوكية تجعلنا نقرر أن «الخصار الذى فرضه» هذا الشخص على نفسه قد ساهمت فيه بعض الأفكار، التى قد لا ترتقى إلى مستوى الفكر المنطقى المبني على الشواهد العلمية السليمة، والمحتكمة إلى الواقع الفعلى.

ويرى القوصى(*) أن مثل هذا النموذج قد يشعر بأنه مظلوم ومضطهد وسىء الحظ، ويرى هذا عادة في نفسه أنه عبقرى مضطهد، فإذا طاله خير فقد ناله رغم أنف الجميع، وإن ناله شر فهو من سوء النية نحوه من كل من حوله، هذا الشخص تجده في العادة قلقًا كثيرًا الاتهام كثير الاعتداء على من حوله ولجده شديد الحرص خوفًا من حوله.

وبطبيعة الحال.. فإن أفكاره المتسلطة قد جعلت الخوف الكامن فيه من تأثيرها عليه هو الأساس، الذي تبنى عليه شخصيته.

النكدي والبهجوي،

• الشخصية النكدية،

كثيراً ما نسمع بأن هناك من الأشخاص من يحاولون، مهما كان الموقف مبهجاً ومسلماً، ويدعو إلى التفاؤل والامل والانشراح أن يحيلوا هذه البهجة وذلك الانشراح إلى حزن وهم وجزع، إما باختلاق المواقف المحزنة التي تثير الإحساس بعدم الانتماء إلى هذه الجماعة، من خلال تغليف الموقف بالتشاؤم وعدم الرغبة في المشاركة وإيثار السكون، أو إطلاق التهكمات والتندرات على مصير هؤلاء الذين أسكرتهم الغفلة، وجعلتهم يشعرون بهذا الإحساس المبهج والانشراح والسعادة أو بالابتعاد والانطواء، وهذه الشخصية (النكدية) قد يرجع منشأ هذا السلوك لديها إلى تداخل بعض العوامل، التي يمكن أن نبلورها في العناصر الآتية:

* الإحساس بالعجز عن مسايرة الجماعة والتماشى مع ديناميتها والتفاعل مع اتجاهاتها، وبطبيعة الحال عندما يجد الإنسان نفسه عاجزاً عن أن يفعل شيئاً.. فإنه تحت وطأة هذا العجز يمتنع عن المشاركة، ويصاب بضرب من ضروب العزوف عن المشاركة، فتصبح الجماعة بالنسبة إليه غريبة في أفعالها

(*) عبد الميز القوصى: مشكلات وصور نفسية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥.

وتصرفاتها، وتعزله الجماعة عنها اعتماداً على تصرفاته، التي تندهش لها الجماعة.. فهي تراه بدورها غريب الأطوار.

* عدم وجود العلاقات الاجتماعية بالنسبة إليه، وقد يرجع ذلك إلى رواسب تربوية، ترجع إلى تنشئته الاجتماعية.. فلم يتدرب التدريب الكافي على فن تكوين العلاقات الاجتماعية؛ مما قد يضطره إلى أن يسلك مع آخرين يقابلهم سلوكيات قد لا تعبر عن المرونة الاجتماعية، وترجم عن قصور في مستوى الذكاء الاجتماعى.

ومثل هذه التصرفات بطبيعة الحال تجعل الشخص يجتر نفسه ويستعيد أفكاره القائمة، التي تجعله دائماً لا يستطيع فيبدو فى أغلب الأحوال مشجماً، عابساً.

* فقدان الإحساس بالحياة بحيث قد يصير كل ضحك بالنسبة إليه عبارة عن بكاء وعويل، وكل نشوة وفرح تنقلب إلى هموم وأحزان... لأنه يتوجس المصائب التي سوف تقع والكوارث التي سوف تحدث، وحتى إذا شاء له شعوره الحزين، وإحساسه المستمر بالهم والتوتر أن يضحك.. فإنه يبدو «مدعوراً من هذا الضحك»، ويتهل إلى الله داعياً أن يجنبه كل مكروه من جراء هذا الضحك؛ لمجرد أنه يشعر بأن الموقف الضاحك أكبر من إحساسه، ويعلو على مشاعره الحزينة ويختلف عنها.

* ضعف الإرادة وعدم القدرة على تحمل الإحباط من الخصائص المميزة للشخصية النكدية، وتعد سبباً من الأسباب الجوهرية لتعاستها؛ فمثل هذه الشخصية لا تقوى على المخاطرة برأى، أو التفاعل بفكر، أو التعاون بسلوك أو تصرف، ولما كانت شخصية الإنسان فى سويتها تتمثل فى إرادته التى تناضل وترضى بما يواجهها من عقبات، وتحاول أن تدلل هذه العقبات، ثم تناضل من جديد.

فالسعادة الحقيقية تتمثل فى التحول من السلبية إلى الإيجابية؛ ومن القنوط

إلى الأمل، ومن المعاناة إلى الرفاهية، ومن التراخي إلى الحيوية والنشاط والعمل.

وجدير بالذكر أن الشخصية النكدية التي تتوقع دائماً الشر وتخاف الفقر، والمرضى، وتتطلع دائماً إلى ما يحميها من الأذى قد حكمت على نفسها حكماً قاسياً، فأساس كل ضروب الإرادة هو الحاجة والعوز، ثم الإنجاز والعمل والمحاولة المستمرة لسد هذه الحاجة وإشباع ذلك العوز. فإرادة الإنسان إذا افتقدت موضوعات الرغبة بسبب حرمانها منها فجأة من خلال الإشباع السهل... فإن إحباطاً وضجراً مخيفين يحلان بها؛ أي إن كيانها ووجودها يصبحان عبثاً وهماً عليها، ومن هنا يكون الشخص مهموماً لأنه لا يريد أن يكون إرادياً، ولا يحب أن يكون متوقفاً للإحباطات... التي هي سر للإنجازات الإرادة السوية، من خلال تقبل هذه الإحباطات والعمل على تجاوزها وتخطيها.

الشخصية البحبوحة:

إذا كنا قد عرضنا للشخصية النكدية وتعرفنا بعض أبعادها... فإن الشخصية البحبوحة تتطلع دائماً من خلال سلوكياتها إلى الأمل، وأن هذا الشعور يجعلها في حالة انشراح وتفتح وصبر وأناة وتحمل لكل أنواع المعاناة.

وإذا كان هناك أناس لا يقوون على تحمل الآلام بحكم ضعفهم، وأن تجاربهم تزعزعهم، وأن البلى تعصف بهم وتهدهد المحن كيانهم؛ مما يجعلهم يقعون صرعى تحت ضربات القدر، فيعذبون أنفسهم، ومن ثم ينزلون عن المشاركة والتفاعل ويتداعى بناء شخصيتهم، فيبدو كل منهم محطماً مهبط الجناح مغلوباً تماماً على أمره فاقداً لطعم الحياة وما يتطلبه من تدفق، معتمداً على إرادة غير منجزة ورؤية غير مستبشرة للأمر.

إن الشخصية البحبوحة تعيش مع خبرة الأمل؛ بوصفها خبرة الإنسان في سويته بعيداً عن الشعور باليأس، على اعتبار أن الأمل خبرة معاشة، تعنى بالضرورة أن الشخص الذي يتمتع بهذه الخبرة يتجه إلى الامام، وأن جهده معاً من أجل تجاوز الحاضر والإسهام الفعال في صنع مستقبل أفضل.

والشخصية البجوحة فى تشبها بخبرة الأمل وتطلعها المستمر لكل ما من شأنه أن يدفعها إلى الإنجاز والإنتاج الثمر، إنما تعتمد على مجموعة من الخصائص، نوجزها فيما يلى:

التقدير السليم للظروف:

تتمتع الشخصية البجوحة بإرادة تزن الأمور وتقدرها؛ بحيث لا نجدها تتعامل مع موقف أو ظرف طارئ إلا اعتماداً على ما يتطلبه وتستدعيه الظروف من تصرفات، فالإرادة لديها هى التى تخلع على الظروف دلالتها، وهى التى تنسب إليها أقدارها؛ ولعل ذلك ما يجعل كل ظرف أو موقف رهناً بمدى (قوة الإرادة) ومدى استعدادها للتحمل والمواجهة والمجابهة، وتصبح الشخصية البجوحة فى تطلعها إلى الأمل مزودة بإرادة من وزن الأمور، ووضع نتائجها فى الصورة المعقولة، دون تهويل أو تقليل من شأنها. ومن هذا المنطلق يكون التصرف موازياً لما تتطلبه هذه الظروف وتلك المواقف، بعيداً عن عوامل اليأس والقنوط.

التفاعل مع الآخرين بثقة ومودة:

وحتى يتحقق الأمل وتحقق الإرادة ما تصبو إليه.. فإننا نجد الشخصية البجوحة تتمتع بالأريحية، وما تكشف عنه من سلوك يتميز بالعطاء والتفاعل مع الآخرين، فعندما يكون بينى وبين الآخر هذا الوصال المبني على التفاعل والمودة، تضيق فكرة التشاؤم والخوف من الآخر، سواء كان هذا الخوف مصدره تأويلاته أو هواجسه، أو خططه أو حسده. وهذه المودة المتبادلة سوف تطرح الثقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فيشيع الأمل ويستشرى التفاؤل بين الأفراد، دون أن تكون العلاقة مبنية على الشك أو توقع الأذى أو هواجس الشر، كما نجد عند الشخص النكدى المتشائم، الشخصية البجوحة حين تطرح ثقتها فى شخص ما من الأشخاص.. فإنها تتوسم فى هذا الشخص أنه أهل لتلك الثقة؛ حيث تعبر الثقة عن الثبات والاستقرار الانفعالى، عكس الشك الذى يجعل الإنسان الفرد

يشعر بضرب من ضروب القلق والتوتر، فى تعامله مع الآخر، ينعكس على مدى اتزانه الانفعالى واستقراره العصبى.

واعتماداً على هذا البعد المهم الذى يميز الشخصية البجوحة.. فإننا نجد الثقة والمودة يحملان طابع الأمل، ويجعلان الشخصية تتجه بثبات وأمل وتفاؤل إلى ما يحقق لها تطلعاتها، ويعمل على توطيد أواصر المحبة بينها وبين الآخر.

الإقبال على الحياة بوجه عام:

والشخصية البجوحة - بحكم ومرونتها وثقتها المطروحة بعقلانية ومودة بالآخرين... تقبل على الحياة مرحلة منسجمة، فهي لا ترفض التفاعل والإسهام الفعال فى كل ما من شأنه أن يحقق الإنجاز، بل هى محبة للحياة متفاعلة معها، واعتماداً على هذا الاتجاه الإيجابى نراها فى سعيها المستمر تحاول أن تكشف كل يوم أسباباً جديدة للحياة، تعمل على زيادة هذه اللفة، وتقوى عاطفة الحب فيزداد التفاعل بدوره، ويتدعم السياج المتين بين أصحاب الإرادة القوية، التى تكتسب قوتها ونشاطها من هذا الإحساس بالتفاؤل والامل.

وجدير بالذكر أن الشخصية البجوحة لا تقوى على ذلك، إلا إذا حطمت القيود الذاتية التى تتصف بها الشخصية (النكدية)، والتى جعلتها تبدو منغلقة على نفسها، محجمة عن التفاعل معزولة عن الآخرين.

ويلاحظ من خلال هذه العرض لبعض العوامل التى قد تميز الشخصية النكدية، والتى عرفنا من خلالها كيف كانت تشعر بالعجز وعدم القدرة؛ مما جعلها لا تقوى على تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية السليمة، فحكمت على نفسها بالعزلة بعيداً عن المشاركة الفعالة فى أمور الحياة، وما تتطلبه من إنجازات وما تتوقعه من نشاطات، ففقدت الشخصية (النكدية) بهجة الاستمرار السوى فى الحياة.. فضعفت إرادتها وتمكنت منها المشكلات وحطمتها الإحباطات.

فالامر يختلف بالنسبة للشخصية البجوحة... تلك التى تتجه إلى كل ما من شأنه أن يحقق لها أسباب التواصل مع الحياة والآخرين، فلا تعرف إلا الثقة فى

التعامل والمحبة فى المعاشرة، والتفاؤل فى تناول المشكلات، والإرادة الواعية فى مجابهة الظروف والمواقف والتعامل معها بمرونة وفهم وتقدير واقعى موضعى .

والهدف الأساسى الذى نسعى إلى تأكيده، من خلال عرضنا لبعض ملامح الشخصية النكدية والشخصية البحبوحة، يتجلى فى محاولتنا أن نوضح أن سلوك التشاؤم هو سلوك مرضى، تتميز به شخصية لا تعترف بالواقع المعاش؛ ولذلك فهى شخصية لا تتمتع بالصحة النفسية، أما الشخصية البحبوحة فهى الشخصية التى نراها نحاول أن تؤدي دورها الإنسانى السليم، وأنها بفضل تفاعلها ومشاركتها الواعية والتزامها بالقيم الإسلامية الرشيدة، وحرصها المستمر على أعمال الإدارة دائماً فى كل تصرفاتها، تجعل الأمل وما يصاحبه من تفاؤل هو الغاية القصوى والهدف المنشود.

ويلاحظ أننا فى عرضنا لهذه الأنماط من الشخصيات، نحاول أن نقرب الأذهان لهذه الأنماط الجديدة التى بدأت تظهر، وخطورة التشبث بالتصرفات السالبة لهذه الأنماط. ولكى نحذر من خطورة الشخصية النكدية على وجه التحديد... فإننا نوضح السمات التى تتميز بها وفق الدراسة العلمية، التى قام بها (سيد صبحى ١٩٨٤) (*) على الوجه الآتى:

- شخصية عاجزة عن الاندماج والتفاعل مع الجماعة.
- شخصية تميل إلى تهويل الأمور أكثر مما ينبغى.
- لا تستطيع مواجهة المشكلات.
- نحاول دائماً أن نسترجع ما يؤلمها من ذكريات وأحداث.
- لا تحب المرح والتفاؤل.
- لا تعتقد فى الإرادة والعزيمة بل تؤمن بالحظ والنصيب.
- قدرتها على تحمل الإحباطات ضعيفة.

(*) ارجع إلى: سيد صبحى: التفاؤل والتشاؤم دراسة نفسية مقارنة بين الكفيف والبصير المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين، القاهرة، ١٩٨٤ .

- لا تثق فى الآخرين وتعاملهم بشك وخوف .
- تتوقع الأذى من الآخرين .
- المستقبل بالنسبة لها مظلم .
- أما الصفات التى تميز الشخصية البهبوحة المتفائلة، فهى :
- تقدر الأمور والظروف تقديراً سليماً .
- تعامل الآخرين بمودة وثقة .
- تقبل على الحياة بانسراح ومرح .
- تتميز بالاستقرار الانفعالى .
- تتعلق بالأمل وتخطط للمستقبل .
- تواجه المشكلات بمرونة وتعمل على حلها .
- توظف إرادتها أمام الصعاب من الأمور والمواقف .
- لا تميل إلى استعادة ما يؤلمها من ذكريات سابقة .
- تشارك بفعالية فى الخدمات الاجتماعية .

والملاحظ على العبارات التى تميز الشخصية النكدية والصفات التى تميز الشخصية البهبوحة، أن هذه الصفات تشخص إلى حد ما بعض الأبعاد التى تميز كلتا الشخصيتين؛ مما يجعلنا نؤكد أن مفهوم الشخصية النكدية والشخصية البهبوحة من المفاهيم، التى تدخلت فيها العوامل الثقافية والحضارية، وما يتبعها من عادات وتقاليد وأساليب وتصرفات سلوكية .

البناء النفسى للشخصية فى الإسلام،

تناول الإسلام بوصفه الدين القيم الطبيعة البشرية، وحدد دور الإنسان ووظيفته ومصيره، وبناء النفس، وهذا التناول يعبر عن تكامل الرؤية وشموليتها . وأوضح الإسلام كيف أن الإنسان يتميز عن سائر الحيوانات الأخرى

بالعقل الراجح واللسان الناطق والطاقت العقلية والاستعدادات، التي تمكنه من أن يكون أهلاً للعبادة والتدبر وإقامة شعائر دين الله، هذا الإنسان الذي ميزه الله قد جعل له تركيبه تحدد شخصيته وتضع ملامحها، ومن الممكن أن نوضح ذلك البناء النفسى الشامخ، الذى حدده الدين الإسلامى الحنيف للشخصية الإنسانية، على الوجه الآتى:

أولاً، العلاقة بين الإنسان والكون المحيط به:

يوضح الله سبحانه وتعالى قيمة خلق الإنسان، وعلاقة هذا الإنسان بالكون المحيط به، ونلاحظ ذلك من خلال الآيات البيّنات التى ذكرت قصة خلق الإنسان من «طين» فى صورة، تعبر عن عظمة الخالق وكمال قدرته، وينبه الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى نعمه وفضله التى لا تحصى، ويؤكد سبحانه وتعالى العلاقة الوطيدة التى تربط بين الإنسان وما سخره الله تعالى لخدمته. وسوف نذكر بعض الآيات الكريمة لنوضح كيف وصف الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وخلق نسله من بعده، وكيف حدد سبحانه هذه العلاقة بين الإنسان وبين الكون المحيط به.

يقول الحق تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ﴾.

[الحج: ٥]

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾.

[الأعلى: ١، ٢]

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾.

[الزخرف: ١٠]

هذه الآيات وغيرها توضح كيف أن الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يتفاعل مع الكون المحيط به، وأن تكامل الإنسان يحتاج إلى أن يتفاعل هذا الإنسان مع بيئته؛ ليجعلها أكثر ارتقاءً وتكاملاً.

ثانياً، النظرة الشمولية للشخصية الإنسانية،

نظر الإسلام إلى الإنسان نظرة شمولية، فالإنسان له كيان مركب من جسم وعقل وروح، ويقدر الإسلام هذه الأبعاد في الشخصية الإنسانية، ويحدد أهمية كل بعد منها بالنسبة للحياة الإنسانية، وما تتطلبه من توازن وتوافق.

ويؤكد الإسلام أهمية إرضاء المطالب الجسمية والمادية عند الإنسان، من خلال قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ ﴾.

[الجمعة: ١٠]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۖ ﴾.

[الملك: ١٥]

ومن أحاديث المصطفى ﷺ قوله:

«ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده».

وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده.

وقوله ﷺ: «لأرهبانية في الإسلام»

هكذا... يدعونا الإسلام إلى العمل والإشباع السوي لمطالبنا المادية.

ومن الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، التي تدل على أهمية العقل والعلم وضرورة الاهتمام بهما، ما نورده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

يقول ﷺ:

«اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، اطلبوا العلم بحكمة ولو في الصين».

وقوله أيضاً صلوات الله وسلامه عليه:

«لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه عليم فقد جهل».

وهناك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تؤكد الدور المهم التي تقوم به الروح في نسج الشخصية الإنسانية؛ تأكيداً للتكامل بين الجسم والعقل والروح، فيقول الله تعالى:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾.

[الفجر: ٢٧، ٢٨]

ويقول المصطفى ﷺ:

«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

وهكذا... نظر الإسلام إلى الأبعاد المختلفة للطبيعة الإنسانية، ونظر إليها على أنها تتكون من جسم وعقل وروح، وكيف أوضح الإسلام ضرورة التفاعل بين هذه العناصر جميعاً.

ثالثاً، طاقات الإنسان تتجلى من خلال مناشطه وقدراته،

وهب الله الإنسان طاقات وقدرات عقلية، وهي من أهم ما يميز شخصيته؛ خاصة تلك العناصر المكونة للقدرات العقلية العليا والقدرة على توظيفها، بما تحتويه من تساؤل ورموز ومجادلة وحكمة وإرشاد. والإسلام بوصفه دين الحق والفطرة السليمة يعترف بهذه القدرات وتلك الطاقات، فيعطى الإنسان الفرصة للتساؤل والاستفهام والتعجب.

وفي القرآن الكريم كثير من الأسئلة والمواقف، التي كانت توجه إلى النبي ﷺ.

ومن هذه الأسئلة:

قول الله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

[الإسراء: ٨٥]

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

[الكهف: ٥٤]

إعمال الفكر والعقل والمناقشة من الأمور الضرورية، كما أوضحت بعض الآيات، ولكن لا بد وأن يكون الجدل عن حاجة إلى الاقتناع، فحق كل إنسان في المناقشة والأخذ والعطاء من الحقوق المشروعة، وبهذا أمر نبي الإسلام والمسلمون في قول الله تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

[النحل: ١٢٥]

رابعاً، الإنسان مدني بالطبع واجتماعي بالضرورة،

يؤكد الإسلام بوصفه الدين القيم أن الإنسان مدني بالطبع واجتماعي بالضرورة.. فالإنسان في نظر الإسلام من حيث طبيعته الاجتماعية، يميل إلى الحياة في مجتمع إنساني، وما تتطلبه هذه الحياة من إقامة علاقات اجتماعية في التفاعل والتكيف والمرونة وتكوين الاتجاهات والقابلية للتطور والتغير، وتحمل

المسئولية وأداء الأدوار الاجتماعية، والإنسان يتميز بظموحه ورغبته في السمو والارتقاء، وكل ما يحقق له تأكيد ذاته ويعمل على تدعيمها.

والدين الإسلامى يؤكد صنع الحضارة والاهتمام بالجوانب الثقافية والإبداعية، ويدفع الإنسان دائماً إلى التحلى بكل العوامل، التى تغذى شخصيته وتعمل على إثرائها وتدعيمها.

والدين الإسلامى يؤكد صنع الحضارة والاهتمام بالجوانب الثقافية والإبداعية، ويدفع الإنسان دائماً إلى التحلى بكل العوامل، التى تغذى شخصيته وتعمل على إثرائها وتدعيمها؛ تحقيقاً لمبدأ التوازن والتكامل فى جوانب شخصيته.

وهكذا يتناول الإسلام الحنيف الحياة النفسية للإنسان، وما تتضمنه من عوامل تندخل فى تكوين شخصيته من جميع جوانبها، فهى حياة مستمرة الحركة دون انقطاع، دائمة النمو بلا توقف، موصولة التجدد بلا حدود.

وهذا الاستمرار للحياة النفسية الإنسانية، طالما يتمشى مع التعاليم الإسلامية العظيمة.. يكسب الإنسان قيمته، ويعطيه إرادته الفعالة فى حدود الشريعة والقانون والأعراف والتقاليد، وتلك هى الثمار التى تجنيها دوحة الإنسان المسلم فرداً، وجنة الإنسانية جمعاء، طالما أن كل فرد يتمسك بتعاليم الدين، ويتوق دائماً إلى تحقيق كل ما يؤكد احترامه لنفسه ولمجتمعه ووطنه والإنسانية على وجه العموم.

◆ عندما يتذرع الإنسان

بالحيل الهروبية

أولاً ، حيل تعتمد على العسلوان .

ثانياً ، حيل تعتمد على الانسحاب

ثالثاً ، حيل تعتمد على الإبدال

وجهة نظري في هذه « التماحيك » السلوكية

يميل الإنسان دائماً إلى أن يتصرف بطريقة، تحقق له سعادته وتبعده عن مصادر الألم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف يصبح السلوك تفكيراً أو عملاً يقوم به الموجود البشري، ثم يتجه به وجهة معينة قد توصله إلى هدفه أو تبعده عنها.

وقد يمر الإنسان بمواقف جديدة، تتطلب منه جهداً وإدراكاً للعلاقات التي تكون وتشكل هذه المواقف، أو قد يكون السلوك مكرراً وخبرته معادة بصورة تكاد تكون طبق الأصل، أو مقارنة لما قد مر به في مواقف سابقة.

وجدير بالذكر أن تعدد المدارس النفسية وكثرتها؛ خاصة فيما يتعلق بتفسير السلوك ومنشئه واتجاهه يعد أمراً من الأمور الطبيعية؛ لأن علم النفس هو في الحقيقة (علم السلوك)، على الرغم من كثرة الدراسات والنظريات، والتي تمثل - مع تعددها وكثرتها - حيرة لمن يتعامل معها لما تقدمه من براهين ووجهات نظر مختلفة ومتضاربة؛ بحيث نجد أن ما يخيل إلينا أنه يمثل فكراً جديداً، لا يعدو أن يكون سوى ترديد بشكل ما أو بصيغة أخرى لنظرية، قد مرت عليها سنوات وسنوات.

ولعل الهدف الذي يتطلع إليه الإنسان هو كيف يتكيف مع البيئة، وكيف يتصرف في الحدود التي تجعله متوافقاً مع أفراد الجماعة، الأمر الذي يدعونا إلى التساؤل: ما الذي يدفع المرء إلى أن يتصرف تصرفات معينة في ظروف معينة، وما الذي يدعوّه إلى أن يغير من تصرفاته أو يكررها في موقف آخر؟ كل هذه

الأسئلة تجعلنا نتناول ما يسمى بالحيل الدفاعية، تلك التى بذلت مع الإنسان على المستوى (الفسولوجى)، من خلال السلوك الهادف الذى يتجه بصاحبه نحو إشباع دافع الجوع مثلاً إذا ما نقصت كمية السكر فى الدم، أو إشباع دافع العطش إذا ما نقصت كمية الماء فى الجسم، أو ما تفرزه الغدد الصماء من هورمونات استجابة لحالات الضغط الخارجى، الذى يأتى من خلال ديناميات الجماعة ومايتج عنها من تفاعلات بين الافراد... كل هذه الاساليب يأتى بها الإنسان دفاعاً عن النفس ووقاية ضد غائلة الجوع أو العطش، أو ما يهدد كيانه من عوامل خارجية.

ومن الممكن أن نرجع وفقاً لكل هذه التصرفات محركات سلوك الإنسان إلى مجموعة من الدوافع، هى:

* ما يدركه ويحسه الفرد قبل أن يقدم على عمل ما أو تصرف معين.

* ما يجرى فى ذهن الفرد قبل فترة طويلة من الفعل.

* ما يتوقعه من نتائج فى المستقبل إذا ما قام بهذا التصرف.

وتعتبر الحيل اللاشعورية من التصرفات، التى قد يلجأ إليها بعض الافراد؛ لتساعدهم على التخلص من موقف أو الخروج من مأرق أو تجنباً لآلام، أو محافظة على الوقار والاحترام، أو عندما يرى ضغط الجماعة فلا يملك إزاءه إلا أن يتدبر بهذه الحيل فى حدود المعقول وما يتطلبه الموقف.

وهناك تقسيمات لهذه الحيل إلا أن هذه التقسيمات يتداخل بعضها فى بعض؛ الامر الذى سوف يجعلنا نقسم هذه الحيل على أساس مدى ما يريده الفرد منها، أو كيف تخلق له عوامل واهمة، تمكنه فى حدود ما يتوهمه ويصطنعه من توظيفها للهروب من عالم الواقع.

أولاً: حيل تعتمد على العدوان

١- العدوان و«الأذى» Aggression

عندما يلجأ البعض لسلوك العدوان.. فإن هذا التصرف قد يكون نابعاً من حاجة لديهم للخروج من مأرق أو لحفض توتر ناتج عن عقبة أو أزمة تصادفهم. وبطبيعة الحال يكون العدوان موجهاً إلى سبب الإعاقة، ويكون الهجوم شديداً على أطراف الأزمة. والذي يعنينا ليس العدوان المباشر الذي يمكن صاحبه من مواجهة الموقف، ولكن الذي يعنينا ذلك الجانب غير المباشر الذي يتجه بصاحبه إلى هدف غير سبب الإعاقة، وقد يكون ذلك معبراً عن الخوف من مواجهة المشكلة أو هروباً من مجابهة الأزمة.. فنرى هؤلاء يلجأون إلى أسباب غير مباشرة، ويصدق عليهم المثل الشعبي الذي يقول «مقدرش على الحمار وقدر على البردعة».

ويأخذ العدوان من هذا الصنف غير المباشر أشكالاً متعددة، فمثلاً نجد يتخذ صورة المؤامرات والتشهير والنميمة والخمز واللمز، وكثيراً ما نجد هؤلاء لا يستطيعون أن يعبروا عن المشكلة أو يواجهونها بصورة مباشرة.. إلا أنهم يلجأون إلى «تماحيك وتلاكيك»، من شأنها أن تجعلهم يقدفون بالحاجيات المادية، معبرين بذلك عن درجة عالية من التوتر والقلق.

وقد يصل الأمر إلى العدوان على الذات، ذلك الذي يجعل بعض الأفراد يستندون العطف من خلال هذا العدوان... فنراهم قد يضربون الأرض بأرجلهم والحوائط برؤوسهم.

٢- الإسقاط، Projection

يعد الإسقاط حيلة لا شعورية يوظفها بعض الأفراد؛ لإلقاء اللوم على الآخرين ودفع اللوم عنهم؛ بهدف التهرب من المواجهة وتحرراً من المسؤولية، إلى جانب أن هذه الحيلة تمكن صاحبها أن يلحق كل النزعات البغيضة بالآخرين، ويسقط ما ينكره على نفسه من أفكار وصفات على غيره.

وبطبيعة الحال.. فإن هذه الحيلة تجعل صاحبها يشوه مفهومه عن الواقع، ويقطع صلته الحقيقية بالعالم الخارجى؛ خاصة وأنه لا يرى هذا العالم بنظرة موضوعية صادقة، وإنما يجعل من نفسه محققاً فى كل الأمور.

إلى جانب أن الإسقاط يعبر عن محتويات لا شعورية، تظهر عند صاحبه فى شكل تعبيرات أو أقوال يعبر من خلالها عن نزعاته الدفينة، ويلاحظ أن كثيراً من الأمور النفسية تعبر من خلال الهلوسات والضلالات عن إسقاطات معينة كنوع من أنواع التفريغ، الذى يظهر من خلال بعض المواقف التى يفرغ فيها رغبة لاشعورية فى تحقيق هدف أو الوصول إلى رغبة... إلخ.

ثانياً، حيل تعتمد على الانسحاب

وقد يلجأ الإنسان إلى مجموعة من الحيل الإنسانية، التى تجعله لا يقوى على مواجهة الموقف ومحاولة تخفيف حدة الصراع الناشئ منها، وهذه الحيل تجعل صاحبها يعترف بفشله، وقد يؤدى به الأمر إلى احتقار ذاته والوصول إلى مشاعر دونية، تسبب له الألم وتجعله يعيش فى وهم وخداع؛ لأنه يعتمد على الانسحاب من الموقف. وبطبيعة الحال.. فإن هذا السلوك الانسحابى لا يعتمد على خطة مدروسة أو يوظف الإرادة بطريقة موضوعية وظيفية، ولكن يعتمد على مجموعة من الأساليب اللاشعورية، يتلذذ بها ليخلص نفسه من المواجهة المباشرة، والتى تعتمد على التبصر والفهم والوعى بالأمر. وبطبيعة الحال.. فإن هذه الأساليب التى تعتمد على هذا السلوك الانسحابى تظهر لدى بعض الأفراد، دون وعى منهم، وبعيداً عن دائرة الشعور. وتظهر مثل هذه الحيل الانسحابية فى «الانطواء، الإغراق فى الخيال وأحلام اليقظة، النكوص، الإنكار، التبرير».

وقبل أن نتناول هذه الحيل الانسحابية، نود أن نؤكد حقيقة مهمة مؤداها: أن الانسحاب فى الوقت المناسب يعد من الأساليب الدفاعية المقبولة إذا لم يبالغ فيه صاحبه، وكان هذا الانسحاب بعيداً عن التخطيط وتقدير المواقف بطريقة سليمة.. الانسحاب هنا له ما يبرره عكس الانسحاب المرضى الهروبى، الذى يتبلور فى الحيل الآتية:

الانطواء، Introversions

يلجأ إليه البعض ليتعدوا عن المشاركة فى الحياة والتفاعل مع الآخرين، ويحاول هذا البعض خلق أعذار لهذا التوقع وذلك الانطواء؛ حتى لا يعرضوا أنفسهم للصراع، وكأنهم يحكمون على أنفسهم بالعيش فى عزلة مرضية، تجعلهم بنأى عن المشاركة الفعالة فى الحياة، وتحرمهم من الاتصال الثمر والإقبال على الحياة بوجه عام(*) .

الإغراق فى الخيال وأحلام اليقظة، Day dreams

ويعتبر الإغراق فى الخيال حيلة من الحيل اللاشعورية، التى تجعل صاحبها يسبح فى أوهام هروباً من مواجهة الواقع، وإرضاءً لدافع لم يتحقق إشباعه فى عالم الواقع، وكان نتيجة عدم الإشباع شعور الفرد بالعجز والفشل وقلة الحيلة... وبدلاً من مواجهة الواقع وتعرف الأسباب الحقيقية... نجد هذا الفرد يطلق العنان لخياله ويسرح فى عوالم متعددة، ينسج من خلالها صوراً، تمكنه من إشباع واهم، يند عن الواقع من خلال هذا العالم الذى يصنع خياله الواهم.

والملاحظ أن مثل هذا الإغراق فى الخيال، وما يصاحبه من أحلام يعيشها فى عالم الواقع، يجعل صاحبه يتوقع فى أوهام؛ بحيث يصبح هذا التوقع بمثابة عالم متكامل، يعيش فيه ويجتر الأوهام، ويلوذ بهذا النسيج المتهالك من أفكار لا علاقة لها بعالم الواقع.

النكوص، Regression

إذا حاولنا أن نضع تعريفاً للنكوص... فإن هذا التعريف يدور حول المعنى اللغوى للكلمة، ذلك الذى يتحدد على أن النكوص هو الرجوع إلى طور سابق من أطوار النضج، ويعتمد النكوص على مظهر من مظاهر السلوك، الذى يحاول

(*) يعبر أصدق تعبير عن سلوك الانطواء المرضى، أولئك الذين ينادون بعدم الاشتغال والركون إلى الحمول، ويتلذذون بسلوكيات دينية متطرفة، تدعو إلى الانطواء والعزلة عن التفاعل مع المجتمع، وتلك صورة مرضية تعبر عن الانحراف واللاسوية.

الإنسان أن يتردد إليها، وهو يعبر عن حيلة هروبية، تجعل صاحبها يتراجع أمام ضغوط الحياة، وما يصاحبها من مواقف تحتاج إلى المواجهة.

وقد يظهر النكوص من خلال بعض التصرفات الانفعالية، وتكون ترجمتها (ثورة وغضب) خاصة عندما يشعر الفرد بفشله، وقد يبدو هذا التصرف أقرب إلى تصرف الصغار من الأطفال؛ لأنه تعبير عن التحكم والضبط الانفعالي.

ويلاحظ أن هذا النكوص في حالته السوية يكون وقتياً وله حدوده، التي قد تفيد المرء في سعيه إلى التوافق... فهناك الذي نراه في مجال الانفعال (بنكص) فيطلق لانفعالاته الحرة؛ لتعبر عن نفسها بطريقة طفولية من خلال البكاء أو الصياح أو الحركة السريعة العشوائية، والتي من خلالها يفرغ طاقاته، وينفس عن هموم متراكمة تسبب له توتراً وقلقاً.

وبطبيعة الحال... فإن الاستمرار في هذا السلوك يجعلنا نرى الكبير صغيراً، وقد يقدمه دون مراعاة لكبر السن بأنه مثل الأطفال في تصرفاته، أو أنه «راجل عيل».

الإنكار، Denial،

يستلزم الصراع النفسي وجود قوتين متصارعتين؛ لذا فإن الشخص الذي يريد أن ينكر أمراً نراه يحاول أن يغفل عن إحدى هذه القوى التي تشارك في الصراع، وقد يصل به الأمر إلى أن يتصورها غير موجودة، ويضغط عليه اللاشعور فيجعله يصر على هذا الإنكار، تجنباً للخطر الخارجى وتخفيفاً للضغط النفسى، والتوتر العصبى الذى يستشعره من جراء هذا الصراع. وبعد الإنكار صورة من صور الانسحاب التي تجعل صاحبها يلوذ بنفسه، فينكر الحقيقة دفعاً للخطر أو كما يقول المثل الشعبى «يخرج من المشكلة كما تخرج الشعرة من العجين»، وهذا الذى يفعله يجعله رغم ما يشعره من راحة من هذا الهروب، يتلمس ضعفه وقلة حيلته؛ لأنه يخدع نفسه ويهرب من واقعه، ولا يقوى على مجابهة مشكلاته.

التبرير، Rationalization

عندما يتعثر الإنسان في أمر من الأمور.. فإننا نجد يبرر هذا التعثر بمسوغات يراها عقلية يحاول من خلالها تبرير عثرته وتسويغ أفعاله، وهو بذلك السلوك يخفى الأسباب الحقيقية، وغالبًا ما تكون أسبابه التي يعتمد عليها في تبريراته غير مقنعة وغير متناسقة.

وبعد التوتر حيلة دفاعية يبرر بها المرء سلوكه ومعتقداته وآراءه ودوافعه المستهجنة بأن يعطى أسبابًا معقولة لها، والعامّة تصف هذا السلوك الذي يظهر عند بعض الأفراد على أنه «قصر ذيل»؛ لأنه يعبر عن عدم قدرة في الوقت، الذي ينسب فيه ادعاء القدرة، أو أن هذا الشيء قليل الأهمية، تمامًا كما تنهم المرأة العانس كل الرجال بالخلق السيء، وأن هؤلاء الرجال جميعهم يتميزون بالخيانة وهي لذلك ترفض أن تتزوج منهم، أو تفكر في أمرهم، ويعمل التبرير كحيلة دفاعية على المستوى اللاشعوري ضد اتهام الذات والإحساس بالذنب بعد وقوع الحادث، وهو يختلف لذلك عن الحجج والاسانيد الشعورية التي يبرر بها قيامنا أو رفضنا لعمل.

ثالثًا: حيل تعتمد على الإبدال

تعتمد الحيل الإبدالية على إزاحة شعور أو انفعال إلى هدف آخر، أو محاولة إبداله بعكسه. ويعتبر الإبدال من الحيل التي إذا تمت بطريقة شعورية.. فإنها قد تدفع صاحبها إلى الوصول إلى خفض التوتر عن طريق توظيف الإرادة والوعي، أما عندما يعتمد عليها الفرد دون توظيف الإرادة الواعية، فإنها قد تظهر كواحد لا شعورية لا تفيد صاحبها، وهناك مجموعة من الحيل الإبدالية.. نذكر منها:

الإزاحة، Displacement

هذه الحيلة تجعل صاحبها يضع أهدافًا محل أهداف أخرى: فمن الممكن أن تتحول مشاعر الكره عند فرد إلى خليط من المشاعر لجده يزيحها على الآخرين، فقد نجد الموظف يزيح مشكلاته وشعوره العدوانية على الجمهور، فيعطل أعمالهم

ويقسو في معاملته لهم. وتكون هذه الإزاحة بمثابة الشعور العدواني الكامن، الذى يريد أن يزيحه على الجمهور، دون أن يتعرف الأسباب الحقيقية التى تكمن وراء هذه التصرفات، وقد يصل الأمر بمثل هذا الشخص أن يعمم سلوك العلوان؛ حتى يصبح السمة الغالبة على تصرفاته.

تكوين رد الفعل، Reaction Formation

عندما يتصنع الإنسان الفرد فى إظهار عواطفه... فإن تكوين رد الفعل يفضح تصرفاته؛ لأنها بمثابة حيلة إبدالية، يظهر هذا الإنسان من خلالها غير ما يبطن وكثيراً ما نرى أولئك الذين يحاولون أن يظهرُوا عواطفهم بطريقة مبالغ فيها... وسرعان ما ينكشف حالهم، وتدنحض على أرضية الواقع عواطفهم المتأججة بغير داع والمزيفة بحكم طبيعته، ولعل ذلك ما جعل البعض يتشككون فى كل ما هو مبالغ فيه من العواطف والقبيلات، التى قد يواجهنا بها بعض الأفراد تعبيراً عن صداقتهم ومحبتهم... هذا التصنع يعبر عن النفاق والسلوك غير الدقيق، الذى يجعل صاحبه فى صورة مهزوزة... لأنه يبالغ فى انفعالاته وإظهار عواطفه.

التقمص، Identification

يحاول الفرد أن يدمج شخصيته فى شخصية آخر كحيلة تقربه من النموذج الذى ينال إعجابه، وللتقمص دوره الإيجابى الذى يتجلى فى تقمص الفرد للأشخاص أصحاب المواهب والخبرات السليمة، كأن يتقمص الابن سلوك الأب المكافح الناجح، أو يتقمص الإنسان شخصية تتميز بالبطولة... ويرى فيها حكمة وإرشاداً.

والتقمص يساعد الأفراد أيضاً أن يشاركوا بعضهم البعض بطريقة سليمة، يلعب فيها الوجدان الراقى دوراً مهماً فى تدعيم العلاقات الاجتماعية، ولكن التقمص قد يبلغ صورته المرضية غير السوية، عندما يتقمص الفرد بصورة متطرفة

بعض النماذج المثيرة للدهشة؛ كأن يتمص المراهق صورة بطل من أبطال (المصارعة) فنراه يحاول أن يعتدى على كل الأفراد، أو يتمص الطفل «فرايرو» فيلبس ملايسه، وقد يحاول أن يطير كما كان يطير فيكون نصيبه الموت؛ لأنه لم يحكم الوعي والفكر فى أمر النموذج البشرى الذى تقمصه، وما مدى معقولة التصرفات التى يقوم بها.

التعويض، Compensation،

يعد التعويض من الحيل الإرادية التى تقاوم النقص، وتعمل على التغلب عليه، فهو - فى جانبه الموضوعى الإيجابى - يدفع صاحبه إلى أن يبذل جهداً فى حياته وعمله ويتطلع إلى الأفضل، ونرى ذلك فى الأشخاص الذين يعانون من فقدان الحنان أو التعليم، أو عضو من الأعضاء الجسمية - نراهم فى جانبهم الإيجابى يحاولون أن يغطوا هذا النقص بأفعال إيجابية، تمكنهم من الاستمرار السليم والعلو على هذا النقص، من خلال إنجازاتهم وأفعالهم المثمرة.

أما الجانب السلبى للتعويض... فإننا نلاحظه من خلال بعض التصرفات، التى تبدو غريبة ومستهجنة، فيكون التعويض بعيداً عن السلوك الإيجابى، وقد يدفع صاحبه إلى العدوان أو الانطواء والاكتئاب النفسى.

وجهة نظرى هذه «التماحيك» السلوكية،

عرفنا أن هذه الحيل الدفاعية تهدف تخفيض التوتر والعمل على تجنب الآلام، وقد يلجأ فيها الإنسان الفرد إلى أساليب هروبية. وعلى الرغم من أن الإنسان يعتبر هذه الحيل الدفاعية بمثابة «تماحيك وتلاكيك»، قد يجد فيها متنفساً لأفعاله وتصرفاته وسداً لنقص يعانيه أو تظلماً واهماً لمستوى، لا يقوى على الوصول

إليه . . فإن هذه الحيل تجعلنا نضع أيدينا مرة أخرى على سلوك الإنسان، فمهما تعددت تصرفاته وردود أفعاله . . فإننا قد نجد الإنسان يتصرف فى بعض الأحيان بطريقة بسيطة، كما يتصرف القنفذ، ذلك الحيوان الذى يعيش على أكل الحشرات والنمل، وله جلد مكسو بشوكات إبرية مؤذية لمن يلمسها، وكل ما يفعله القنفذ هو أحد سلوكين:

إما أن ينسبط وتنام شوكات جلده على بعضها، ويسير الهوينى بحثًا عن طعامه وشؤونه الأخرى .

أو يتكور على نفسه فتبرز الشوكات لدرء الخطر عنه، ويصبح كرة هامة ثابتة فى مكانها لا تتحرك، بل تؤذى كل من يقترب منها.

وبطبيعة الحال - واعتمادًا على عرضنا للحيل الهروبية - نجد من البشر من يؤثر سلوك القنفذ ويتصرف فى حياته كما يتصرف، وأولئك هم الذين ينسحبون ويميلون إلى الانطواء والرضا بأقل القليل، وهناك من يتصرف بأسلوب المكر والخداع، أو كما يقولون بأسلوب الثعلب الذى يراوغ ويتلاعب ويتناقض ويضع الحلول، ويظهر غير ما يظن، وهذا الأمر بطبيعة الحال مرفوض؛ لأنه يعتمد على حيل عدوانية تؤذى صاحبها والآخرين.

والواقع أن الإنسان مثله فى ذلك كمثله غيره من سائر الحيوانات الأخرى، يخضع لمجموعة من القوى التى تحدد سلوكه، ولكنه من بين المخلوقات جميعًا هو الكائن الأوحده الذى يستطيع أن يفهم تلك القوى، وهو الذى يملك عن طريق هذا الفهم القدرة على القيام بدور إيجابى فعال فى تحقيق مصيره، وهناك كثيرون يحيون ويموتون دون أن يكونوا قد رأوا الآخرين، أو قد أبصروا ما فى الأشياء والأشخاص والمواقف من قيم ومعان ودلالات، أولئك الذين قد حكموا على أنفسهم بالعزلة والانطواء، والعزوف عن المشاركة فى الحياة، والتطلع إلى

ترك إنجازات لها قيمتها ولها تأثيرها فى هذه الحياة، التى عاشوا فيها وخرجوا منها، دون أى تأثير أو أى فائدة.

وإذا كانت هذه الخيل الهروبية قد تمكن فى بعض الظروف أصحابها من العيش فى راحة بعيدين عن التوتر والصراع. . فإن هذه الراحة بمثابة «المخدر الموضعى»، الذى قلما يستمر، وغالبًا ما تضيق فائدته ويخف تأثيره. . وتظهر الآلام مرة أخرى، الأمر الذى يجعلنا نطالب بلغة الواقع، المعتمدة على إرادة الفعل والقدرة على المواجهة وتقبل الإحباطات.

◆ مواقف نفسية إرشادية

- أولاً، الخوف ومشكلاته السلوكية
- ثانياً، تحقيق الذات وإرادة الفعل
- العلاج بالعلمي وتوظيف الإرادة
- الرفض وقيمة الاطمئنان
- الحب ويهجرة الحياة

نحاول فى هذا العرض الموجز أن نوضح بعض المشكلات والمواقف النفسية التى قد يمر بها الإنسان فى حياته، والهدف منها إعطاء القارئ صورة قد تساعده فى التعامل مع هذه المواقف، وما قد يصاحبها من انفعالات وتوترات. ولعل اختيارنا لبعض هذه المواقف يعتمد على مدى انتشارها وكثرة ما يمر بها الإنسان، وليس هذا الاختيار يعبر عن انتقاء مقصود، أو هدف إحصائى لمجموعة المشكلات السلوكية التى يعانى منها الإنسان، ولكن الاختيار لا يعدو أن يكون عينة كمثال لخبرات الإنسان، التى تمثل فى بعض الأحيان مخاوف أو مواقف يرى فيها الإنسان أن إرادته ربما هى خير دليل على أفعاله. والفرق الجوهرى بين الإنسان عندما يرضى والإنسان المتبرم غير القانع بشيء، وإلى أى حد يمثل الحب خبرة بشرية مهمة فى حياة الإنسان، تؤثر فى أمر البناء النفسى لشخصيته وتدفعه إلى العمل والإنجاز؟ وكيف يؤثر فى إشاعة البهجة فى حياة الإنسان.

أولاً: الخوف ومشكلاته السلوكية:

تتمثل حياة الإنسان فى كل ما يمر به من مباحج ومسرات، إلى جانب ما يعتريه من مخاوف ومخاطر، ويتأرجح شعور الإنسان بين الرغبة وإشباعها والآلام ومحاولة القضاء عليها أو تجنبها وتحمشها.

ويضع علماء النفس (الخوف) على رأس قائمة الانفعالات الأصلية، التى يواجهها ويستشعرها الإنسان منذ نعومة أظفاره، وإذا كان الإنسان هو الموجود البشرى، الذى لا يكاد يكف عن البحث عن «الأمّن». فما ذلك إلا لأنه مهدد فى كل لحظة بعدد من الأخطار فهو يتأرجح بين مخاوف تأتية من الخارج (من

البيئة المحيطة به) وكذلك المخاوف التي تأتيه من الداخل، وهى المصوبة من ذاته نفسها.

ويظهر الخوف من خلال تلك الهواجس التي تعترى الإنسان، فنراه فى بعض الأحيان يخاف المرض، والفشل، والتعرض للكوارث وعدم تحقيق ما يتطلع إليه... إلخ.

وبطبيعة الحال.. فإن الإنسان فى مواجهته لهذه الأمور يحتاج دائماً إلى أن يحقق هذا الحنين الدائم والمستمر، وهو حاجته إلى الأمن والطمأنينة.

وحاجة الإنسان إلى الأمن تجعله يستشعر الخوف من كل ما يهدد هذا الأمن ويعمل على تقليل حدته، فنجد الإنسان كثيراً ما يخاف لمجرد تفكيره فى الخوف؛ لأن التفكير فى الخوف يستدعى الإحساس بالخوف.

والملاحظ على علماء النفس - عندما قالوا بضرورة بقاء الأم إلى جوار طفلها خلال سنوات الطفولة المبكرة - فهم بذلك يريدون أن يؤكدوا أن اعتماد الأم عن ابنها تهديداً خطيراً لشعوره بالأمن. الطفل بطبيعة الحال فى حاجة ماسة إلى هذا الشعور بالأمن؛ نظراً لأن الإحساس بالطمأنينة سباج ضرورى ينبغى أن تحاط به حياة الطفل النفسية، خصوصاً فى السنوات الخمس الأولى من عمره.

ويحتاج الإنسان البالغ نفسه إلى مثل هذا الشعور بالأمن؛ لأن هذا الشعور إذا تلاشى، أصبحت حياة هذا الإنسان نهكاً للمخاطر والمخاوف المستمرة.

وليس من شك أن الإنسان الذى تستبد به مخاوف الفشل أو مخاوف المجهول أو مخاوف المستقبل (أو غير ذلك من المخاوف المتصلة) لا يستطيع أن يؤدي دوره كاملاً أو لا يستطيع أن يتحمل المسؤولية، أو يمكن الركون إليه، حيث يززع الخوف أركان شخصيته، فيجعلها شخصية مهزوزة لا يمكن الاعتماد عليها أو الاسترشاد بها.

الخوف السوى والخوف المرضى،

وجدير بالذكر أن هناك خوفًا سويًا وخوفًا مرضيًا، ولابد من التفرقة بين هذين النوعين من المخاوف... حيث تتمثل المخاوف السوية في ذلك الذى نلاحظه بين العاديين من الناس، (مثل: الخوف من مواجهة الخطر، الخوف من الوباء، الخوف من عدم تحقيق النجاح فى أمر من الأمور... إلخ)، هذه الانعكاسات السليمة التى قد تصاحب الإنسان فى مواقف واقعية تستدعى الخوف وتؤدى إليه.

أما المخاوف المرضية العصبية، فهى تلك التى لامبرر لها، ولا تستند إلى مسوغات عقلية، وهى مجموعة من الأعراض غالبًا ما تصاحب الأمراض النفسية؛ لأنها تعتمد على هواجس غريبة وأفكار واهمة لا تستند إلى واقع، ولا تعترف بمنطق عقلى.

ونذكر بعض هذه المخاوف غير السوية على الوجه الآتى:

• الوسواس، Obsessions،

هى حالة من الخوف المرضى، نجد صاحبها منشغلاً بفكرة أو عدة أفكار تعطل تفكيره وتبعده عن الواقع وتنعكس عليه بالتوتر والضييق، وغالبًا ما تكون هذه الفكرة فكرة ضاغطة رغم عدم أهميتها، مثل التفكير بخوف فى أن ما حدث العام الماضى من أحداث، سوف يحدث لأمحالة فى هذا العام نفسه وفى الشهر نفسه بالدرجة أو الطريقة نفسها، أو التفكير فى أن أحد الأفراد سوف يلم به مكروه. وهناك نوع من المخاوف المرضية نراه فى ذلك الذى يتميز بالحساسية المفرطة فى النظافة، وأنه حريص على أن يكون نظيفًا فلا يخالط أحد خوفًا من الجراثيم، ولا يأكل إلا ما يصنعه هو بيده، فلا يشعر بالأمن والاطمئنان إلا ما يراه هو وما يثق فيه وفق معايير الخاصة التى كثيرًا ما تجافى الواقع وتبتعد عنه، ويصبح هذا الإنسان مقهورًا أمام هذه الأفكار، فيصاب بوسواس تمنعه من الاختلاط بالجماعة، وتحرمه من الاستمتاع بمباهج الحياة.

• الشك:

ومن المخاوف المرضية ذلك القلق العام الذى يصاحبه شعور بالشك، وهذا النوع من المرض المعتمد على المخاوف المرضية يجعل صاحبه شكاكًا مفرطًا فى حساسيته، ويجعله هذا الخوف لا يحسن التصرف، ويدفعه إلى سوء التأويل لكل ما يدور حوله.

وجدير بالذكر أن هذا النوع من الخوف يجعل صاحبه مترددًا، لا يقوى على توظيف إرادته، ولا يعرف كيف يتخذ قرارًا فى أموره. وقد يؤدى به هذا الشعور الشاك إلى القلق والاكتئاب والهوس والحساسية المفرطة والصلابة والجمود والتوقع داخل الذات.

• الاكتئاب التفاعلى:

من المخاوف المرضية ما يؤدى إلى الاكتئاب؛ حيث يجد صاحب هذه المخاوف يتفاعل مع أحداث الحياة الاليمة فيتوقع حدوثها معه، ويجب أن يجد هذه الوقائع الاليمة فيتوهم حدوثها لامحالة، فلماذا لم تحدث له وقد حدثت للآخرين؟ مثل هذا الإنسان يجتر دائمًا تلك الأحداث المؤسفة، التى تثير الشجن وتبعث الحزن فنراه (خوفًا) يشعر بالتعب والقلق، يسود تفكيره التشاؤم وتغلب عليه الأفكار السوداء، فالحياة اعتمادًا على هذا الخوف المرضى بلا أمل، ويصبح النوم مقطوعًا عنده ويشعر بالاحلام المزعجة والأرق، وقد يرتفع ضغط الدم عنده، وتسوء حالته الهضمية، وما يصاحبها من فقدان للشهية، وما يترتب على كل ذلك من ضعف عام فى تكوينه الجسمى.

هذه بعض أعراض المخاوف غير السوية، التى نحاول أن ننبه الأذهان لها؛ حتى نتجنبها، لأن الإنسان الذى كرمه الله بالعقل والفكر فى حاجة إلى أن يوظف فكره وعقله وإرادته فى مواجهة الواقع، وأن الاتجاه إلى الله والاعتماد عليه وذكره الدائم بمثابة البلمس الواقى، الذى يشيع الاطمئنان فى نفس الإنسان «فبذكر الله تطمئن القلوب». والله سبحانه وتعالى قد وعد عباده المخلصين،

الذين يتجهون إليه بقلوب صافية مؤمنة، فتقودهم إلى الصراط المستقيم بأنهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون.

والحق يقال: إن مشاعر الخوف التي بدأت تنتشر بين بعض الأفراد، إنما ترجع إلى ذلك الاهتمام العجيب، الذي بدأ في زحمة حياتنا المعاصرة وما يغلب عليه من طابع مادي، أبعدنا عن الرؤية الحقيقية للأمور... فقد أصبح اهتمام الفرد منحصراً في كيفية جذب اهتمام الآخرين، والحصول على استحسانهم والظفر بتقديرهم وإعجابهم. ويرى (فروم Fromm)^(١) أن هذا الاهتمام المفرط بالغير لا يمثل ميلاً اجتماعياً سليماً نحو التعاون مع الآخرين أو مشاركتهم، بل هو مجرد ثمرة (لعقلى السوق)، التي أصبحت تغلب على كل تفكير الإنسان المعاصر في زحمة الماديات...

إن عقلية بعض الأفراد الآن قائمة على مبدأ التنافس الشكلى، الذى يعتمد على أمور ظاهرة، تحددتها سوق المبادلات الاجتماعية والمعاملات الاقتصادية؛ من أجل الوصول إلى الشعور بقيمة ذاتية واجتماعية، فكل من يريد أن يحصل منهم على قيمته وجدارته، هو ذلك الذى يملك المال والملبس والجمال... شروط خارجية قد نشرت الدهر والخوف بين أولئك الذين قد لا يجدون فى أنفسهم هذه المواصفات، أو قد تمنعهم ظروفهم المادية من الظهور على مسرحهم!!

هذا هو السر الخفى وراء تصدع بعض الشخصيات، أولئك الذين جعلوا من هذه العوامل الخارجية أموراً مخيفة ومفزعة؛ فتحولوا إلى أفراد يخافون التفاعل، وينسحبون من زحمة الحياة.

والحق يقال:

إن الإنسان صاحب الإرادة الواعية والقلب المؤمن والخصال الحميدة هو ذلك الذى يؤمن بالقيم الإسلامية الرشيدة، التى تدفعه إلى الحياة بوصفه حاملاً للقيم، ومتجهاً إلى صراط مستقيم، بعيداً عن عوامل الخوف والقلق والتوتر.

(1) Eric Fromm: "Aman for himself" New Yourk Rinehart 1960 P.P. 69 - 70.

ثانياً: تحقيق الذات وإرادة الفعل،

يسعى الإنسان دائماً إلى كل ما يعمل على تحقيق ذاته، وكان حياته تنحصر بتمامها في عملية البحث، التي يقوم بها من أجل العثور على ذاته: فكل إنسان عليه أن يبحث عن نفسه حتى يهتدى إليها؛ لأن حياة الإنسان الحقيقية في صميمها هي عملية تكوينه النفسى، وما يتعلق بهذا التكوين من إرادة وقوة وفعل...!!

ويلاحظ أن الإنسان في سعيه المستمر نحو تحقيق ذاته، يحتاج إلى تحقيق ضرب من ضروب المواءمة بين الداخل والخارج، عن طريق الفعل الذى من خلاله يترجم الإنسان من تصرفاته ويبنى مواقفه ويوظف إرادته.

وجدير بالذكر أن الناس منذ الخليقة يتوقون لمعرفة ما إذا كانت آراؤهم صحيحة، ويؤدى بهم هذا الدافع إلى تعرف مدى صحة هذه الآراء، وما يتطلبه من تقييم دقيق لقدراتهم. وقد يخبو هذا الدافع وتقل جذوته، عندما لا تتوفر وسائل موضوعية غير اجتماعية، وعندئذ يتجه الناس لتقييم آرائهم وقدراتهم بمقارنتها بآراء وقدرات الآخرين.

ولعل هذه النظرة إلى الآخرين قد تجعل البعض يميل إلى تغيير الآراء، وتعديل الاتجاهات؛ بغية تقليل الاختلاف بينهم وبين الآخرين، وأن يسمحوا لأنفسهم بالتعرض للمواقف، التي قد يظن فيها خبرات جديدة ومعارف ومعلومات، من شأنها أن تحدد لهم المسار وترسم الطريق. ويصبح الإطار الجمعى هو الإطار الملائم، الذى يستطيع الفرد من خلاله أن يصل إلى درجة من درجات تأكيد الذات، وتتوقف هذه الدرجة على مدى مثابرة الشخص وطموحه وقدرته على المبادرة والإنجاز؛ بحيث يشعر بالإحباط والتوتر والقلق النفسى، ذلك الذى لا يقوى على مسايرة هذا الإطار الجمعى ويتمشى مع أصوله.

تلك هي الخطوط العريضة التى نسج على منوالها تكنيك علاج الاتجاهات Attitude therapy، ذلك الذى بدأ تجاربه (فولسوم) ١٩٦٥، واستمرت هذه

التجارب في تطورها حتى توصلت إلى ضرورة استخدام فريق للعلاج(*) في تناول الاضطرابات السلوكية للفرد، ويتكون من الأخصائي النفسي والأخصائي الاجتماعي والطبيب ثم جهاز التمريض، بحيث يعمل الفريق في تكامل وتعاون، ويذكر فولسوم أن هذا التكنيك لا يحتاج إلى استخدام الأدوية والعقاقير، بقدر ما يحتاج إلى اتفاق فريق العمل في تحديد وتشخيص الأبعاد السلوكية، التي قد أدت بصاحب المشكلة إلى هذا الاضطراب.

ويغلب على هذا الأسلوب العلاجي الجانب العملي؛ حيث يمر صاحب المشكلة حسب فنيات علاج الاتجاهات بخطوات، نوجزها فيما يلي:

• الخطوة الأولى، العزم مع العطف، Kind firmness.

في هذه المرحلة يقابل فريق العلاج صاحب المشكلة(**)، كل في تخصصه بطريقة حارمة حالية عطوفة؛ الهدف منها تقييم سلوكه تقيماً موضوعياً، بحيث يوضح الفريق جوانب النقص وجوانب الكمال، وما التصرفات التي تحتاج إلى تغيير، وكيف تساعد على هذا التغيير.

• الخطوة الثانية، المشاركة والتفاعل والصداقة الحميمة، Active friendliness.

ففي هذه المرحلة يشعر صاحب المشكلة بمدى تفاعل وصداقة فريق العمل، بحيث يوضح الفريق، كل في تخصصه، إمكان الحصول على البدائل المختلفة، وكيف أن هذه البدائل سوف تساعد على خفض التوتر، مع مراعاة الالتجاء إلى وسيلة حميمة في الإقناع، وتجنب استخدام العنف والشدة.

• الخطوة الثالثة، السلبية مع الاحتفاظ بالصداقة، Passive friendliness.

هنا لابد من تعويد صاحب المشكلة عدم الاعتماد على الفريق العلاجي، إلى

(*) Folsom, J. C. : Attitude Therapy and the Team approach, The Journal of Hospital and Community Psychiatry. American Psychiatric Association, November, 1975. p.p. 307-320.

(**) يقصد بتعبير صاحب المشكلة (المريض الذي يعاني من اضطراب نفسي)، وقد استعضنا عن كلمة المريض بتعبير صاحب المشكلة.

الدرجة التي قد تجعله مسلوب الإرادة، بل لابد من معاملته بطريقة يشوبها الحفاء بعض الشيء والسلبية في إجابة مطالب صاحب المشكلة؛ بحيث يتنبه إلى أهمية وضرورة الاعتماد على نفسه، وإدراك أهمية تغيير اتجاهاته السلوكية التي سببت له القلق والتوتر والمرض.

• الخطوة الرابعة: المواجهة بالحقائق، Matter of fact.

يعتمد فريق العلاج على أن يقدم مجموعة من الحقائق لصاحب المشكلة، تتضمن مفاهيم تساعد على إدراك مشكلته؛ بحيث تمثل هذه الحقائق وتلك المفاهيم نظاماً يقف أمام المشكلات التي يعانيها، وقد أطلق (فولسوم) على هذه الطريقة المكاشفة والحقائق. ويتعاون الفريق العلاجي، كل في حدود تخصصه، على إبراز الحقائق التي تتعلق بالمشكلة.

• الخطوة الخامسة: رفض عودة صاحب المشكلة إلى المطالب والاستفسارات.

No demand

بعد أن يقدم فريق العلاج مجموعة المعلومات والمعارف إلى صاحب المشكلة، يحاول كل منهم أن يرفض المطالب الاستفسارية لصاحب المشكلة، بعد تعويده الاعتماد على النفس، وتكوين دوافع جديدة تحدد له المسار السلوكي، وهنا يكون صاحب المشكلة موجهاً من ذاته Inner directed، ويقدر توفير هذه المبادأة، يقرأ على صاحب المشكلة بعض المتغيرات السلوكية، التي من شأنها أن تعدل في اتجاهاته إزاء المواقف التي كنت تسبب له المشكلات.

وواضح من عرض خطوات هذا التكنيك العلاجي، أنه يهدف تأكيد مجموعة من الأسس النفسية والاجتماعية، موداها:

١- أن الإنسان كائن اجتماعي لديه حاجات نفسية اجتماعية، لابد من إشباعها في إطار اجتماعي، مثل: الحاجة إلى الأمن والنجاح، والاعتراف، والتقدير، والمكانة الاجتماعية، والشعور بالانتماء والإحساس بالمسؤولية

والحب والمحبة والمسايرة، وتجنب اللوم، والانقياد، والسلطة والضبط والتوجيه... إلخ.

٢- تعتبر العزلة الاجتماعية سبباً من أسباب المشكلات والاضطرابات النفسية.

٣- الاهتمام بالقوى الإرشادية في الجماعة، وتوظيفها والاستفادة منها، تلك القوى التي تتمثل في التفاعل الاجتماعي، وما يتطلبه من اندماج وتأثر في النشاط، إلى جانب الخبرة الاجتماعية، التي تتيح للفرد الفرصة لتكوين شبكة من العلاقات الاجتماعية من شأنها أن تجعله يشعر بالأمن، وأنه في مقدوره أن يقاوم ويناضل ويأخذ ويعطي، ومثل هذه الحركة المستمرة والدائبة تجعله يشعر بقيمته وكيانه.

٤- التركيز على الأسرة والعائلة في العمل على تحسين اتجاهات صاحب المشكلة؛ لأن الأسرة تمثل نظاماً سلوكياً له خصائص فريدة ومميزة، أكثر من كونها مجموعة من الخصائص العضوية والاجتماعية، التي تميز أعضائها.

وهنا نجد أن علاج الاتجاهات يقترب من العلاج العائلي Family therapy (*)، الذي يفترض وجود علاقة داخلية Intrinsic قوية بين مجموعة الوظائف الاجتماعية للعائلة، كمجموعة من شأنها أن تحقق ضرباً من ضروب التفاعل والوصال من ناحية، والتكيف لكل فرد فيها من ناحية أخرى.

وهكذا يركز العلاج على العائلة بوصفها وحدة أو خلية اجتماعية، تشمل مجموعة من الأقارب والأصدقاء وغيرهم كثيرين، لهم دور مهم في حياة العائلة، على الرغم من عدم قرابتهم لها.

ويوظف المعالج المعلومات التي يحصل عليها من العائلة، على اعتبار أنها معلومات تاريخية، ويعرضها على الفريق بحيث توضع هذه المعلومات في البعد المناسب كجزء فعال في الحاضر؛ بحيث لا يعتبر هذا الجزء التاريخي ماضياً ميتاً.

(*) Freeman, A. M., Kaplan, H., Editors. "Treating illness, Aspects of Modern Therapy. New York. Atheneum, 1975.

ولكنه يعتبر الماضى الحى، الذى يفسر كثيراً من العلاقات الداخلية فى ديناميات العائلة، ويقترب علاج الاتجاهات من نقطة الارتكاز الأساسية، التى يعتمد عليها العلاج العائلى، وهى درجة المودة Affection، التى لا بد وأن تتم وتوجد بين المعالج وأفراد العائلة؛ خاصة وأن العائلة قد تعمل جاهدة على الاحتفاظ بأسرارها. والمسألة هنا تتبلور فى كيفية التمييز بين الحالات التى يعمل فيها الأفراد على إخفاء الأسرار الخاصة، وتلك التى يكشف فيها أسرارهم... وهنا لا بد له من إثارة التفاعل بين أفراد العائلة والتأثير عليهم؛ حتى يشعر الأفراد بارتباط قوى بينهم وبين فريق العلاج.

وعلى الرغم من أن علاج الاتجاهات قد قدم من خلال الخطوات السابقة مجموعة من المؤشرات - التى قد تعمل على تعديل سلوك الفرد، والتخفيف من حدة المشكلات التى يعانى منها الفرد، من خلال الوسط الجماعى، أو من خلال عمل الفريق العلاجى - إلا أن هذا التكنيك العلاجى لم يقدم لنا كيف يستطيع الفريق العلاجى أن يغير الاتجاهات، إلى جانب تأكيده أن الإنسان على الرغم من خضوعه للظروف غير الملائمة التى قد تعصف بوجوده، على الرغم من ذلك الخضوع... فإنه فى مقدوره أن يختار ويعدل من اتجاهاته، دون أن يوضح الفريق العلاجى كيف يتم ذلك.

وتحضرنا هنا تلك المحاولة التى سبقت هذا الاتجاه، وقدمها عبد الغفار ١٩٧٣ (*) من خلال الملامح الرئيسية التى طرحها عن طبيعة الإنسان، والتى من شأنها أن تغير وتعديل من اتجاهاته وسلوكه، تلك الملامح التى نادى بها على الوجه الآتى:

١- تأكيد أهمية التكوين العقلى للإنسان، وكيف أنه يمثل المحور الأساسى فى تحديد شخصية الفرد، ويعمل على تكوين اتجاهاته وسلوكه.

٢- حرية الإنسان من أهم أبعاد شخصيته، وتعتبر من أهم محددات إنسانية

(*) عبد السلام عبد الغفار: فى طبيعة الإنسان: دار النهضة العربية - ١٩٧٢ ص ٧ .

الإنسان، وحرية الإرادة والقدرة على تحمل مسئولية ما يريده الإنسان ويختاره من أهم الجوانب في طبيعة الإنسان.

٣- الإنسان دائم البحث عن معنى لوجوده، وهو دائم السعى لتحديد هدفه من الحياة والوجود هنا الالتزام برسالة ما... وجود الإنسان يتمثل في حريته في اختيار هدف حياته، يتفق مع المعنى الذي يصل إليه في حياته، ثم إلزام نفسه بهذا الهدف والعطاء في سبيله.

٤- قدرة الإنسان على الانفصال والسمو فوق تكوينه البيولوجي، وهو بهذا السمو يبلغ حد الالتزام بالرسالات السماوية؛ حيث يمثل هذا الجانب الروحي جانباً من جوانب شخصية الإنسان.

٥- التفكير في المستقبل يثير القلق، الذي ينشأ من الخوف وتوقع حدوث الفشل، خاصة وأن الإنسان ليست لديه معرفة به، وبالتالي فليس في استطاعته أن يعد نفسه لمواجهة.

٦- الإنسان الذي يترك نفسه نهياً لهذا القلق، وهذا الصراع يصبح غريباً عن نفسه... غريباً عن حياته، ضائعاً في فراغ وجودي، لا يشعر من الحياة سوى بقسوتها، وقد يضعف أمام هذه القسوة فيستسلم ليصبح شيئاً... مجرد شيء.

هنا توضح لنا هذه الملامح الرئيسية كيف يمكن للموجه والمرشد النفسى أن يستثيرها في الشخص، ويحاول أن يبحث عنها؛ لأن هذه الملامح الرئيسية التي قدمها عبد الغفار تؤكد حقيقة مهمة مؤداها:

إن الذات البشرية تعرف أن وجودها متناه عرضي، محدود موقوت مجعول للفناء... فوجودى هو الشيء الوحيد الذى أملكه، وهو أيضاً الشيء الوحيد الذى أنا معرض لفقدانه فى كل لحظة... وهنا لابد للموجود البشرى إذا أراد أن يغير اتجاهاته ويحدد مسار سلوكه، ويجنب نفسه المشكلات والاضطرابات، أن يتجنب حياة الألم والخوف السام، على الرغم أن وجودنا ما هو إلا آثار أقدام فوق الرمال، أو وميض خاطف سرعان ما ينطفئ.

«ولعل البعد الدينى الذى يتجلى فى قدرة الإنسان على السمو خير دليل على تلك الإمكانية العقلية التى رود بها الإنسان، واستطاع أن يوظفها توظيفاً من شأنه أن يجعله يصل إلى الحد، الذى يستعذب العذاب فى سبيل الدين والقيم، بل كلما ازداد العذاب وقست المواجهة، ازداد عطاء الإنسان فى سبيل دينه وقيمه»^(١).

وعلى ضوء ذلك . . فإن علاج الاتجاهات لم يوضح لنا كيف يمكن للجماعة أن تهين للفرد صاحب المشكلة الموقف الذى على هذا يتصرف، ولم يبين لنا «فولسوم» وفريق العلاج مجموعة الأدوار المختلفة، التى يلعبها كل فرد من أفراد الفريق؛ خاصة وأن فولسوم قد أكد ضرورة أن يكون اتجاه أفراد الفريق العلاجى واحداً، وأن تكون أفكارهم وخططهم فيما يختص بالعلاج على درجة عالية من الانسجام من حيث التقاء الآراء والأفكار.

وإذا كان علاج الاتجاهات - من خلال الفريق العلاجى - يحاول أن يعدل ويغير من سلوك صاحب المشكلة، الذى يغلب عليه التوتر والقلق والاضطراب إلى السلوك الأكثر اتزاناً، من خلال تحضير المواقف التى تساعد صاحب المشكلة على ذلك . . فإنه من الضرورى أن يوضح لنا هذا الأسلوب العلاجى، على سبيل المثال، النقاط الآتية:

١- تحويل القوة فى صاحب المشكلة إلى فعل؛

لأن الفرد هو حزمة من الإمكانيات التى تسعى إلى التحقق، أو هو بمثابة مجموعة من القوى الضمنية؛ التى لا بد للفريق العلاجى أن يحولها إلى وقائع فعلية.

وبطبيعة الحال . . فإن صاحب المشكلة لا يكاد يشعر براحة نفسية حقيقية، اللهم إلا حين يمارس نشاطه الذاتى؛ لأنه يشعر عندئذ بقدرته، من خلال ممارسته الفعلية لنشاطه الخاص.

(١) فى طبيعة الإنسان - ص ٥٦ .

وقد تصدق عبارة لافيل Lavelle(*)، عندما يقول عن الشخص صاحب المشكلة التي تجهز له المواقف الإرشادية أنه «أشبه ما يكون بالسجين الذي يحطم سلسله، أو تلك اليرقة التي تخرج من شرنقتها». ومن هنا. . فإن الفعل هو الذى يمثل المحور الأساسى فى تعديل الاتجاهات؛ بل إن إدراك الإنسان الفرد لمعنى حياته، يرتهن بمدى مواقفه وتصرفاته وأفعاله.

٢- تحقيق الذات من خلال تحقيق الإمكانيات،

كان لابد لهذا الأسلوب العلاجى أن يوضح لنا - خاصة وقد ركز على ضرورة أن يعتمد صاحب المشكلة على ذاته - كيف يستطيع الفريق العلاجى أن يوضح لصاحب المشكلة أن الذات البشرية هى مقدرة على الوجود (Pouvoir d'être)، أكثر مما هى وجود (Être). وبطبيعة الحال. . فإن الرجوع إلى حياة صاحب المشكلة الشخصية قد يجعل الفريق العلاجى يضع بين يديه مجموعة من المعلومات، من شأنه أن تساعدهم على إعادة ترتيب المواقف، التى تساعد صاحب المشكلة على أن يهتدى إلى مجموعة الإمكانيات، التى تساعده على إعادة النظر فى أمر مشكلته.

والواقع أن الصلة وثيقة بين شعور صاحب المشكلة بذاته، وتحقيقه لإمكاناته لأن الذات إذا كانت تبدأ باكتشاف الإمكانيات الباطنة فى أعماقها. . فإن تحقيق الذات لا يتم إلا حين تتحقق الإمكانيات. وهنا كان لابد على الفريق العلاجى أن يوضح مدى المسئولية، التى لابد وأن يستشعرها الفرد صاحب المشكلة؛ خاصة فى المرحلة الرابعة، التى يرفض فيها الفريق الاستفسارات والمطالب التى قد يبديها صاحب المشكلة^(١).

وقد لا لنجانب الصواب إذا قلنا للفريق العلاجى أنه ينبغى اعتبار أن حياة صاحب المشكلة فى جانب من جوانبها (وجوب)، أكثر مما هى (وجود)؛ بمعنى

(*) Lavelle, Louis: De L'acte, Paris, Aubrier, 1964, p.p. 286-287.

(١) مير عن هذه المرحلة : Nodemann.

أنها مهمة لا بد من أدائها، أكثر مما هي واقعة تقتصر على تقبلها. ومن هنا فإن هدف الفريق العلاجي لا بد وأن ينحصر في مهمة من المهام الرئيسية، وهي أن يدرك الفرد ما رود به من إمكانيات، وأن ينجح في تحقيق هذه الإمكانيات، وأن يرضى عن نجاحه في تحقيق ما رود به^(١).

٢- تأكيد أن الحياة قيمة، لا مجرد واقعة،

كان لا بد لهذا الأسلوب العلاجي أن يوضح لنا من خلال المراحل السابقة كيف أن عملية تحقيق الذات لصاحب المشكلة ليست عملية سيئة، بل هي عملية لا بد من أن تلتقى في طريقها بمقاومة وتصطدم بالعوامل، ومن هنا . فإن المحك الأساسي الذي لا بد من الاعتماد عليه في التأكد من تغيير الاتجاهات صاحب المشكلة يتحدد بمقتضى تلك المقاومة، التي يواجه بها كل عائق، وتكون تلك المقاومة بمثابة التحدى الذي يدفع الذات إلى العمل على إحالة (العائق) إلى (وسيلة) للحل.

ومن هنا فإن مهمة الفريق العلاجي تنحصر في كيفية توضيح المواقف الأصلية، التي تكتنف طريق صاحب المشكلة، الذي قد لا يواجه مجموعة من التحديدات التي ترسم له مرة واحدة وإلى الأبد معالم طريقه، بل هو يلتقى أيضاً بمجموعة من القيم التي تستثير طاقاته؛ من أجل العمل على تحقيق مصيره، ولعل هذا ما عبر عنه عبد الغفار^(٢) (بالعطاء) كمحك من محكات الصحة النفسية للفرد؛ حيث يعتبر العطاء من أهم مظاهر تحقيق الفرد لوجوده أو تحقيقه الحال، فكل ما يؤدي إلى التطور والاستمرار هو الطبيعي وهو الصحي.

وإذا كان علاج الاتجاهات قد قدم لنا من خلال فنياته هذه المراحل التي عرضناها . فإن الهدف الأساسي الذي كان يسعى إليه هو الأسلوب العلاجي؛ كان ينحصر في مدى محاولة فريق العلاج في تغيير اتجاهات صاحب المشكلة.

ولعل وجهة النظر السابقة حول مراحل العلاج لا تمثل سوى اجتهادات من

(١) ارجع إلى عبد السلام عبد الغفار: مقدمة في الصحة النفسية - دار النهضة العربية - ١٩٧٧ ص ٢٤٨ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٥ .

شأنها أن تسهم فى تنمية أسلوب العلاج عن طريق الفريق؛ خاصة وأن هذا الأسلوب قد يتعرض لمجموعة من الانتقادات؛ إذا كانت هناك مجموعة من الحواجز، التى مارالت تفصل بين التخصصات المختلفة على سبيل المثال بين الطب النفسى والعلاجى النفسى، وبين العلاج النفسى والخدمة الاجتماعية... تلك الحواجز التى قد تحول دون تحقيق التفاهم بين أصحاب التخصصات المختلفة...

وليس من شك أن فى السبيل الاوحد إلى تزايد التفاهم والتواصل بين أصحاب التخصصات المختلفة، يتجلى من خلال مدى اهتمامهم واحترامهم لصاحب المشكلة، واستعداد كل فرد من أفراد الفريق لتقديم خدماته الإرشادية والعلاجية، كل حسب تخصصه، فى تأزر وتعاون... بحيث تحقق الاحترام للتخصص والتكامل للعلاج.

ثالثاً، العلاج بالمعنى وتوظيف الإرادة،

من الضرورى لمن يتصدى بتقديم وجهة نظر حول أسلوب من أساليب العلاج النفسى، أن يبدأ بتحديد ما يستخدمه هذا الأسلوب من خطوات، وما يستند إليه من مصطلحات وفنيات؛ بحيث يسمح هذا التحديد بالمضى فى تناول الأسلوب موضوع الدراسة بطريقة نجعلنا فى مأمن من التخبط أو التناقض غير الواعى؛ مما قد يحدث من جراء الاستخدام الفضفاض للألفاظ(*)، أو من سوء الاستخدام للمصطلحات.

والعلاج بالمعنى Logotherapy يعتمد على مخاطبة عقل صاحب المشكلة(*)؛ على اعتبار أن العقل قوة بشرية، توضع فى مقابل الانفعال أو العاطفة، وهو بمثابة القوة المضادة للسلطة بشتى مظاهرها، والتى تحاول جاهدة إلى التخلص من كل آثار التفكير الأسطورى (اللاعقلانى).

(*) يقصد هنا بصاحب المشكلة (المريض الذى يعاني من اضطراب نفسى، وقد استعضنا عن كلمة المريض بتعبير صاحب المشكلة).

وإذا كان هذا الاتجاه في العلاج النفسي قد ركز على الاحتكام للعقل... فإن تركيزه على العقل قد جعل له بعداً آخر؛ لأن العقل إذا كان بمثابة قوة للمعرفة والعلم... فإن للعقل جانباً آخر عملياً، وما يمكن أن يسمى أخلاقياً واجتماعياً بحيث لا يمكن تجاهل هذا الجانب الأخلاقي... ويكفى للاستدلال على هذا البعد الأخلاقي أن العقل قد ارتبط منذ أيام اليونانيين القدماء (بالحارموني) والتناسب الصحيح، والعدل...

وفي أوروبا الحديثة، كانت الاتجاهات العقلانية بمثابة فلسفات تنادى بإقرار العدل، في الوقت نفسه الذي تؤكد فيه ضرورة سيادة الإنسان على الطبيعة، من خلال إعلان حكم العقل في أرجاء العالم.

والوعي بالمشكلة من قبل الشخص، الذي يعاني من الاضطراب النفسي، لا يمثل واقعة معطاة أو هبة يهبها له المعالج من خلال حوارهم ومناقشته له، بل هو بمثابة كسب تدريجي ينجي لصاحب المشكلة فيحدد معالمها أمامه، ويرسم من خلال هذا الوعي مراحل تطور المشكلة.

وليس (الجدل) الذي يأتي من المعالج الذي يوظف أسلوب العلاج بالمعنى، سوى تلك العملية التي يتم بمقتضاها هذا التحقق التدريجي من عدم معقولة الأفكار المتسلطة، والتي سببت هذا الاضطراب النفسي وتحكمت في أحداثه.

ومن هنا... لا بد لنا من عرض ركائز هذا الأسلوب العلاجي (نستطيع أن نقف على فنياته ومراحله، وكيف يستطيع المعالج النفسي أن يوظفها).

يرى (فيكوتر فرانكل) صاحب هذا الاتجاه العلاجي^(١) «أن الإنسان إذا وجد في حياته معنى أو هدف... فإن معنى ذلك أن وجوده له أهميته وله مقراء، وأن حياته تستحق أن تعاش، بل إنها حياة يسعى صاحبها لا ستمرارها واستمتاع

(1) Folsom, V. E., "Man's Search for Meaning, an introduction to logotherapy., Al-lahabad: Better Yourself Books, 1974.

ظهرت ترجمة عربية لهذا المؤلف (الإنسان يبحث عن المعنى) تقديم الأستاذ الدكتور القوصي، وترجمة الأستاذ الدكتور طلعت منصور، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢، وقد رجعنا إليها (ص ١٣٠ - ١٧٠).

بمفزاها». ومن أجل التوصل إلى هذا المغزى العميق فى حياة الإنسان، وضع (فرانكل) ركائز أسلوبه العلاجى على الوجه الآتى، كإطار نظرى لهذه النظرية:

أولاً، الإنسان يبحث عن معنى حياته بإرادة المعنى؛

يعد معنى الإنسان إلى البحث عن معنى بمثابة قوة تدفعه؛ لكى يدافع عن قيمة أو شخص ما فى حياته، ولديه الإرادة التى تجعله على استعداد لمواجهة الموت فى سبيل هذا الشخص أو تلك القيمة.

وينبه (فرانكل) أنه علينا أن نحتاط من النزعة إلى تناول القيم فى ضوء مجرد تعبير الشخص عن ذاته؛ فالمعنى Logos ليس انشاقاً من الوجود ذاته فحسب، ولكنه بالأحرى شىء يواجه هذا الوجود.

وهنا يؤكد (فرانكل): «أن المعنى المراد تحقيقه من الإنسان فى واقعه إذا لم يكن سوى تفكيره الذى يريد تحقيقه فى عالم الواقع، فإنه يفقد على الفور طبيعته الباعثة على التحدى والعمل» (*).

وإذا اعتبرنا كما يرى (فرانكل) أن إرادة المعنى تمثل تلك الركيزة الأساسية من ركائز العلاج بالمعنى... فإننا قد نجد صعوبة فى تحديد هذه الإرادة، على اعتبار أنه ليس من السهل علينا فى كثير من الأحيان أن نرتد إلى ذواتنا، ونغلق أبوابنا علينا ونقبع فى أنبتنا... فإن نداءات العالم مغرية، ومقتضيات الحياة الجمعية كثيرة، وحاجات البدن لا تحتمل تأخيراً.

والدليل على ذلك ما تميل إليه حضارتنا الراهنة إلى اعتبار الفرد مجرد حزمة من الوظائف... مجرد ظاهرة خارجية، يمكن قياسها ومعاينتها وإصلاحها والتحكم فى سيرها!!

إرادة المعنى إذاً تحتاج إلى أن نؤكد قيمة تحويل (القوة إلى فعل)؛ لأن الفرد هو حزمة من الإمكانيات التى تسعى إلى التحقق، أو هو بمثابة مجموعة من القوى

(١) الإنسان يبحث عن المعنى - ترجمة دكتور طلعت منصور، مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى، ص ١٣٣ .

الضمنية، التي لا بد للمعالج النفسى من أن يكتشفها لدى صاحب المشكلة؛ حتى يصبح العمل عنده هو الذى يمثل المحور الأساسى فى تحقيق ذلك المعنى.

ثانياً، يحدث الإحباط الوجودى عندما تفشل إرادة المعنى،

يرى (فرانكل) إن إرادة المعنى قد تتعرض عند الإنسان إلى الإحباط، وهو ما حدده بالإحباط الوجودى، وهو ما يحدث عندما تنخبو عزيمة الإنسان الفرد فى السعى للتوصل إلى معنى محسوس وملمس، فى وجوده الشخصى؛ أى إلى إرادة المعنى.

وبطبيعة الحال هذا الموقف الذى جعل الإنسان عاجزاً عن التوصل إلى المعنى قد يتمخض عنه الاضطراب النفسى، ولهذا النمط من المرض النفسى يبتكر (فرانكل) - من خلال فنياته - مصطلح العصاب المعنى No ögenie neurosia، خلافاً للعصاب بمعناه الشائع لهذه الكلمة، والذى يميزه عن العصاب النفسى أن العصاب المعنوى يرتفع بالجوانب الروحية؛ لأن المصطلح مأخوذ من الكلمة اليونانية (Noose) وتعنى العقول أو الروح. . ويؤكد فرانكل أن مصطلح (الروح) هنا لا يعنى دلالة دينية بشكل أساسى، وإنما يشير إلى البعد الإنسانى على وجه التحديد.

ويؤكد فرانكل أن مثل هذا الإحباط الوجودى يأتى من المشكلات الروحية، تلك التى تأتى من الصراعات بين القيم المختلفة.

ثالثاً، الصراعات بين القيم يؤدى إلى العصاب المعنوى؛

يتولد العصاب المعنوى من الصراعات المعنوية الأخلاقية، ومن هنا يكون العلاج بالمعنى هو الأسلوب الوحيد، الذى يستطيع أن يخلص فى الجوانب الروحية للإنسان، على اعتبار أن المقصود بكلمة Logos ليس المعنى فقط كما أسلفنا، ولكن بمعنى الروح أيضاً. ومن هنا تكون المشكلات التى قد تعترض الإنسان، مثل: مستوى طموحه، أو تطلعاته إلى المثل العليا واصطدامه ببعض العوائق، التى قد تحد من هذا الطموح، وتمنع تحقيق التطلع إلى المثل العليا

والقيم، والتي لا يمكن أن تعالج على أساس المفاهيم الغريزية؛ بل لابد من أن تؤخذ بإخلاص وحماس على مستوى التعقل ومواجهة المشكلات. وهنا نجد أن (فرانكل) يريد أن يجعل المعنى شعورياً، وفي الوقت نفسه نجده يهتم بالحقائق المعنوية، فهو يجعل صاحب المشكلة واعياً بالمعنى الكامن Hidden Logos وراء مشكلاته، ثم يساعده على تحقيق إمكانات المعنى Potential Meaning؛ أى يجعل صاحب المشكلة يصل إلى ما يعرفه حدود مشكلته وأبعادها المختلفة.

ويذكر فرانكل أن الفرق الأساسي بين العلاج بالمعنى، والتحليل النفسى يتجلى، من خلال اعتبار الإنسان كائنًا، محوره الحقيقى تحقيق المعنى وتأكيد القيم، بدلاً من أن يكون مهتمًا فقط بمجرد إرضاء أهوائه وإشباع حوافزه وغرائزه، أو على حد تعبير مدرسة التحليل النفسى أن يهتم بمجرد إحداث المصالحة بين المطالب المتصارعة التى يفرضها (الهو والأنا - والأنا الأعلى)، أو يكرس جهوده على المواءمة والتكيف مع المجتمع.

رابعاً، الديناميات المعنوية هدف بديل لاستعادة الاتزان،

يرى فرانكل أن التوتر يكاد يكون المتطلب الذى لابد منه للصحة النفسية؛ خاصة وأنه لا يوجد شيء فى الدنيا، يمكن أن يساعد الإنسان بفاعلية على البقاء؛ حتى فى أسوأ الظروف مثل معرفته بأن هناك معنى* فى حياته* ومن ثم فإن الصحة النفسية تستند إلى درجة من التوتر، بين ما ألجزه الفرد بالفعل وما لا يزال عليه أن ينجزه، أو ما يمكن أن يسمى الفجوة بين الواقع وما يريد أن يكون.

ومن الخطأ أن نظن أن ما يحتاجه الفرد لكى يخفف من حدة هذا التوتر، هو استعادة الاتزان؛ تلك التى توصله إلى حالة (اللاتوتر). ولكن الإنسان يحتاج إلى استدعاء إمكانات المعنى، وما يريد أن يحققه، وما يصاحب هذا التحقيق من

(١) يسترشد (فرانكل) فى هذا الصدد بعبارة نيتشه صاحب فلسفة القوة، عندما قال: (إن من عنده سبب ليعيش من أجله... فإنه غالباً يستطيع أن يتحمل فى سبيله الصعاب بأى شكل من الأشكال).

ديناميات معنوية، تلك التى تمثل حركة متفاعلة بين الإنسان، وما يريده من معنى وهدف، وقدراته على تحقيق هذا المعنى وذلك الهدف.

والتأمل العميق لوجهة نظر فرانكل . . سوف يجد أنه يريد أن يحدث ما يمكن تسميته (بالتوجه نحو المعنى) Meaning Orientation؛ بمعنى أنه يريد أن تكون محصلة الديناميات المعنوية للإنسان الفرد أن يحدد معنى لحياته، ويسعى بقدر المستطاع لتحقيقه، وإذا سألنا عن هذا الإحساس الذى بدأ يساور بعض الأفراد فى مجتمعنا المعاصر، والذى يعبرون من خلاله عن خلو حياتهم من المعنى . . فإن (فرانكل) يقدم الركيزة الخامسة التى شرح فيها سر انتفاء المعنى عند هؤلاء.

خامساً، يشعر الإنسان بالفراغ الوجودى عندما لا تكون للحياة معنى؛

* يرى (فرانكل) أن الفراغ الوجودى أصبح مشكلة العصر الراهن، يسترشد (فرانكل) فى هذا الصدد بعبارة نيتشه صاحب فلسفة القوة، عندما قال: (إن من عنده سبب ليعيش من أجله . . فإنه غالباً يستطيع أن يتحمل فى سبيله الصعاب بأى شكل من الأشكال)، وأنه قد أصبح ظاهرة يتميز بها القرن العشرون، ويكشف هذا الفراغ الوجودى عن نفسه عند الإنسان فى حالة الملل، التى قد يراها التأمل العابرين بسيطة إلا أنها تؤدى إلى الانتحار، والإدمان، وجنوح السلوك.

وبالإضافة إلى ذلك . . فهناك بعض الأتمنة المختلفة والمظاهر المتعددة، التى يتجلى من خلالها الفراغ الوجودى، فنجد فى بعض الأحيان كما يحدد (فرانكل) تعويضاً لإرادة المعنى المحيطة بإرادة القوة، تلك التى من الممكن أن تتجلى فى إرادة المال، أو فى بعض حالات أخرى تحل إرادة اللذة محل إرادة المعنى المحيطة . . . ولعل ذلك ما جعل فرانكل يؤكد أن الإحباط الوجودى ينتهى غالباً بالتعويض الجنسى، من خلال ما نلاحظه فى تلك الحالات أن اندفاع الطاقة الجنسية يصبح متفشياً فى حالات الفراغ الوجودى.

الدراسة الكالينيكية:

(تطبيق فنيات العلاج بالمعنى على حالة من حالات العيادة النفسية)

من خلال هذا المتسلسل التدريجي لفنيات للعلاج بالمعنى، حاولنا تطبيق هذه الخطوات على (حالة طالب جامعي - العمر الزمني: ٢٥ سنة - المرحلة الدراسية: طالب بيكالوريوس الخدمة الاجتماعية - الشكوى: قلق وخوف وفقدان الثقة بالنفس).

معلومات عن أسرة الطالب:

- * يعيش صاحب المشكلة مع والدته المطلقة من أبيه - في بيت جدته، ويتكون المنزل من غرفتين، وهو منزل قديم به دورة مياه واحدة - تسكن معهم فيه أسرة مكونة من خمس أفراد، هذا المنزل يمتلكه أقارب (الحالة).
- * الدخل الشهري - يعطى الوالد صاحب المشكلة ٢٠ جنيهاً كل شهر؛ ليصرف منها على شراء حاجياته، ويغطي كل مصروفات الدراسة. يعطف عليه خاله (على حد تعبيره) فيعطى الجدة كل شهر مبلغ خمسة جنيهات، مدعمة ببعض اللوازم المنزلية مثل (سكر - شاي - أرز - زيت).
- * (كانت تعيش مع الحالة) شقيقته، وهي أصغر منه بعام وشهر واحد، وقد تزوجت.

الخبرات القاسية التي مرت بها في فترة الطفولة(*):

- ١- ضرب أبي لي دائماً (بالخرطوم الجلد) وهو يسمع لي أو يشرح لي دروسي، وكنت أبدو مدعوراً - وكان يطردني خارج البيت لوقت طويل في المساء، ثم يعود ليدخلني بعد أن يهددني ويتوعدني.

(*) وجه هذا السؤال إلى (الحالة) أثناء تردادها على العيادة النفسية لكلية التربية، جامعة عين شمس) وتركت (الحالة) تكتب الإجابات بطريقة التعبير الذاتي Self Rating - توطئة للموقف على الظروف المحيطة بأحداث المشكلة.

٢- طلاق أمي من أبي - وخروجها من بيتنا إلى بيت جدتي - وتركنتي مع زوجة أبي التي كانت تعذبني - وتلسعني بالنار - أو تعلق لي التهم حين حضور والدي.

٣- كنت إذا لعبت كرة في الحارة مع أصحابي - كان أبي يضربني - مما جعلني أخاف من سماع صوته أو ديبب أقدامه - عرف الأطفال نقطة الضعف هذه - وهي أنني أخاف جدًا من أبي - فكان عليهم إذا تشاجرت مع أحدهم، دفاعًا عن حقّي، يهددونني بإبلاغ والدي؛ فيزداد خوفي وانعزالي.

الخبرات القاسية في مرحلة المراهقة:

١- لم أكن أعلم شيئًا عن تلك المرحلة، والتغيرات التي تحدث فيها، على الرغم من إحساسي برغبة جنسية عارمة، دون أن أعرف السبب الحقيقي وراء إحساسي (يلاحظ هنا مدى تأثير غياب رعاية الأب).

٢- مررت بخبرة عاطفية صادقة وأنا في السنة الثانية الثانوية، ولكن محبوبتي كرهتني لأنني على حد تعبيرها (غشيم - خواف - عاور أتدردح).

٣- كان بعض زملائي يضحكون على في الفصل لأنني الدغ في حرف (الراء)؛ مما كان يؤلمني جدًا، وأتخاشي التحدث معهم.

٤- كان أبي يجعلني خادمًا له ولزوجته حيث كنت أشتري لهم الخضار - أصلح باجور الجار - أتزاحم في الجمعيات - كنت أرفض ذلك في قرارة نفسي، ولكن خوفي من أبي جعلني لأحدثه في هذا الشأن.

٥- نجاحي في الثانوية العامة - وكنت لا أرغب في إكمال تعليمي، بل كنت أريد أن أتوظف، فدخلت الكلية ولم أكن أعلم عنها شيئًا.

٦- لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم الذي وقفت فيه أمام ناظر المدرسة الثانوية بتهمة تكسير الكراسي، وهو بمسك (خorraine) فكنت في غاية من الخوف واللباجة (لأنني لم أفعل هذا العمل موضع التهمة)، وما كان من الناظر إزاء هذا الخوف الفظيع إلا أن قال أمام الطلاب (ده ولد غلبان خالص).

الخبرات القاسية في المرحلة الجامعية:

- ١- عندما دخلت الكلية، كنت أرى الشباب يندمجون بسرعة مع البنات ويتكلمون بطلاقة معهن، وأرأى متعثرًا صامتًا لا أستطيع الكلام، وأكتفى بالنظر من بعيد.
- ٢- كنت أخاف جدًا من الأساتذة، وأتخاشى الكلام معهم.
- ٣- رسبت في العام الثاني من الكلية بسبب انقطاع المصروف، ومرض والدتي، واضطرارى للاشتغال في (طايقة المعمار) أقوم بعمل خلطة المونة الخرسانية نظير ثلاثة جنيهات في اليوم.
- ٤- كان أبى كثيرًا ما يقول لى «أنت غيبى تعيش حمار وتموت حمار»، أنت لا تهمل ولا تتربط - وكثيرًا ما كان يطردنى علانية أمام الناس عندما كنت أروره.
- ٥- عدم القدرة على إبداء رأى مخالف لرأى أبى - أو حتى مناقشته - لأن ذلك كان يؤدي إلى زعله منى.
- ٦- جاءت على لحظات كثيرة كنت أكره فيها أبى - وأكره الذهاب إليه - وأكره يوم الإجازة لأنه لا بد من الذهاب إليه، وكنت أرتعش حتى أصل إليه.
- ٧- تهديده المستمر بقطع المبلغ البسيط الذى كان يعطيه لى -
- ٨- لا بد من الاشتغال فى كل إجازة صيف فى (طايقة المعمار)، وتحمل الأعباء الشاقة (بدنيًا ونفسيًا)؛ من أجل الحصول على قدر من المال، أنفق من خلاله على نفسى من حيث الكتب والملابس، حتى تنقضى الأيام المتبقية من السنة الرابعة على خير.

أجرى تطبيق اختبار الشخصية المتعدد الأوجه (M.M.P.I.)؛ لتعرف الخلفية النفسية لصاحب المشكلة، بعد إجراء المقابلات الكلينيكية، وقد حصل صاحب المشكلة على درجات عالية فى المقاييس النفسية الآتية(*):

(*) اختبار الشخصية المتعددة الأوجه، قام بإعداد النسخة على البيئة المصرية (د. عطية هنا - د. عماد الدين اسماعيل - د. لويس مليكة).

(هـ س) ويقيس توهم المرض - انقباض: ويتميز بأنه يتعرض لنوبات مفاجئة من الضعف، ويميل إلى الاعتماد على الغير.

(د) ويقيس درجة الانقباض: وتدل على انخفاض الروح المعنوية، والشعور باليأس والعجز عن النظر للمستقبل نظرة عادية متفائلة.

(هـ ي) ويقيس الهستيريا: ويشعر صاحب المشكلة بنوبات مفاجئة من الضعف والإغماء، أو حتى ما يشبه الصرع.

(ب ت) سيكاثينا... يعاني من المخاوف المرضية: أو السلوك المظهرى، وهو شديد الارتباط بالمثلث العصائى (هـ س، هـ ي، د)، ويفيد هذا البعد أن صاحب المشكلة يشعر بالقلق - مسالم إلى حد بعيد - عاطفى - انطوائى.

(س ي) الانطواء الاجتماعى: دلت مقياسه على أن صاحب المشكلة يميل إلى الوحدة العزلة، وينسحب من التفاعل والمشاركة الاجتماعية.

تعقيب على دراسة الحالة:

والواقع أن نتائج مقياس الشخصية المتعدد الأوجه والظروف المزاملة للمشكلة قد جعلت صاحب المشكلة فى حيرة من أمر نفسه، وحياته؛ الأمر الذى جعلنا نناقش معه مدى فهمه لمعنى حياته؛ لأنه كثيراً ما كان يقول (أنى أحاول أن أبحث عن نفسى حتى أهدى إليها)، وهو يريد أن يؤكد من خلال العمل أن يشعر بأنه قوى، وأن طاقاته لا بد وأن توظف فى هذا العمل الذى اختاره (لكى يكسب منه قوته، وما يمكنه من الصرف على دراسته). وهنا بدأت أركز على تغذية المناقشة خلال الجلسات الإرشادية بمنطق يستحثه على العمل وجدولة الوقت حتى لا يرهق نفسه، وحتى لا ينجر فى التيارات السلوكية، التى نبه عنها خلال اعتراضه على سلوك العمال ومعاملاتهم... وقد نجح صاحب المشكلة فى إظهار هذه القدرة على العمل والاستمرار السليم.

هنا تتحقق قيمة الأسلوب العلاجى المستخدم من أن المعنى والالتزام بتحقيقه

عن وعى بهذا الالتزام من الأمور الضرورية؛ لأن الواقع أنه إذا كانت الصلة وثيقة بين «شعور صاحب المشكلة بذاته» وتحقيقه لإمكانياته.. هنا يستطيع المعالج أن يجعل صاحب المشكلة أن يقنع بما لديه من إمكانيات، وأن يقدف بكل إمكانياته إلى عالم الواقع؛ بغية تحقيق الهدف، الذي يرى أنه بمثابة (ولادة جديدة) ستجعله يحظى بالمكانة الاجتماعية ويقدم المعونة لوالدته، ويعطف على أخته المتزوجة، والتي كان يتأثر عندما يزورها دون أن تصاحبه الهدايا.

وأثناء تأكيد هذا المعنى المسئول للحياة، والنابع من إرادة صاحب المشكلة، لابد لنا من أن نعوذه نحمل الصعاب، والمعاناة في سبيل تحقيق الهدف؛ لأن الموقف البشرى لا يتحدد إلا بمقتضى تلك (المقاومة) التي تواجه بالضرورة كل (نشاط) إرادى، فتكون بمثابة التحدى، الذى يدفع بالذات إلى العمل على إحالة (العائق) إلى واسطة.

ومهما سنلتقى في حياتنا بالكثير من الحدود والعوائق.. فإن هذه الحدود هي مجرد تحديدات، تساعدنا على رسم طريقنا، دون أن تمنعنا من الوصول إلى ما نهدفه، ونتطلع صاحب المشكلة هنا نجده تحول إلى إنسان مريد، يسعى جاهداً في سبيل التحرر من مظاهر القلق والألم والصراع؛ لأن الحياة قد أصبح لها معنى، ولها دلالة ينبغى أن تعاش، ولم تعد خاوية كما كان يتصورها صاحب المشكلة في بداية ترده على الجلسات الإرشادية.

وبالنسبة للخبرة العاطفية التي بدأ يكونها صاحب المشكلة نحو زميله في الدراسة يرى أنها تقدر فيه كفاحه، وتعرف مشكلاته، وتساعد.. فقد تم تبصيره بأهمية هذه التجربة، وكيف أن هذه الحياة العاطفية. النقية تمثل حياة مشاركة يتعلق فيها الإنسان باسمى وأرفع ما فى الإنسان. ومن هنا لا يجوز لصاحب المشكلة أن يخاف من هذه التجربة النقية السليمة؛ لأن الحب الشخصى المبني على التفاهم والوضوح والصدق يمثل قيمة أخلاقية كبرى فى حياة الإنسان، ولعل ذلك ما سوف يخلع على حياة صاحب المشكلة عمقاً، ومعنى وقيمة، مما يكسبه اتجاهًا وقصدًا وغائية.

والواقع أن العلاج بالمعنى كأسلوب للعلاج النفسى ينجح تماماً، إذا كان صاحب المشكلة فى مقدوره أن يستوعب القضايا المنطقية، التى من شأنها أن تجعله يسمو بنفسه إلى أعلى درجة، وأن يفهم أن النضج النفسى يستلزم بالضرورة إقامة ضرب من ضروب الاتزان الوجدانى؛ حتى يتمكن من الإقبال على الحياة بما فيها من سعادة وآلم، وهنا يتحدد المقصود (بالعلاج بالمعنى)؛ لأنه يخاطب العقل ذلك الذى يسعى إلى تحقيق التوازن المنطقى، وتنظيم الانفعالات وتقوية الإرادة على تعقيل الأهواء.

وإذا كانت هناك ثمة عوامل، قد يكون من شأنها، أن تحد من قدرات الإنسان فى الحياة، وبالتالي تنعكس على شخصيته... فإن هذه العوامل لا ينبغي أن تكون قوى هدامة، بل لا بد من اعتبارها قوى منشطة ومحركة ودافعة للإنسان على العمل والاستمرار السليم، فى مواجهة هذه الصعاب.

وجدير بالذكر أن هذا الأسلوب العلاجى يحتاج إلى دراسات متعددة؛ حتى تقف من خلالها على مدى نجاحه فى حالات القلق، والمخاوف والتعلق بالأفكار الغيبية الأسطورية؛ خاصة وأن الحالات التى قدمها (فرانكل) كانت حالات أمينة خاصة، على مستوى من العلم والمعرفة والثقافة؛ الأمر الذى يجعلنا نستخدمه كأسلوب علاجى مع فئة خاصة (ونعنى بها على درجة عالية من الثقافة والذكاء والتعليم).

وإذا كان هذا الأسلوب العلاجى، قد تصور الإنسان بمثابة مجموعة من القوى تحدد سلوكه، ولكنه هو الإنسان الذى لا بد له أن يفهم تلك القوى، وعن طريق هذا الفهم تتكون لديه القدرة على القيام بدور فعال فى تحقيق مصيره... وهنا تكون صعوبة سر هذا الأسلوب العلاجى.

رابعاً، الرضا وقيمة الاطمئنان النفسى،

إذا كان الإنسان قد اعتاد أن يقبل على اللذة ويعرف عن الآلم... فإنه لا بد له من أن يجد نفسه مدفوعاً إلى المبالغة فى تقرير أهمية الخبرات السارة على حساب الخبرات الآلِمة.

ويعد الإحساس بالرضا مطلبًا من المطالب المهمة، التي يسعى إليها الإنسان ويهدف لتحقيقه، ويعتبر هذا الإحساس من وجهة نظر المشتغلين في مضمار الصحة النفسية ملمحًا من ملامح الشخصية السوية، تعتمد عليه وتتصرف وفق هداه وإرشاده؛ حيث يشعر الإنسان الفرد بمدى انعكاس هذا الشعور بالرضا على سلوكياته وتصرفاته.

وقد يحتار العقل البشري في ظل رحمة الحياة المادية وما يصاحبها من ضغوط وسرعة ولهفة، وتبلى هذه الخيرة من خلال هذا الاندفاع الرهيب لاقتناص الفرص، والحرص الشديد على تحقيق المنفعة المادية بأي شكل من الأشكال.

والحق أن كثيرين قد يتوهمون - في سبيل امتلاك هذا الشعور بالرضا - أن الحياة هي الإشباع المادى فقط، وأن السعادة في (الرفاهية) .. فانعكس هذا التصور الواهم على تصرفات البعض، فلم يعد هذا البعض يرى من القيم سوى جانبها النفعي، وقد يتأكد لديهم الوهم ويتجسد ويتبلور في أن الشعور بالرضا يركز على مدى إشباع الإنسان الفرد لهذه الحاجات المادية!!

وهناك من يرفض أن يتشبث بهذا السعى المستمر وراء الماديات وعقد الصفقات، وتكوين شبكة من العلاقات المبنية على المنفعة المتبادلة، بعيدًا عن إطار القيم... مثل هذا الإنسان الراض الخوض المعركة المادية بما فيها من مهارات وصراعات، يضع لنفسه إطارًا من القيم يعيش عليه، فإذا به يشعر بالرضا لأن إقرارات هذا الشعور نابعة من ذاته مبنية على إرادة واعية، تحدد ما تريد وترفض ما لا تقتنع به.

ولكن نوضح العلاقة الوثيقة بين الإحساس بالرضا وشعور الاطمئنان النفسى، نسترشد بدراسة (سيد صبحى ١٩٨٧)، التي قدم فيها بعض الأبعاد المميزة للشعور بالرضا ودلالاتها النفسية على الوجه الآتى (*):

(*) سيد صبحى: الرضا لمن يرضى؛ دراسة في الصحة النفسية - المطبعة التجارية الحديثة- القاهرة ١٩٨٧ .

• الرضا في مقابل التبرم،

يتطلع الإنسان الفرد دائماً إلى ما يحقق له الانسجام مع مطالبه والاتزان مع رغباته، ويتوق إلى الكمال وإلى اقتناء كل ما ينمى ثروته وصحته وتعليمه ومعارفه وعلاقاته بأحبائه. ولذلك نراه في غالب الأحوال يحاول جاهداً أن يلتبس شتى الوسائل المادية، التي تساعد وتعمل على تحقيق ذلك الانسجام المنشود.

وهذا الانسجام مع الذات ينعكس بطبيعة الحال في تعامله مع الآخرين من الناس، وكأننا نصل إلى معادلة بسيطة قوامها:

أن الإنسان كلما أَرْضَى حاجاته - سواء كانت هذه الحاجات عضوية أم نفسية - فإنه يشعر برضا واتزان بين ما يمكن أن يسمى مطالب الجسم ومطالب النفس وما يصاحبهما من سعادة، تتجلى في زيادة حيوية الإنسان ونمو قدراته وتطلعه المستمر، في طلب المزيد من ذلك الذي أعاد إليه الراحة والسعادة والطمأنينة.

ولكن هذا الحرص على الاتزان من خلال إشباع الحاجات - سواء كانت عضوية أو نفسية - قد يخبو ويقبل وفق ما يعترض الإنسان من عقبات تحد من إشباع رغباته أو تقلل منها، بل وقد تمنعها.

وبالإضافة إلى هذه العقبات... نجد أن الإنسان في تطلعه لإشباع هذه اللذات يفاجأ باختلاف طبيعة حاجاته، سواء كانت نفسية أم عضوية، فاللذات التي تشبع وتنعكس بشعور من الرضا عليه لا تتفاوت فقط في درجة شدتها، بل تختلف أيضاً في طبيعتها ونوعيتها والأسلوب، الذي يختاره الإنسان الفرد لإشباعها لهذه الطبيعة وتلك النوعية.

وجدير بالذكر أن الإنسان في سعيه المستمر يتطلع إلى الإشباع، ويحاول في سعيه أن يحرر التقدم المطلوب الذي يجعله مترئساً مشبعاً راضياً، ويستمر حال الإنسان بين هذه المحاولات يقاوم المواقف، التي قد تقف حجرة عثرة بين الإشباع وبينه؛ خاصة وأن هناك من الأفراد من يتصورون أن عليه أن يبعث الحاجة

ويتوصل إليها، ويصطنع المواقف التي تغذى إحساسه «بالرضا»؛ حتى ولو كان صوريًا شكليًا مزيّفًا(*) ١١

ويطبيعة الحال.. فإن الإحساس بالرضا عن طريق بحث الحاجة بوسائل صناعية مبشرة، يعمل على ضعف اللذة أو الراحة أو الإشباع، الذي قد يأتي من هذه الحاجة، وغالبًا ما تنقلب مراحل الإشباع إلى إيقاعات رتيبة تبعث على الملل والالأم. والإحساس بالملل والالأم يصنعه الإنسان؛ لأنه يتسرع في تنبيه نداء الجسم، دون أن يدرك كنه هذا النداء وأبعاده، فيشبع الحاجة بغموض وتخبط أو بسرعة ولهفة، والغموض والتسرع من شأنهما أن يجعلاه متوترًا متبرمًا، وكلما كانت الحاجة التي يريد الإنسان الفرد أن يشبعها واضحة النداء، كانت وسائل تلبية هذا النداء مستجيبة لدوافع قوية، تخدم هذا الإشباع وتعمل على تحقيقه.

أما إذا كانت الحاجة غامضة، لا يدرك من أمرها الإنسان شيئًا سوى الدغابات السريعة أو الإيقاعات الخافتة.. فإن هذا الإنسان يشعر بالتوتر والقلق وعدم الرضا؛ لأن هذه الحاجة سوف تعاوده بين حين وآخر، فتقرع باب الرغبة لديه بضرارة وقسوة، دون أن تكشف الحجب عن سر إصرارها على عدم الدخول إلى عالم الإشباع.

ويزداد التوتر لدى الإنسان ويتراجع بين الأمل واليأس أو بين الرضا والتبرم، وقد يكتفى هذا الإنسان بلذة البحث عن اللذة المنشودة، التي لم ير منها سوى وميض خاطف كلمع السراب!!

إن الرضا والتبرم طرفان متضامنان، وقد يبدو للمتأمل العابر أن ظاهرهما ضدان متقابلان، فالإنسان الفرد في سعيه نحو ما، يريد أن يشبعه تستهويه طموحاته إلى العلا، كما تستهويه نفسه للخوض في الأعماق، ويفتش دائمًا عن عوامل تعبى بقدر ما يحاول أن يتلمس جوانب راحته، وكأنه البوتقة العجيبة التي

(*) Al- Koussy, A. A. "Inequalities and gaps inside and outside the home, Unesco, Paris, 1984.

تتصارع داخلها قوى خفية غاشمة، وتنصهر بين جوانبها عوامل الرغبة فيخرج الخليط يعبر عن الرضا تارة، ويعلن عن التبرم والتوتر تارة أخرى.

وإذا كان الرضا من الأهداف التي إذا تحققت للإنسان.. فإن الاختلاف على أهميته يبدو طفيفاً فكل إنسان يسعى إليه ويتطلع، بل ويتمنى أن يكون راضياً مرضياً(*)، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه؛ فلا يلبث أن يكون شعور التبرم من بين ما يصادفه من انفعالات، ذلك الشعور الذي يطيح بالمشاعر، ويشمل الوجدان شيئاً!! ويتبلور هذا الشعور من خلال:

* مواقف العجز التي يمر بها الإنسان حيث يجد نفسه لا يقوى على فعل أى شيء، أو لا يستطيع أن يحكم إرادته في تقبل المواقف الضاغطة، أو أن مستقبله وما يتعلق به من آمال وتطلعات قد أصبح في يد خفية، تبعث به وتسيره كما تشاء وتريد.

* يتجدد التبرم أيضاً من خلال انعدام شعور الإنسان بالحرية.. ذلك الشعور الذي عندما ينعدم يرى الإنسان نفسه، وقد تعلق في الهواء، شأنه شأن ريشة ضئيلة في مهب ربح عاتية.

* يشعر الإنسان بالتبرم عندما يتحول إلى آلة صماء، لا يقوى على التفاعل السليم والاخت والعطاء المبني على الأريحية والفهم والوعى بقيمة الإنسان الآخر؛ فتحدث الفجوة بينه وبين الآخر، ويضيع الرضال من خلال هذا الشعور المتبلد.

* ويتبرم الإنسان الفرد من عدم وضوح شبكة العلاقات الاجتماعية، فما يراه صدقاً ومقنعاً يتحول في بعض المواقف إلى كذب ومداهة وافتراء، فلا يملك الإنسان إلا أن يصاحبه هذا الشعور بعدم الرضا، والذي يجعله مهما حاول أن يخفيه من خلال أقنعة المسايرة، فإنه يبدو للنظرة الفاحصة متوتراً ضائقاً متبرماً.

(*) في أقوالنا الشعبية المصرية كثيراً ما نسمع نمجد هذا الشعور، من خلال القول الآتي: «يا عيني على الرضا».

* ويتملك شعور الإنسان بالتبرم نواحي حياته، عندما يرى الجو الاجتماعي المحيط به يقلب عليه طابع التزلف والتفاق، وأن كل فرد يحاول من خلال السلوك التبريري الجديد - الذى ظهر من خلال ضغوط الجوانب المادية - أن ينقذ نفسه ويحقق مأربه، ولو على رفاق الآخرين، دون وجل أو ندم.

* يشعر الإنسان بالتبرم عندما يفقد الإحساس بالحياة، ويرفض الإقبال عليها بوجه عام فيبدو مكدودًا ثقيلًا مهمومًا، وينعكس هذا الشعور على تصرفاته، فيحيلها إلى تجمعات سلوكية غريبة فى أطوارها ومثيرة فى انعكاس أفعالها. على الآخرين، فى الوقت الذى لا يشعر صاحب الشعور المتبرم أنه يؤدى الآخر، أو ينال منه.

وإذا كان هذا الشعور المناهض للرضا قد أوضح معالمه من خلال النقاط السابقة وأعلن عن صيغته القائمة . . فإن علاج التبرم لا يتم إلا من خلال العناصر الآتية:

١- إعطاء الإنسان الفرد الفرصة لكى يطلق القوى الحية فى ذاته، سواء كانت حاجات عضوية أو نفسية؛ لكى تتوحد لديه هذه القوى، فيصير قوله مواكبًا لفعله ووجدانه، موازيًا لفكره وإحساسه، معبرًا عن إنسانيته.

٢- العمل على مساعدة الإنسان لتحقيق رسالته . . تلك التى تعتمد على دعوة يقدمها للحياة بحب وتفاعل ومودة، من خلال المشاركة الفعالة والتفاعل السليم، الذى يمكنه من تأكيد ذاته والإحساس بقيمته.

٣- الابتعاد عن الخصال غير الحميدة التى تحاول بقدر المستطاع - كلفة جديدة - لروح العصر الذى نعيش بين جوانبه - التى محصلتها الكراهية والحقد والحسد - والتى تنعكس على النفس بشعور التششت والتوتر والضيق والتبرم.

٤- على الإنسان أن يهذب سلوكياته ويدافع عن قيمه وأخلاقه، مهما كانت نداءاته المادية عالية الصوت صاحبة الإيقاع، ومهما أعلن أصحاب السلوك المنافق المتزلف عن مدى نجاح سلوكهم فى إحساسهم بالرضا، فإن عليه

واجباً أن يقضى على النفاق والكذب والخداع والتضليل والتبرير والتملق والخبث وعدم الالتزام بالوعد، وعدم الاعتراف بالحق والتوصل من أداء الواجب...

هذا هو الشعور الجديد للإنسان الذى يريد لنفسه أن يكون راضياً بعيداً عن الإحساس بالتبرم... ذلك الإحساس الذى عملت على انتشاره عوامل كثيرة صنعها الإنسان الفرد بنفسه، فى غفلة من المبادئ الأخلاقية، وتحت نشوة التعلق بالماديات... ومن يتعلق بأحبال الماديات فقط... فقد تعلق فى الهواء وهو ممسكاً بأحبال واهية.

• البهجة فى مقابل «العكنة»:

ثميل فى غالب الأحوال إلى نقد الذات ومحاولة وضع النفس أمام مرآة النقد العجيبة التى تعانى من كسر فى بعض جوانبها، فلا يرى الإنسان إلا صورة معوجة وتكوين متكسر غير متوافق... ومثل هذا الشعور الغريب قد رأى بعض المتخصصين فى مجال تأصيل الخصائص النفسية للشعوب بأن الروح العامة التى تميزنا هى روح الفكاهة والدعابة والبهجة، إلا أن هذا الشعور يواكبه ضرب من ضروب «العكنة» أو الميل إلى إيذاء النفس، وتغليفها بغلاف قائم رهيب من هذه «العكنة»، والذى يحيل هذه البهجة إلى شعور قائم وتعاسة وحزن!!

والحق يقال:

إن أخلاق أى شعب لا تتميز على أخلاق شعب آخر؛ لأن الظروف الموضوعية المتراكمة عبر التاريخ، والتى مر بها هذا الشعب تختلف عن ظروف هذه الشعوب الأخرى موضع المقارنة.

ولعل هذا ما يدفعنا إلى أن نعيد النظر فى أمر هذه القسوة الفظيعة، التى تجعلنا نقسو على أنفسنا بضرارة، دون أن نتفهم الأبعاد الموضوعية لتلك الأحكام القاسية، والتى تجعلنا نفرط فى توجيه هذا اللوم وذلك التأييب... ولا بد من أن نتفهم الأبعاد الموضوعية لتلك «العكنة» قبل أن نوجه هذا اللوم، وقبل أن نقف

امام أنفسنا تحت وطأة هذا الشعور الناقد والقاسى فى ضراوة فى لوم أنفسنا، علينا أن ندرك مدى تأثير العوامل المعاكسة التى تعرضنا لها عبر التاريخ، وكيف استطعنا مواجهتها وما أثرها على نفسيتنا؟

وإذا كان الضحك علامة من العلامات المعبرة عن البهجة؛ حيث نجد الشخص البالغ قد يضحك وهو يستحم فى البحر، أو حينما يهبط بسرعة من فوق جبل عال تعصف به الرياح، فإن هناك بعض الجوانب الحضارية كما يرى (يونج)^(*) أيضاً قد عملت عملها فى الضحك، فأصبح له من الدلالات الاجتماعية والمعانى العقلية ما جعله يفقد رونقه الطبيعى (العقل)؛ لأننا بفعل هذه الجوانب الحضارية وما يصاحبها من (بروتوكولات) (وأنيكيتات) ومراسم وحيثيات... قد أصبحنا نضحك للتعبير عن شعورنا بالرفاهية أو الراحة أو السعادة.

والواقع أن شعورنا «بالعكنتة» قد يأتى من تلامم مجموعة من العوامل فتضغط على الإنسان وتجعله بهجة الحياة وحلاوتها، ومن هذه العوامل التى قد تساعد على انتشار «العكنتة»، عندما يصير حديث الأفراد عن انتشار ظاهرة عدم الاهتمام بالمصلحة العامة للمجتمع الذى نعيش بين جوانبه، وهذا الوطن الغالى الذى يظلمنا بسماؤه ويروينا بنبيله العذب.

* تزداد العكنتة عندما يرى الأفراد أن قدرًا غير قليل من عيوبنا الأخلاقية راجع إلى انتقال عدوى القدوة السيئة؛ بحيث تتسلل هذه العدوى تدريجيًا إلى المستويات العليا فى المجتمع مرورًا بالمستويات الدنيا... فتجتمع بين هذا وذاك (**).

* تتجلى «العكنتة» فى أبشع صورها، من خلال أسلوب التفاف والمجاملة والتطرف والذى يظن البعض - وهم واهمون - أن هذا السلوك سوف يعود

(*) Young, Cf. K.: "Personality and Problems of Adjustment". London Kegan Paul and Routledge. 1952, 2^{ed}, p. 66.

(**) تطالعنا الصحف السيارة بأخبار عن اختلاس مسئول لمبلغ ضخيم من المال، ويكون هذا المسئول راعيًا لمصرف أو بنك فيتأكد لئلا «حاميها حراميها».

عليهم بالمنفعة ويجلب لهم البهجة، إلا أن هذا السلوك يؤدي إلى «عكنتة» المتناقض و«عكنتة» الآخرين، الذين يتعامل معهم، والذين يشاهدون نفاقه ويراقبونه بعين النقد والاستهجان.

* وتستمر «العكنتة» في الظهور كملمح من ملامح الانفعال، الذي يعبر عن عدم الارتياح وانعدام البهجة عند البعض، أو عندما يشيع سلوك قلة الدوق، وانعدام الشهامة والمفهومية، وينحسر سلوك الأدب والخشية والحياء، ذلك الذي تحاول مجموعة العلاقات الاجتماعية الجديدة أن تطيح به وتقضى عليه، من خلال تبادل المنفعة، والغاية تبرر الوسيلة «واللى تغلب به العب به» «واللى يتجور أمى، أقولُه يا عمى».

* وتتلاشى البهجة أيضاً من مواجهة «العكنتة» التي تأتي من عدم قدرتنا - في بعض الأحوال والظروف والملابسات - على أن نفصل بين الأهداف الشخصية بما فيها من أطماع وجشع، والعمل الذي يفترض أن نقوم به ابتغاء مرضاة الله بموضوعية وأمانة، بعيداً عن المصلحة الشخصية من عوامل ذاتية... دون أن نضع في اعتبارنا أن هذا البلد الذي نعيش فيه، وهذا الوطن الذي يحتضننا بين جوانبه ليس ملكاً لفرد أو مجموعة أفراد، ولكنه وطن الجميع، وأن الذي يعمل بجد واجتهاد وأمانه وموضوعية وكفاءة هو ذلك الذي يرفع مصلحة الآخرين، قبل أن يحقق مصلحته الشخصية.

* ومن عوامل «العكنتة» أيضاً أن هناك من لا يستطيع أن يفرق بين التفكير النظرى والتفكير الفعال؛ حيث يكثر الكلام وتكثر الوعود الوردية ولا تتحقق الكلمات ولا الوعود في واقع التنفيذ، ولعل هذه المشكلة هي التي جعلت هؤلاء البعض يعيشون على اجترار هذه التصورات الشكلية واللفظية، دون النفاذ إلى تفاصيل الموضوعات والتخطيط السليم الفعلى، المعتمد على إجراءات منهجية في تنفيذها(*).

(*) أرجع إلى: سيد صبحي - وجهة نظر في بناء البشر - مجلة الفكر المعاصر - يونيو ١٩٧١، العدد ٧٦ - ص ٥٣ - ٥٤.

* وتظهر ملامح «العكنة» بجلاء ووضوح من خلال هذا السلوك السلبي، الذي يجعل صاحب «العكنة» (إذ صبح هذا التعبير) يميل إلى الانسحاب وعدم المشاركة الفعالة، ويصاب بضرب من ضروب الإهمال المتعمد والمقصود؛ لأنه يرى أن الذي يعمل يجد هو نفسه الذي لا يقدر، وأن الذي لا يعمل «ولكنه يستخدم أسلوب التزلف للوصول» يرقى ويتقدم(*).

ومن هنا لا يهتم بمصالح وطنه ولا يكثر بمشكلاته ولا يتعاون في حلها؛ لأنه لا يرى البهجة إلا في عيون وقحة سمحت لنفسها أن تأكل هي فقط، دون مراعاة لعيون الآخرين تلك التي تلمع فيها دموع الحرمان!!

والذي يمكن أن يقال في أمر «العكنة» وما أدى إليها من عوامل، أن هذا الشعور من الممكن أن يخفف وتقل حدته عندما تتغير طرائق التفكير لدينا، وتعتمد على المنهج السليم الذي يعتمد على الأصول الواضحة، وعندما نتخلص في ثقافتنا من اتجاهات تقديم الالتماسات والرجاءات، وأن نبتعد عن أسلوب الإراقة والإسقاطات.. ذلك الأسلوب الذي بدأ ينتشر عند البعض، وكانت نتيجة انتشاره «تبيع» المسئولية وتبرير الأخطاء، أو أن أداء العمل يتم طمعاً في ثواب أو خوفاً من عقاب.

• جبر الخاطر في مقابل كسر الخاطر

حين يصبح الجو العام الذي يسود أي مجتمع من المجتمعات، هو جو الكفاح والحرص على الحصول على ما يشبع الحاجات، وكل ما من شأنه أن يجعله متقدماً، فإن الروح العامة لهذا المجتمع تتضح من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تسودها المنفعة المتبادلة بحكمة وموضوعية، وثقة وطيب خاطر.

وجبر الخاطر هنا معناه أن الإنسان يحتاج في تعامله مع الآخرين إلى ضرب من ضروب الوصال، الذي يجعله يتعامل وهو آمن مطمئن إلى أن هناك قدراً.

(*) انتشرت القضية الإدارية التهكمية الآتية: من يعمل كثيراً يخطئ كثيراً فيعاقب، ومن لا يعمل لا يخطئ والكافاء له.

مشاركاً من التفاهم والتفاعل والتعاون، ومن هنا كان «لجبر الخاطر» دلالة أخلاقية(*) . أما ما نعتيه من استخدامنا لمصطلح «كسر الخاطر»، هو تلك النظرة السلبية إلى الغير حيث يتجه الإنسان الذي يميل إلى «كسر خاظر» الآخر عن طريق الامتناع عن تقديم المعونة وقت الحاجة إليها، أو عن شعوره السلبى نحو زميله، عندما يلتجئ إليه، طالباً مكرمة، وهو يرى عندما قرر الالتجاء إليه أنه فى استطاعته أن يقدمها له فوراً.. ولكنه يتقاعس، ويتكاسل فتخبو جذوة الصديق... وتهون عليه الأمور وتضيق أمامه السبل، ويشعر بانكسار داخلى... والم دفين!!

وكثيراً ما نجد هذا الإنسان المشوه فى عواطفه (إذا صح هذا التعبير) والقاسى فى تصرفه، يميل إلى إلحاق الضرر بالغير، أكثر مما يميل إلى تأكيد ذاته من خلال تفاعله مع الآخرين بمودة وحسن معاشرة، بعيداً عن عوامل الحقد والحسد والاحتقار. وكثيراً ما نجد هذا الإحساس بانكسار الخاطر، من خلال استعراضنا لبعض فئات المجتمع الذى نعيش فيه؛ لنوضح كيف أن «كسر الخاطر» يتم عندما لا يشعر الإنسان بأخيه الإنسان، ويفر المرء من أمه وأبيه، ويبحث لنفسه فقط عن كل ما من شأن أن يحقق مصلحته الشخصية.

ويتجلى الشعور بكسر الخاطر عندما نرى:

* الفلاحين يشعرون بأن مجتمع المدينة هو المجتمع، الذى يحظى بالخير كل الخير، وأن مجتمع الريف لا يملك إلا أن يبعث بخيراته إلى ذلك المجتمع المتقدم، أما أصحاب المجتمع الريفى فهم أولئك الذين ينتظرون أهل المدينة... ويا حبذا لو كان مجيئهم مدعماً بكل ما تقدمه المدينة من معطيات حسية، لها مذاقها الخلو المتحضر(**). وبطبيعة الحال... فإن مثل

(*) كثيراً ما نسمع المرشد والمصلح يقدم نصيحته، من خلال استخدام «جبر الخواطر على الله»، وكثيراً ما نسمع دعوة الأم الحانية لابنها، وهو ذاعب إلى أمر يقضيه «ربنا يجبر بخاطرنا».

(**) كثيراً ما نسمع عن وصايا بعض أهل الريف لكل قريب ينزل إلى المدينة؛ ليحضر لهم وهو عائد بالسلامة «الحلاوة الطحينية» وحلاوة الولد - بل وعليه أمانة إحضار بعض أرغفة الخبز الإفرنجى!!

هذا الشعور، وهذا الانتظار الشغوف لأهل المدينة قد جعل كسر الخاطر من الأمور الواردة بالنسبة إليهم؛ خاصة إذا وضعنا في الاعتبار ذلك الشعور، وهذا الانتظار المتكبر عند البعض من أهل المدينة، والذي يجعلهم يرفعون على أهل القرية ويعلنون عن غطرستهم، من خلال محاولة تجنيبهم، أو التهكم والسخرية منهم، إما من خلال النكات البذيئة التي تصفهم في أغلب الأحوال على أنهم في مستوى أدنى منهم لقلّة حيلتهم أو عدم كفاءتهم، أو لأنهم يرون من خلال الإطار الحضارى، الذى يلف بأسواره جوانب المدينة أن عقولهم في مستوى أعلى من عقول هؤلاء القرويين!!

* ويتجلى كسر الخاطر بالنسبة لطبقة العمال، فعلى الرغم من أنهم قد حصلوا على حقوقهم، وتحسنت أحوالهم.. إلا أننا نجد أن النظرة إليهم لم تعد هي نظرة «جبر الخاطر»، بقدر ما أصبحت هي نظرة كسر الخاطر؛ فمهما كسب العامل أو نشط.. فإن هناك ضرباً من ضرورب الحساسية، التي تجعل نظرة البعض من ذوى الياقات البيضاء ينظرون إلى هذه الطبقة نظرة ملؤها التقليل من شأنهم، أو التهكم عليهم؛ الأمر الذى جعل المغالاة فى أجورهم، أو التندر عليهم عندما يحتاج ذور الياقات البيضاء إلى خدماتهم، وكأنهم يقولون لهم: «إن بيننا وبينكم هدنة مؤقتة لاستئناف الحرب فى أى لحظة من اللحظات»!!

وبطبيعة الحال.. فإن مثل هذا الإحساس بالدونية، هو السر وراء غلاء تقديراتهم إذا عملوا عملاً، أو عندما يصطدم بهم شخص؛ خاصة من المتعلمين، أو بلغة الرمز من ذوى الياقات البيضاء.. فلأننا نجدهم تحت وطأة هذا الإحساس يتخبطون فى معاملاتهم، ويسترون بغلالة المكاسب المادية، تلك التي تجعلهم أمام مرحلة التقويم للمادى فى موقع مرموق؛ خاصة إذا قورنوا بما يدخل على ذوى الياقات البيضاء من عوائد وفوائد وماديات، فى شكل رواتبهم النحيلة أمام تضخم رواتب العمال، ومهما كانت وظائفهم مرموقة.

* أما الطلبة.. فإن كسر الخاطر يتجلى فى ما يحيط بهم من أنظمة مضحكة،

سواء كانت فى شكل مناهج ومقررات دراسية، أو ما يحيط بهم من مظم إدارية، تراقبهم بحذر وتربص، تمنعهم عندما يعبرون، وتؤيدهم عندما لا يفهمون بوعى وأصالة أمورهم ومشكلاتهم؛ فالنجاح يعتمد على الدروس الخصوصية، والذي يملك المال يستطيع أن يستأجر المدرسة ويحولها إلى منزله... فى شكل هذه الفضيحة الجديدة التى يعانى منها نظام التعليم، وهى فضيحة انتشار الدروس الخصوصية بهذا الشكل التعسفى الضاغط؛ مما يجعل بعض الطلاب غير القادرين يشعرون بصراع نفسى مؤداه:

* إننى أريد أن أحسن موقفى، وأعمل على زيادة كفاءتى، ولكن تمنعنى المادة وقلة المال من ذلك... إذا لايمكن أن أشعر بأن خاطرى مجبور، وتكون أننى لهذا العور الذى أعانيه أفقد مستقبلى شكلاً ومضموناً، فى الوقت الذى فيه ينعم القادرون بالنجاح، ويتمتعون بشراء «نعم بعض المدرسين»، ويستأنسون بالمال ضراوتهم وقسوتهم، ويحصلون من خلال هذه الدروس على الدرجات، دون فهم أو تحصيل(*) أو حتى انتظام فى العمل المدرسى، فلماذا أنتظم وقد انتقلت المدرسة برمتها إلى بيتى!!

* وجاء دور المثقفين ذلك الذى جعل الداء مستفحلاً، وساعد بفضل مناشطهم الزائفة على انتشار (كسر الخاطر)؛ فهم أصحاب الذكاء وغيرهم ممن سواهم أغبياء، وهم أصحاب التمييز من خلال معارفهم وعلومهم ودرايتهم بالأمور «والبروتوكولات»، ومثل هذه الأنشطة التى يقومون بها يغلب عليها الطابع النظرى، أو اللغو اللفظى الفارع، ومن هنا فإن «كسر الخاطر» بالنسبة لهم لايعنى شيئاً؛ فلغة الوجدان اليوم بالنسبة للمثقفين، لم تعد هى اللغة السليمة، بل ضاعت فى رحمة لغة المنطق المادى والتكنولوجى، بما فيه من

(*) لقد أصبحت الشكوى الآن فى كل بيت (فيه تلاميذ) أو طلاب صارخة لهذا الانتشار العجيب لهذه الدروس، إلى درجة أن هناك من التلاميذ والطلاب من يستأجرون الأساتذة من إجازة الصيف؛ حرصاً على المجموع «خاصة فى الشهادات»، مما يجعل غير القادر يشعر بكسر الخاطر.

تقدم حضارى، يجعل غيرهم من الفلاحين والعمال والطلاب وكل الفئات الأخرى يشعرون بغضاضة، تدفعهم إلى الكره والحقد والجمود(*)).

• والعشم، فى مقابل الجفاء،

عندما يشعر الإنسان بأن الأفراد الذين يتعامل معهم سيئون فهمه، وأنهم لا يقدرونه وأن العالم ضده، فإن هذا الإنسان يشكو من الجفاء فى المعاملة، فلا يملك إلا أن يفكر فى الماضى ويتأمل ما فات من أحداث، ويستمر اجتراره للخبرات الماضية، فيقرر لها ليخلق من هذا الإفراز شرنقة، تحجبه عن الممارسة الحقيقية للحياة وأداء الأدوار السليمة؛ اعتماداً على هذا الجفاء الذى يسود مناخ العلاقات ويخيم عليها.

وإذا وجدنا فى الحياة التى نحياها أن «العشم» قد قل، وأن الجفاء أصبح هو السلوك السائد.. فإن شبكة العلاقات الإنسانية تهتك وتنقطع، ويصبح كل فرد لا يرى سوى مصالحه، ولا يسعى إلا لإحجارها فقط؛ الأمر الذى يجعلنا نحدد ما الذى نقصده «بالعشم».

«العشم» فى دراستنا هو ذلك الإحساس الوجدانى، الذى يترجم من خلال سلوك الأفراد على أرضية من المودة والمحبة الخالصة، يلعب فيه الإيثار دوراً مهماً، وتتضاءل أمامه كل عوامل الانانية والآثرة.

وجدير بالذكر أن هذا الإحساس الإنسانى القويم يتجلى من خلال ما نشده عند القليل من أهل «العشم»(**)؛ حيث نرى التعاون بين الناس - والحرص على الجيران، وإغاثة الملهوف، من خلال المساعدة الفورية المبنية على الشهامة والأريحية.. فالجيران يقدمون للأسرة المجاورة المساعدة عند وقوع حالة وفاة، وعند إنشاء مسكن... وعند حالات المرض، وفى إعداد جهاز العروس... كما

(*) يلاحظ مدى انتشار النكات السخيفة والبذيئة على بعض (قات)؛ بقصد إعلان هذا الاستعلاء المرضى من قبل بعض المثقفين.

(**) نستخدم هذا التعبير ونحن نؤمن أن الدنيا مارالت بخير، وأن عوامل الشر وما يتعلق بها من ماديات مهما ارتفعت بطريق الخطأ.. فإن الخير سوف يعمل على إسقاطها من سماء الرفعة والسمو.

يعبر بعضهم البعض شتى الأشياء، ابتداءً من النقود حتى أدوات المنزل، والمواد الغذائية..

وتتجلى هذه الصور فى مجتمعات القرية، فنجد أن جماعة الجوار فى بعض الأحيان تنظم عملية إعداد الخبز؛ بحيث لا تحتاج كل أسرة إلى إشعال فرنها فى كل مرة تحتاج فيها إلى إعداد شىء(*).

ويلاحظ الآن أن التطور الذى أصاب صور التعاون بين جماعات الجوار، قد بدأ يتغير، ولم يعد هناك - اعتماداً على الجفاء - تلك الرابطة الشخصية الوثيقة التى كانت تؤلف بين جماعة الجوار فى الماضى. وإن كانت لارالت موجودة بدرجة طفيفة بين جماعة الجوار فى بعض الأحياء الشعبية فى المدن الكبرى، أما فى الريف.. فإن هذه الظاهرة موجودة بدرجة حتى الآن، وإن كنا نسمع أيضاً شكاوى بعض كبار السن من أن الناس قد أصبحت هذه الأيام «قليلة الخير» شديدة الحرص على المادة، تفكر ألف مرة، قبل أن تمد يد المعونة إلى الجار أو المحتاج!!

ومن هنا تتدخل بعض العوامل؛ لكى تحدث هذا الجفاء، الذى على هيكله تذبج النفوس المحتاجة، وتهان الأفئدة المتطلعة إلى روح التفاعل والوصال.

* يتطلع الإنسان دائماً إلى أصحاب السلطة الذين يحققون له منفعة فيهم بمطالبهم ويسمى إليهم، بل ويضحى من أجل رضاهم، ويتمسح فيهم حتى يحقق مآربه(**). . . بل وقد يعانى - إذا كان لديه شعور - من تحقيرهم له وتحكمهم فيه. . . ومن هنا يكون الجفاء بالنسبة للمحتاج، والوصال لمن لا يحتاج.

(*) أراجع إلى: الدكتور سيد صبحى: المفهومية: دراسة سيكولوجية من خلال الأمثال الشعبية المصرية، دار التقدم، ١٩٧٨، ص ٢٦.

(**) فى أمثالنا الشعبية مثلاً يؤكد ذلك: «طلب الغنى شقة». كسر الفقير زيره». ويقول أيضاً: «إذا لغيت الفقير يجزى». يبقى يبقضى حاجة للغنى».

* فقدان الأمان يجعل الجفاء أسلوبًا من أساليب المعاملة . . فعندما يفقد الإنسان إحساسه بالأمن والأمان في عمله وعلى نفسه، فلا يملك إلا أن يدارى مرة ويراثى مرات، وهذه الرذيلة يستخدمها بعض الناس وسيلة للنجاح في الحياة، وهي قد تبدو طريقة وذريعة نافعة عند البعض، بل وهناك فعلاً من نجحوا في استخدام «الزيارات - وتقديم الهدايا والقرايين - والتمسح و«التمحك» في أعتاب ذوى النفوذ» . . فما كان منهم إلا أن ساعدوهم؛ اعتمادًا على خفة ظلمهم ومرونتهم، بل وذكائهم الاجتماعي «هكذا يسمونهم»، على أن يرتقوا ويحصلوا على كل ما يتطلعون إليه، دون النظر إلى الكفاءة الحقيقية أو القدرات الأصيلة . . . أما ذوو الكفاءات العالية، فهم ثقل الظل؛ لأنهم لا يعرفون من أين تؤكل الكتف!!

وبطبيعة الحال . . فإن هذا السلوك غير السوى هو الذى أسهم الآن فى ضياع «العشم»، كوجدان أصيل يتشرب القيم الرفيعة، ويرتوى بها ويعمل على هداها؛ لأن الذى يرضى أن يبيع نفسه عمداً ليشتري قوتاً يعيش به أو وظيفة يفخر بها، لا يمكن أن يكون إنساناً يمثل ما يتوقعه الله منه من خلق وفضيلة، ولا يكون حافظاً للصورة التى خلقه الله عليها صورة الحرية، والإرادة والوصال الوجدانى بينه وبين الآخر . . . فالرياء سبب الجفاء، وهو مرض من أمراض النفس . . ذلك المرض إذا لم ننتبه إليه تتضاعف أعراضه شيئاً فشيئاً، حتى تموت فى النفس البشرية خاصية الأريحية، وتضيع منها نخوة القيم، وما تدعو إليه من مبادئ وأخلاق وأصول.

* الخوف من الفقر والعوز يشكل الجفاء؛ على اعتبار أن هذا الإحساس يتكون عند البعض، من خلال عملية التطبيع الاجتماعى . . . تلك العملية التى تتشكل من خلالها شخصية الإنسان الفرد، ويتزود بالقيم والاتجاهات ومعانى الخطأ والصواب، ومن هنا نجد أن بعض الأسر تحاول أن تجعل علاقات أبنائها تشابه تلك العلاقات، التى كانت بين الفرد وحاكمه إبان عهود الاستبداد . . . فيها أسلوب الشك وفقدان الثقة - فيها القوة الغاشمة

التي تسلبه حقه في المعيشة الحرة التي يندى فيها رأيه . . . والحياة الكريمة التي تمكنه من تعود العطاء.

ولعل السبب في ارتباط البعض بأسرهم بصورة غير سوية (تظهر عند سفرهم إلى الخارج)، وتظهر من خلال الخوف الشديد الذي يملك هؤلاء البعض؛ لأنهم خرجوا مرة واحدة إلى العالم شأنهم شأن الطائر الذي خرج إلى الفضاء، دون أن يتمرس على الطيران!! هذا الاستلاب للشخصية قد جعل «العشم» يقل، ويحل محله الجفاء بضراوته وغضبه، ويصبح الجفاء خصلة من خصال النفس المريضة، وأن الإنسان الذي يعامل الآخر بجفاء . . . فإنه يزرع بذور الضغينة ويقطع بينه وبين الآخر حبال المودة والتفاعل والمحبة.

والملاحظ أن سلوك «العشم» الذي نتطلع إليه يحتاج إلى تدريب وتخطيط؛ لكي يقوم بين الأفراد قدر مشترك من المحبة والألفة، بدلاً من أن تصير العلاقات علاقات مشاحنة، يأكل فيها الصغير الكبير لقلّة أدبه، ويبطش الكبير بالصغير لعدم مروءته وفظاظته!!

• «الدردحة» هي مقابل «العشم»:

وفي سبيل الحصول على الرضا، نواجه المواقف ونختار في بعضها لصعوبتها وغموضها ونفهم البعض الآخر، وما نختار فيه إما أن يكون غريباً علينا، أو يمثل قيمة جديدة، أو يعلو على قدراتنا «هذا إذا كنا على درجة كبيرة من الموضوعية في تقويمنا للأمور».

أما عندما يتحول الإنسان إلى شخصية، يغلب عليها الادعاء في تصرفاتها وتصنع الحكمة وعلو الهمة، فإن هذا التصرفات السيكوباتية يطلق عليها دون فهم للأمور «تصرفات مدردحة»، والمقصود هنا أن الشخصية المدردحة هي تلك التي تستطيع أن تتصرف بفهلوة وذكاء وحسن تصرف . . . «أليس «الفهلوى» هو الذي يستطيع أن يخالط الجن الأحمر، ويعايش في الوقت نفسه ملائكة السماء

والأرض، دون أن يجد في ذلك غضاضة، أو دون أن يتطلب هذا منه جهداً جهيداً؟» (٥).

ويتميز الشخص «المدرج» الذي يشعر بهذا الرضا المزيف بقدرته على التكيف السريع، اعتماداً على مرونته وفطنته وقابليته للهضم والتمثل للجديد، فنراه عليمًا بكل شيء «هكذا يدعى»، ومسايرًا للأمور بسطحية لكي يغطي الموقف، ولا يرتبط ارتباطاً حقيقياً بما يقوله أو بما يلتزم به من تصرفات، كان قد أخذ على نفسه عهداً بتنفيذها.. وهذه الشخصية التي يميل إليها الآن معظم الشباب لاتتحمل المسؤولية، ومن هنا - واعتماداً على الثقة الزائدة لدى هذه الشخصية دون أن تعتمد هذه الثقة على أصالة أو قدرات حقيقية - فإننا لمجدها تعامل الأمور باستهتار، وتهكم على الغير أحياناً. وفي ادعاء القدرة البارعة على حل الأمور فوراً، وكذلك في القدرة على التخلص من المآرق، كما تخرج الشعرة من العجين!!

والغريب في أمر هذه الشخصية «المدرجة» - أنها تنال إعجاب الكثيرين، بل وهناك من يضرب بها المثل، عندما تظهر المشكلة التي تحتاج إلى حل رصين وفكر واع بحيث لا يقوى عليها هذا «المدرج»، ولكنهم لفرط إعجابهم بسرعته وحيله المزيفة يتذكرونه في كل المواقف، وهم في حيرة إذا صعب الحصول عليه، أو في لهفة التشوق إلى سماع رأيه السديد، عندما يأتي ومعه الحلول الواهية المعتمدة على المسكنات الموضوعية في شكل التزييف والوصولية!!

أما الشخصية «الغشيمة» فهي تلك التي لا تتميز في نظر المعجيين بسلوك الدردحة أو المرونة وخفة الظل، وإنما تميل إلى تصعيب الأمور من خلال التدقيق والتمحيص، وأنها لا تتسرع في الحكم، وتتحكم القيم في كل تصرفاتها وأفعالها؛ مما يجعلها في موقف جامد أمام أولئك الذين يتطلعون فقط إلى

(٥) حامد عمارة: في بناء البشر - مطبوعات مركز تنمية المجتمع - ١٩٦٠ - ص ٨٤.

سلوك الدردحة وتشهيل الأمور؛ حتى ولو كان ذلك التشهيل على حساب القيم والأصول المعرفية السليمة.

وبطبيعة الحال وتحت وطأة هذا التمييز العجيب بين «المدرح» و «الغشيم»، يشعر الشخص الذى اتهم هذه التهمة - تهمة الغشم - بأنه غريب عن نفسه، وغريب عن الآخرين وأن أطواره وتصرفاته غريبة هي الأخرى... فيشعر بالإحباط، ويخسر المعارك من خلال مروره ببعض المواقف، التى تقابله فى حياته الاجتماعية، فهو لا يعرف الرقص بأنواعه من «تالنجو وديسكو وفالس»، ولا يعرف ألعاب القمار، ولا التصرفات الشاذة، ولم يحتس الخمر فى حياته، ولن يحتسبها لإيمانه(*)، ولا يوافق مهما كانت الظروف والأحوال أن يخرج على هذه المبادئ... كل هذه المواقف قد تجد بعض الاستحسان من جماعة المدرحين ومن على شاكلتهم، ولا تمثل قيمة عند «الغشيم». ومن هنا كان على هذا «الغشيم» أن يتمسك بولائه لقيمه وإيمانه بها، وأن يسعى مهما جلبته عوامل «الدردحة» إلى ما يجعل هذا الولاء للقيم على أعلى درجة من الفهم والوعى والتمسك الموضوعى بها.

فالولاء هو الأمر الوحيد، الذى يخلع معنى على كل جوانب حياتنا، وهو بمثابة الإخلاص، الذى ينبغى أن نحيا من أجله فهو الذى يعطى السبب الكافى لتبرير الحياة التى نحياها؛ لأنه يخلع على كل تصرف قيمة معينة نابعة من الإيمان العميق بمبادئ الدين... تلك المبادئ التى يراها أهل «الدردحة» تقف حجر عثرة بينهم وبين إشباعاتهم الحسية الغريزية.

فإذا كان «الغشم» يعنى التمسك بالقيم، والدردحة هي سلوك السرعة واللهفة والتفريط فى القيم... فإن الرضا يجد طريقه مع الغشم، أكثر مما يجده مع سلوك الدردحة بما فيه من ريف وخداع وسرعة ولهفة.

(*) انتشار الحبوب المخدرة أو التى تؤدى إلى الهلوسة خير دليل على انتشار سلوك الدردحة المزيف بين بعض الشباب.

خامسًا، الحب وبهجة الحياة،

يستشعر الإنسان ضربًا من الراحة النفسية يصاحبها ذلك الشعور الجميل، الذي يحسه الإنسان الفرد، عندما تقوم حياته العضوية بوظيفتها السوية، هذه الراحة تأتي من سلامة التعامل مع الجزئيات ودقة التفاعل مع مكونات الجسم، وصفاء النفس التي تحرك سائر الأعضاء في هدوء وراحة ووثام.

والحب يمثل قمة الانفعالات البشرية، التي يمر بها الإنسان لما يحتويه من شحنات وجدانية تنطوي على خبرات ومواقف وأحاسيس تواكبها انفعالات هي مزيج من الغبطة والسرور والسعادة. ولكن هذه التجربة الشاقة المجتهدة تستلزم بالضرورة هذا السياج المتين، الذي نتطلع إليه عندما نتكلم عن الحب، وما يصاحبه من انفعالات؛ وأعني بهذا السياج المتين «الوفاء»، فمشكلة الحب أن المحب يضع كل ثقته في المحبوب... ويتنظر حصاد هذه الثقة، من خلال الوفاء الذي يعنى الاستمرار ويعبر عن الالتزام والثبات على المبدأ.

وما أقسى أن يستشعر الإنسان - من الناحية النفسية - في لحظة أنه كان مخدوعًا، أو أنه قد وقع ضحية لضرب من الخيانة أو عدم الوفاء، وليس أقسى على النفس البشرية من أن تتحقق يومًا من أن كل الآمال التي نسجتها ورعتها في أرض الحب قد ذهبت، ولم تؤت بثمارها المتوقعة... وأن كل ما قد عايشته من أحاسيس لا يعدو أن يكون مجرد أوهام، قد كشفت الحقيقة المرة عن ريفها، وأظهرت خداعها!!

هكذا... لابد للحب كتجربة بشرية نفسية تعبر عن رقي الإنسان، من أن تقتزن (بالإيثار) بوصفه يحول الأثنية إلى عطاء، ويبدل الجفاء إلى تعاون ووصال؛ لأن الحب الحقيقي يفسح دائمًا للآخر مكانًا كبيرًا في أعماق نفسه، بل يضع الآخر بوعى وفهم تحت تصرفه فيتفانى في تقديم الخدمات، ويقدم مخلصًا كل مامن شأنه أن يسعد المحبوب بتلقائية معبرة عن التفاني والثقة والوفاء والإيمان والإخلاص والتفاعل والتعاون.

وإذا كانت هذه التجربة الفريدة، التي لا بد وأن يستشعر بهجتها الإنسان الفرد تحتاج منا إلى أن نعبر عن إنسانيتنا، من خلال معانى التضحية والوفاء والمودة والرحمة... فإنها فى حاجة إلى أن نبرز عناصرها؛ لكي نوضح ضرورتها وأهميتها بالنسبة للإنسان فى رحمة هذه الحياة المادية، التي ضغطت علينا بقسوتها وضراوتها فأبعدتنا إلى حين عن هذا الشعور المبهج، الذي يدفع إلى الأمل ويؤدى إلى السعادة.

• الحب والعدالة:

يمثل الحب والعدالة قيمتين وفضيلتين تمثلان بدورهما موقفين أخلاقيين، يتخذهما الإنسان نحو أشباهه من الناس، فإذا كان الحب يسعى إلى تحقيق الوصال بين الإنسان والآخر... فإن العدالة بدورها تهتم بحقوق الآخر ومطالبه المشروعة - وهنا يكون اللقاء الحميم بين الحب والعدالة؛ فالحب لا يعرف الظلم، ولا يعرف القسوة، ولا يعرف إضاعة الحقوق تمامًا، كما لا تعرف العدالة إلا كل مامن شأنه أن يحقق للإنسان سعادته، وفق المشروعية والالتزام بالقيم والأعراف والقوانين... الحب كتجربة بشرية لا يطلب سوى ذلك التفاهم الواعى والتفاعل الرشيد؛ حتى لا تصطدم الحقوق ولا تختفى الواجبات - فإذا عرف كل إنسان ما له وما عليه تجاه الآخر ساد الحب وسادت المودة، وشعر كل إنسان بقيمة الحياة وسعادتها.

وعندما يقترن الحب بالعدالة... فإن هذا الاقتران مؤداه:

إننى أتجه إلى الآخر بوعى واختيار رصين، فأصبح حق الآخر أن يعامل بعدالة وحقوق التزامات وواجبات... ولعل ذلك ما يجعلنا نؤكد أن الشفقة هنا مرفوضة... فالعدالة تعطى الحقوق، والشفقة قد تطمس الحقوق ولا تجعلها براءة لامة.

الحب لا يعرف إلا العدل... والعدل لا يمكن أن يسود بين الإنسان والآخر، إلا فى حضرة النفوس الصافية المحبة للمخلصة، التي تعبر عن سلوكيات سوية وتصرفات أخلاقية، مشبعة بالقيم السامية الرفيعة.

• الحب طاقة وإنتاج:

من الخطأ أن نتصور الحب مجرد عاطفة، تدفع أصحابها إلى الشرود والسرхан؛ لأن الحب الحقيقي لا بد وأن يدفع أصحابه إلى العمل والإنتاج، فالحب له من القوة ما يسمح للمحبين في بعض اللحظات من أن يحققوا من الأفعال، ما لا طاقة لغير ذوي الإرادة القوية بتحقيقه(*).

وتصبح العلامة المميزة لنجاح هذه التجربة السامية بين أفراد البشر هي مدى ما تحققه من إنتاج وإنجاز؛ لأن الحب الأصيل يحشد كل مالى الفرد من طاقات ويعبئها في خدمة محبوبه.

وجدير بالذكر أن هذه التجربة السامية العميقة، لا تعرف الانانية أو إضاعة الوقت أو إخضاع الغير، أو الرغبة في الامتلاك... فكل هذه المظاهر تعبر عن المرض النفسى، الذى لا يرمز إلى المودة أو يؤدي إلى إيجابية العلاقات الإنسانية.

• الحب وإرادة الفعل:

وجدير بالذكر أن هذه التجربة العظيمة المعبرة عن كيان الإنسان تحتاج إلى توظيف الإرادة الخيرة، والنية الطيبة؛ فالحب لا يعرف الشر، ولا يسعى إلا لتحقيق السعادة، إذا كان مبنياً على أصول ومودة واحترام وإخلاص وتضحية وإيثار. ومن هنا فإن العلاقة الودودة بين الإنسان والآخر، لا بد وأن يسودها الحب من خلال العمل المتبادل، الذى ينطلق من الخير ويعمل على تحقيق السعادة والرفاهية للآخرين.

فالحب لا يوجد إلا بقدر العمل المخلص المتبادل بين الحبيب ومحبوبه، ولا بد وأن يكون هذا العمل نابعاً من قلوب متأثرة متماسكة متعاونة. الحب فى هذه الحالة يعمل على تدعيم القيم البشرية ويقوى الرابطة الوثيقة، التى ينبغى أن تكون بين الإنسان وأخيه الإنسان.

(*) كثير من أولئك الذين قدموا أعظم أعمالهم فى مناخ من الحب والوصول الوجدانى.. فكانت تجاربهم بمثابة طاقات متجهة وفعالة؛ فالحب بالنسبة إليهم إضافة جديدة، دفعتهم إلى العمل.

• الحب والشعور بالألم،

وإذا كنا قد عرضنا بإيجاز لهذه التجربة النفسية العميقة، التي يستشعرها الإنسان.. فإن هذا الشعور وما يصاحبه من سرور وبهجة قد نجده لا يخلو في بعض اللحظات من آلام، بل ولعل هذه الآلام ومرارتها تعطي طعمًا حلواً، يضيف على العلاقة قيمة من شأنها أن تقويها إذا كانت مخلصه، فكثيراً ما تذرف الدموع لتصاحبها راحة نفسية.. ولعل هذه هي البهجة الحقيقية في أمر هذه التجربة الفريدة السامية؛ فالألم الذي قد يظهر على المسرح، إنما يعبر عن ذلك الشعور القياض، أو يوضح تلك الأحاسيس الصافية لقلوب راقية نابضة بالحياة. وإذا كنا لاننكر قيمة الخبرات السارة في حياة الإنسان ودورها في تعميق إحساسه بالحياة.. إلا أننا لا نستطيع أن نغفل هذا الدور، الذي تؤديه مشاعر الألم، التي قد تظهر كسحابة مشبعة بقطرات المياه الباردة في ليلة عاصفة!!

والحق يقال:

إن تناول هذه التجربة النفسية العميقة يحتاج منا أن نقول حقيقة مهمة مؤداها: أن الانفعالات المصاحبة لتجربة الحب تحتاج إلى تغليب حياة العقل والنظام على حياة العاطفة، التي قد تخرج على السائد المألوف.. أو تبتعد عن الإطار، الذي يجعل من الحب دافعاً للإنتاج والإنجاز والعمل الصالح.

◆ البعد الديني والصحة النفسية

• القرآن الكريم مصدر للصحة النفسية

• الشخصية السوية من وجهة نظر القرآن الكريم

القرآن الكريم مصدر للصحة النفسية،

قد يكون من نافلة القول

إن علماء النفس حينما يتناولون الشخصية الإنسانية بالدراسة . . فإنهم غالبًا ما ينظرون إلى الموجود البشرى نظرة شمولية؛ بمعنى أن الفرد الإنسانى يعمل ويستجيب ويتفاعل بطريقة، تجعل كل أجهزته البدنية والنفسية تتأزر وتتناغم فى تفاعلاتها معًا؛ بحيث تحدد سلوكه وتشكل استجاباته، بطريقة قد تجعل كل فرد يتميز بها عن سائر الافراد من بنى البشر.

ولقد تناول القرآن الكريم أبعاد الشخصية السوية وغير السوية، بل وتناول مجموعة من العوامل المكونة لكل من السواء وعدم السواء فى الشخصية؛ ولكى نحاول أن نفهم شخصية الإنسان من خلال الوصف القرآنى الكريم، ونقف على الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية. . فلا بد لنا من أن نحدد قضية أساسية تتعلق بمنهجية الرؤية إلى الإنسان، وأن القرآن الكريم فى وصفه للإنسان من حيث أبعاده التى تميز شخصيته، قد وضع منهجًا فريدًا ينطبق فى كل زمان ومكان، بما يحتويه من أسس ومبادئ، تتضح فى العناصر الآتية:

أولاً، شمولية النظرة إلى الإنسان

يعالج القرآن الكريم موضوع شخصية الإنسان بطريقة شمولية؛ بحيث لا يترك منه شيئًا ولا يغفل عن شيء (جسم - عقل - وروح حياته المعاشية، وتصورات، وقيمه، ومعنوياته، وكل نشاطه وحركته وتفاعله مع الإنسان الآخر وكل ما يحيطه من المعطيات الحسية).

وجدير بالذكر أن الوصف القرآنى الكريم للإنسان لم يقتصر على تكامل

النظرة إلى الإنسان، وإنما يحذر أولئك الذين يتصورون وهمًا أن مذاهبهم أو نظرياتهم، التي تناولت الإنسان من الممكن تصوره جسمًا بلا عقل أو روحًا بلا جسم أو عقلًا بلا روح... ثم يوهمون أنفسهم بأن هذا التناول الجزئي للإنسان يجعل تصوراتهم علمية دقيقة، أو يجعلهم يدعون ادعاءاتهم المضللة بأن هذا التناول الجزئي للإنسان بالدراسة، يجعل عوامل الضبط والتحكم في أمور الإنسان أكثر دقة وأكثر منهجية.

والرد على هؤلاء:

أن حياة الإنسان المادية لا تنفصل عن حياته العقلية وحياته الزوجية ومشاعره ومعنوياته وتبلور حقيقة الكيان الإنساني، من خلال هذا التفاعل بين هذه العوامل السابقة؛ فالكيان الإنساني كيان مرن متحرك لا يجمد على صورة، فهو في حركة مستمرة لا تهدأ، ولكن هذه الحركة والقابلية للتشكل المستمر لا تفقده ترابطه وتأزره وانسجامه.

ومن هنا لا بد وأن نرفض كل اتجاه أو عقيدة أو نظام يرى أنه ليس ثمة روح للإنسان أو قيم أو دين، وأن الواقع المادى والمعطيات الحسية هي الحقيقة الوحيدة، أو كما يتشدقون بشعاراتهم الزائفة (حقيقة العالم تنحصر في ماديته) (العالم تحركه المادية الجدلية)، (الإنتاج المادى والتنظيم الاقتصادى هو أساس الحياة البشرية)، (الإنسان غريزة ورغبة لا بد وأن تشبع)، وهذه النظرة الجزئية تتعامل مع الإنسان من خلال زاوية ضيقة، تفقده تكامله وتعمل على احتقاره وتؤدى إلى هلاكه.

ثانيًا: طاقات الإنسان تجعله قوة فاعلة وموجهة:

هذا التكامل فى وصف الشخصية (والذى ورد فى القرآن الكريم) قد جعل الإنسان يمزج بين طاقاته كلها، ويعمل على ربطها بحيث تجعل الوجود البشرى بمثابة طاقة متسقة فعالة... فالإنسان كما يريد الله سبحانه وتعالى قوة فاعلة موجهة ومريدة وهو قوة دافعة إلى الامام... قوة تسيطر على القوة المادية،

وتحاول بقدر مجاهدتها لهذه القوى المادية أن تهذبها وتصلحها، وتوظفها في التعمير والبناء.

بحث القرآن الكريم الإنسان على توظيف طاقاته كلها، ويعمل على ربطها بحيث تجعله طاقة منتجة فعالة.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

[الجاثية: ١٣]

والتأمل العميق للآية الكريمة سوف يجد أن الله سبحانه وتعالى قد وهب الإنسان مجموعة من القدرات، يفيد عن طريقها، ومن خلال توظيفه لهذه القدرات يرقى بنفسه ومن حوله وفق منهج، ونظام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وتوجهه ذاته الوجهة السليمة، ويتضح هذا الوصف، من خلال الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

[آل عمران: ١١٠]

ثالثاً: الابتعاد عن الخصال التي تجعل الإنسان سلبياً ومتخاذلاً

يحذر القرآن الكريم الإنسان من أن يتصف بالسلوك المتخاذل، الذي يجعله ضعيفاً أمام رغباته سلبياً أمام مواجهة دوافعه الغريزية وشهواته المادية، ويصف الله سبحانه وتعالى ضعف الإنسان وتخاذله أمام هذه المغريات، في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ ﴾.

[آل عمران: ١٤]

رابعاً: الإنسان يتصرف في حدود قدراته، ويتطلع إلى المثل الأعلى،

يصف القرآن الكريم الشخصية السوية في آياته الكريمة، على أساس أنها تعرف حدود طاقاتها وتعرف مطالبها وضرورة إشباعها؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

[البقرة: ٢٨٦]

ولا يحمل الله سبحانه وتعالى الإنسان ما لا يستطيع تحمله أو لا يستطيع الوفاء به، بل يعامل الإنسان معاملة حانية؛ فهو الخالق وهو القادر وهو رب العرش العظيم، فيقول جل جلاله:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾

[النساء: ٢٨]

فالله سبحانه وتعالى يجعل المسؤوليات في حدود طاقة الإنسان، ويبعد عنه كل ما من شأنه أن ينوء بكاهله ويعجز عن أدائه:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾

[الحج: ٧٨]

ومن هنا يكون التكليف في حدود الطاقة الممكنة، دون أن يترك الإنسان لتصوراته الواهمة التي قد تخدعه وتهبط بمستواه إلى الدرجة، التي تجعله يقلل من شأنه، أو يقع في الخطأ عندما يدعى ما ليس عنده.

والإنسان - كما خلقه الله - لديه الاستعداد الدائم لكي يرتفع عن المعطيات الحسية، وأن يتفوق على نفسه بحيث يتخطى الواقع المادى ليبلغ بفضل مجاهدته لشهواته كل ما يتمنى من منارل الأبرار والصالحين. . وهكذا كان ولا يزال تصور القرآن الكريم للشخصية. . ذلك الذي لم يبلغ جانباً واحداً من جوانب الشخصية

عكس علماء النفس المحدثين، الذين ادعوا أنهم يستخدمون فى دراساتهم وبحوثهم المنهج التجريبي... ذلك المنهج الذى منعهم من أن يتناولوا الجانب الروحي فى الإنسان.

وقد كان الادعاء الذى استندوا عليه أن الجانب الروحي، لا يستطيع أحد أن يخضعه إلى الدراسة الموضوعية المنهجية التجريبية؛ ولأنه يند عن القياس وعوامل الضبط التجريبية. وواضح أن هذا الادعاء لا يمثل قيمة علمية، بل هو يعبر عن قصور فى التفكير قد جعل هؤلاء الادعاء يتناولون الإنسان، والدراسات التى تهتم بالشخصية الإنسانية تناولاً جزئياً مشوهاً، منعهم من الاهتداء إلى الطرق السليمة المثلى لإرشاد الإنسان وعلاجه نفسياً، وتعرف العوامل الحقيقية، التى أدت إلى اضطراب شخصيته.

وقد تنبه (إريك فروم فى دراسته عن الدين والتحليل النفسى) (*) - وبوصفه من العلماء الذين اهتموا بقضايا التحليل النفسى - إلى مدى قصور علم النفس الحديث، وعجزه عن فهم الإنسان فهماً صحيحاً، وبأن علماء النفس المحدثين قد شوهوا الإنسان، عندما أغفلوا الجانب الروحي فيه، وأن الاهتمام الذى كان موجوداً عند بعض علماء النفس - ويتجلى فى الجانب المادى - بعيد عن اهتمامهم بدراسة الجانب الروحي، على اعتبار أن هذا الجانب قد اختفى تماماً؛ بحيث أصبح علم النفس الآن يحاكي العلوم الطبيعية والأساليب العملية، فيوظف الموازين والإحصاءات، واستطاع أن يغير جلده بجلد آخر، منقوشاً عليه الأرقام والجدول والمتغيرات وعوامل الضبط الأمبريقية.

وهكذا قدر لعلم النفس فى رحمة الانخراط فى متاهات المناهج الأمبريقية والعلمية المزعومة أن يضيع، وكان ذلك الضياع سبباً جوهرياً فى ضياع الإنسان؛ بحيث لم يعد الاهتمام بالروح والقيم والمعنويات أساساً من أسسه فى تناول الشخصية الإنسانية، بل اهتم فى غالب دراساته بالميكانيزمات وتكوينات ردود

(*) لرجع إلى: إريك فروم: الدين والتحليل النفسى: ترجمة فؤاد كامل. مكتبة غريب - القاهرة - ١٩٧٧ ص ١١.

الأفعال والفرائز ومعاملات الارتباط بين الظواهر المختلفة، دون أن يعنى بالظواهر الإنسانية التى تميز الإنسان، وتلتصق به كالتقيم الأخلاقية والدينية وقضايا الشعور والوجدان وما يصاحبها من مودة وحب.

وبهذا التصور يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات؛ فهو يشارك الحيوان فى معظم الخصائص الجسمية، وما تتطلبه من عوامل حفظ الذات والبقاء من دوافع وانفعالات وقدرة على الإدراك والتعلم، ولكنه يتميز عن الحيوان بخصائص روحية، تجعله ينزع إلى معرفة الله سبحانه وتعالى وعبادته والتشوق إلى الفضائل والمثل العليا، التى تجعل الإنسان فى أعلى منزلة من الكمال الإنسانى والنفسى.

يتناول القرآن الكريم الشخصية من جميع جوانبها العقلية والانفعالية والاجتماعية والجسمية والصحية؛ بحيث يوضح لنا أن الشخصية متمثلة فى أبعادها المتكاملة، وهى تلك التى تبتعد عن عوامل الانحراف، أو ما يسمى بالجوانب المرضية. ولقد وصف القرآن الكريم هذه الشخصية المرضية من الناحية النفسية، على الوجه الآتى:

١- الشخصية السيكوباتية التى تظهر غير ما تبطن؛

يقول الله تعالى:

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُوَفِّكَونَ ﴾

[المنافقون: ١ : ٤]

هذا سلوك النفاق الذى عبرت عنه الآيات الكريمة، يتميز به أصحاب

الشخصية السيكوباتية، فهم ليسوا خالصى الضمير (وقد اتخذوا أيمانهم جنة)؛ أى أنهم كانوا يدعون الإيمان كلما انكشف أمرهم، فيتذرعون بالإيمان ويدعون التقوى ليتخلصوا من الموقف وليواصلوا كيدهم ودسهم، وهل هناك ما أسوأ من الكذب الخداع والتضليل؟

ويرسم الله سبحانه وتعالى لهؤلاء صورة فريدة، تثير السخرية والزراية بهذا الضعف الممسوخ من بنى البشر أصحاب السلوك المرضى؛ فهم أجسام قد تثير العجب والدهشة، وليسوا أناساً تتجاوب وتتفاعل وتعقل، والمحك على ذلك حين ينطقون.. فهم خواء من كل معنى ومن كل مشاعر، ولا يكفى التشبيه الإلهى لهؤلاء، بل يضيف إليهم هذه الحالة من التوجس الدائم والفرع المستمر فهم «يحسبون كل صيحة عليهم»؛ لأنهم يفتقرون إلى الأمن النفسى والثقة بأنفسهم.. فهم يعرفون أنهم منافقون، مهما وضعوا على أنفسهم غلالات تسترهم من التظاهر والملق والالتواء، فهم فى حالة دائمة من القلق المرضى والتوتر، فى كل لحظة؛ خوفاً من أن ينكشف أمرهم.

٢- الشخصية التى تخاف الفقر وتتسم بالخنوع والسلبية

يحدثنا القرآن الكريم عن الشخصية المريضة نفسياً، والتى تعتقد أن هناك من الأفراد من يستطيع أن يتحكم فى أرواقهم وسبل معيشتهم، فيزرع الله فى قلوبهم الخوف لضعف إيمانهم وقلة حيلتهم واستكانة إرادتهم؛ لأن الرزق والحياة والأجل والنفع والضرب بيد الله سبحانه وتعالى دون سواء، ويقرر القرآن الكريم أن خوف الفقر إنما هو من إيهاء الشيطان؛ ليضعف النفس ويصددها عن الثقة فى الخير، فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾

[الرعد: ٢٦]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾

[فاطر: ٣]

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

[الأنعام: ١٥١]

والماتل للآيات الكريمة يرى أن الله سبحانه وتعالى، يوصينا أن نبتعد عن سلوك الجبناء الذين يخافون الفقر، ويتميزون بالخضوع والسلبية. لايجوز أن يدل الاسترقاق رقاب العباد؛ لأن رزقهم بيد الله وحده بحيث لا يملك أى إنسان من عباد الله الضعفاء أن يقطع رزق إنسان، ولا يضيق عليه فى الرزق. وبطبيعة الحال هذا لا ينفى أن يعمل الإنسان ويكد ويكدح، ولكن عليه وهو يعمل أن يراقب ضميره متقناً لعمله شجاعاً فى الحق، رافضاً الذل والمهانة ومواقف الهوان التى قد تتطلب من الإنسان، تحت وطأة السلطة أو التهديد أن يتجاوز فى بعض من أجره أو دينه أو عزته وكرامته فى سبيل الاحتفاظ برزقه، وكذلك الحال أيضاً بالنسبة للخوف على فقدان المنصب أو المكانة والاتجاء إلى الإنسان كقوة، يتذرع بها الإنسان لتحميه وتصون مكانته وتحمى منصبه.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[آل عمران: ٢٦]

﴿ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[آل عمران: ١٦]

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾

[فاطر: ١٠]

إن الخوف من الإنسان الآخر ظاهرة مرضية تهز الشخصية، وتجعلها فى مواقف القلق والمرض النفسى والخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة، والتأثر بالتطلعات الحسية التى جعلت الإنسان يتكالب على جمع المال، دون أن يراعى القيم والمثل والزهو بالمنصب والجاه والحسب... مثل هذا الإنسان الذى يترك نفسه لهذه العبودية (سواء كانت لشخص أو لمال أو لمنصب) حكم على نفسه بالتوتر والقلق، وفقد حريته وصفاء نفسه وخلاصها.

٢- الشخصية التى تدعى القوة وتتميز بالغرور والصلف

خلق الله الإنسان ليعمل ويكافح ومنحه سبحانه وتعالى قدرات عظيمة جعلته فى أحسن تقويم... إلا أن هناك من الشخصيات المريضة نفسياً من ترى أن القوة، التى منحها الله لها تجعلهم فى موقف البطش والزهو بها... مثل هؤلاء يحذرهم الله ويفند تصرفاتهم، يقول الحق تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

[البلد: ٤ : ١٠]

فالإنسان خلق ليعمل ويكدح، ولكن الذى يكدح لمبدأ وقيمة ليس كالذى يكدح للشر والرذيلة، فالذى يكدح وهو يتمثل الهدف الأسمى غير الذى يكدح ليغوص أكثر فى أدران اللذة والشهوة، ومن يموت فى سبيل دعوة خير ليس كالذى يموت فى سبيل نزوة شر... ولكن الإنسان الذى خلق ليكافح ينسى ما قد خلق من أجله فيدعى القدرة والقوة، ويتصرف تصرفات مغرورة فيزهو بنفسه، ويتوهم أنه لن يحاسب على أعماله، ويتوهم - تحت وطأة هذا الصلف، وهذا الغرور الكاذب - أنه لن يقدر عليه قادر؛ بحيث يحاسبه، فيطغى ويبطش ويسلب وينهب ويجمع الأموال ويفسق، دون أن يخشى، ودون أن يشعر بحرج، وينسى بطبيعة الحال وتبعاً لهذا الغرور الكاذب أن عين الله تراقبه وتلاحظه، وأن علم الله وقدرته تحيطه من كل جانب من جوانبه.

والملاحظ على الآيات الكريمة السابقة - والتي أوضحت بعض أنماط الشخصية - أنها قد صورت هذه الشخصيات تصويراً يعدها عن السواء النفسى . وبطبيعة الحال . . إن التأمل العميق لهذه الآيات الكريمة سوف يجد أن الإنسان قد روده الله تعالى باستعدادات متساوية للخير والشر والهداية والضلال، فهو قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر، وأن هذه القدرة كامنة فى كيان الإنسان تلك التى عبر عنها القرآن الكريم تارة (ونفس ماسواها فآلهمها فجورها وتقواها)، ويعبر عنها تارة أخرى (فهديناه النجدين)؛ فالتمييز كاهن فى صميم النسيج البشرى فى صورة استعداد، والرسالات السماوية والتوجيهات الربانية إنما توقف هذه الاستعدادات وتوجهها، ولكنها لاتخلقها خلقاً فهى مخلوقة بالفطرة وكأنه طبعاً وكامنة إلهاماً.

وبطبيعة الحال، تتجلى حكمة الله سبحانه وتعالى فى كونها قد جعلت هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة محكومة بقوة واعية مدركة، موجهة فى ذات الإنسان، فمن استخدم هذه القوة فى تركية نفسيته وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيه ومحاربه لنوازع الشر . . فإنه يصل إلى طريق الفلاح والصلاح، ومن أضعف هذه القوة فقد خاب وفشل . . هنالك إذا تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه . . . توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو فى حقل الخير، وفى حقل الشر؛ فهى حرية تقابلها تبعة وقدرة يقابلها تكليف ومنحة يقابلها واجب، وهذه الفطرة الشمولية ينبثق منها جملة حقائق ذات قيمة فى التوجيه والإرشاد النفسى، وذلك لما يأتى:

أ - ترتفع بقيمة الإنسان فتجعله أهلاً لأن يتحمل نتائج أفعاله .

ب - تمنح الإنسان حرية الاختيار فى إطار المشيئة الإلهية، التى أرادت له هذه الحرية .

ج - تنبه الإنسان إلى حاجته الدائمة إلى الاحتكام لأوامر الله، والتماشى مع شريعته؛ حتى يتجنب كل ما من شأنه أن يعده عن الضلال والهوى .

وهكذا.. ترتبط حقيقة النفس البشرية وقضايا الصحة النفسية بحقائق هذا الوجود الواسع الأطراف بمعطياته الحسية، وترتبط أيضاً في حدود التقدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلاً، ولكل حادث موعداً، ولكل أمر غاية ولكل قدر حكمة، والله العلى القدير هو رب النفس والكون والقدر جميعاً. ويمكن أن نضع بعض صفات الشخصية التى تتمتع بالصحة النفسية على الوجه الآتى:

الشخصية السوية من وجهة نظر القرآن الكريم:

أ- الشخصية المؤمنة التى تعمل عملاً صالحاً وتتواصى بالحق والصبر^(١):

ومادام الإيمان هو التمسك بالمنهج، ذلك المنهج الذى يمثل حركة متصلة فى صميم الوجود، صادرة عن تدبير متجهة إلى غاية وقيادة الإيمان؛ وفقاً لهذا المنهج الربانى هى قيادة لتحقيق منهج الحركة والإنتاج والعمل، وتلك هى طبيعة الوجود الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة، والتى تليق بمنهج يصدر عن الله سبحانه وتعالى والتواصى بالحق ضرورة.. فهناك الكثير من المعوقات التى تقف حبر عشرة أمام ظهور الحق، مثل: هوى النفس ومنطق المصلحة والانانية والتطلعات المادية والظلم والطغيان، ويصبح التواصى بمثابة تذكير وتشجيع وتفاعل ودعوة إلى الأخوة والتآزر، والتواصى بالصبر ضرورة وعلامة للصحة النفسية.. فلا بد من الصبر، ولا بد من استخدامه على جهاد النفس وجهاد الغير والصبر على الأذى والمشقة، وعلى كل ما يقف فى سبيل الإنسان فيمنعه من الرؤية الحقيقية، ويفقده القدرة على الوصول إلى الهدف الأسمى... ذلك الهدف الذى يتحدد فى العمل الصالح والتفاعل بالحق والعدل والصبر مع الآخرين.

ب- الشخصية المؤمنة بالآخرة وحقائقها

يعيش الإنسان فى الحياة الدنيا، وعليه أن يعمل ويكدح.. إلا أنه إذا أراد

(١) يقول الله تعالى فى سورة العصر: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ [صدق الله العظيم].

لنفسه السلامة والبعد عن التوتر والصراع النفسى وعوامل القلق، عليه أن يدرك أنه لم يخلق للفناء، وإنما خلق للبقاء، وأن هذه الدنيا مرحلة فى الطريق وليست هى نهاية المطاف، ومن هنا لا يعتبر الإنسان أن هذه الدنيا هى الهدف الأسمى، ولكن هناك موعداً للقاء فى حياة أخرى أفضل بكثير من هذه الحياة لمن أهتمدى.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

[آل عمران: ٩]

وبطبيعة الحال.. فإن المكذبين بالآخرة يعيشون فى غفلة عن قدرة الله، تلك التى تظهر آثارها فى آفاق الكون وفى نفوس البشر، ولينظر كل إنسان إلى نفسه ففيتها دليل على البعث، وفيها تكذيب لهؤلاء الذين ينكرون الحياة الآخرة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنَقُرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾

[الحج: ٥: ٧]

جـ.. الشخصية التى تؤمن بالقدر وتتجنب الصراع النفسى:

الإيمان بالقدر خيره وشره هو الذى يجنب الإنسان القلق النفسى، ويعصمه من الصراع والحسرة والجزع.. فلا بد وأن يتقبل الإنسان الأحداث بنفس راضية، ويؤدى هذا الإيمان بالقدر والشعور بالأمن النفسى، فلا تتقلب مشاعر الإنسان ولا تلعب بها حوادث الحياة.

ويقول الله تعالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

[الحديد: ٢٢: ٢٣]

فإذا كان الإنسان السوى يشعر أن له إرادة وقدرة في الاتجاه إلى طريق الطاعة، أو إلى طريق المعصية، ولا يجد نفسه مرغماً على سلوك أى منهما. . فإن الموت قدر محض لا إرادة للإنسان فيه ولا قدرة له على دفعه، كذلك أيضاً فى قضية الرزق فى ضيقه أو سعته، وذلك فيه تأكيد لحرية الإرادة الإنسانية، فلها أن تتجه كما تشاء مادام للحساب يوم، ومادام كل إنسان سيلقى ثمرة سعيه فى الحياة. ومن هنا. . فإن الشخصية التى تؤمن بالقدر لا تتجادل بالباطل، بل تعمل وتتخذ لنفسها سبيلاً إلى ربها وتجنب نفسها عوامل الصراع النفسى، من خلال محاسبتها الدائمة لنفسها عن كل أعمالها؛ بحيث لا تخدع نفسها بالأكاذيب. . فإن الحقيقة لا تخفى.

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾

[القيامة: ١٤ : ١٥]

د. الشخصية المحبة لربها والتي ترجو رحمته وتخشى عذابه

يوضح القرآن الكريم أن الصحة النفسية تتجلى من خلال عاطفة الحب المتدفق من الإنسان نحو خالقه؛ لأن الله هو واهب الحياة وصاحب الفضل فى هذه النعم، التى يعيشها الإنسان (فهو الذى خلق فسوى وهو الذى قدر فهدى). والعاطفة جزء لا يتجزأ من تركيبة الشخصية الإنسانية، ومن اتجهت عاطفته لحب الله. . فإن هذه العاطفة تكون موجّهة لفعل الخير، وتكون عاطفة عاقلة أو ما يسمونه بلغة العلوم الحديثة (موضوعية العاطفة)، ويحدد الله سبحانه وتعالى المجال العاطفى لهؤلاء فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

[الأنفال: ٢]

وإذا كان في طبيعة الإنسان الصحيح نفسيًا مقابلة الإحسان بمثله . . فكيف لا تملأ قلوب المؤمنين بحب الله الذي لا تحصى نعمه ولا تنفذ عطاياه (فالحياة بما فيها من نعم وما فيها من عوامل راحة وعطايا متعددة من عند الله) .
﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾

[النحل: ٥٣]

لا ينبغي أن تنقطع صلة الحب بين الإنسان وربه . . فهي تلك الصلة التي تسمو به إلى آفاق الكمال، وتجعله مطمئنًا واثقًا من نفسه مؤمنًا بسلامة تصرفاته، وحريصًا على أن يبدل ويضحى في سبيل المبادئ السامية، وابتغاء مرضاة الله فلا ييخل ولا يجبن إيثارك للمال أو رغبة في منصب أو جاه .

وإذا أخلص الإنسان في حبه لربه . . فإن الله يحبه؛ لأن الله يحب عباده المتقين الصالحين.

«فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه»

والإنسان الصحيح نفسيًا يخشى ربه من الوقوع في الخطأ، وهنا نجد أن الشخصية تحركها أخلاقها وتوجهها ذاتها المطمئنة، والله سبحانه وتعالى قد وعد من يخشاه بالأجر العظيم؛ فالإنسان الذي يخشى عذاب الله هو الإنسان صاحب اليقين الثابت.

﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾

[الأعلى: ١٠: ١١]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[الملك: ١٢]

وإذا كانت الأنماط السابقة للشخصية المتمتعة بالصحة النفسية، قد أعطت المؤشر الصادق لتوازن الشخصية.. فإن القرآن الكريم قد حدد مدى هذا التكامل وضرورته واكتمال خصائصه، من خلال بعض السلوكيات، ومكارم الأخلاق التي نشير إليها؛ لتوضح كيف أن القرآن قد حدد سلوكيات الشخص الصحيح نفسيًا وطوائف معاملاته مع الناس، وهذه الإشارة نقدمها بإيجاز لتعطي بعض الدلائل عن سمات الشخصية السوية، كما وصفها القرآن الكريم في سلوكياتها الأخرى.

* الصدق في القول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

[التوبة: ١١٩]

* إخلاص النية واجتناب الرياء:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

[البينة: ٥]

* الموضوعية واحترام حقوق الغير:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

[النساء: ١٣٥]

* حفظ الأمانة وصيانتها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾

[النساء: ٥٨]

* العفو عند المقدرة:

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[التور: ٢٢]

* الصبر وتحمل مشكلات الحياة وأعبائها:

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

[البقرة: ٤٥]

﴿ وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة: ١٥٥]

* العفة وعزة النفس وكرامتها:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا
(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

[الإسراء: ٢٩: ٣٠]

* التمتع بالآريحية والعطاء:

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنْفَقُوا
لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[الحديد: ٧]

التطلع إلى المعرفة والاستزادة بالعلم:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُم مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ
فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

[الأنعام: ٩٧: ٩٨]

* قوة الجسم وسلامة الجانب:

﴿ يَا أَيَّتُهَا آتَا جِرَةٌ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

[القصص: ٢٦]

* المروءة والتعاون وحب الخير:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

[المائدة: ٢]

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

[التوبة: ٧٨]

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

[الحجرات: ١٠]

* احترام حق الجوار:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

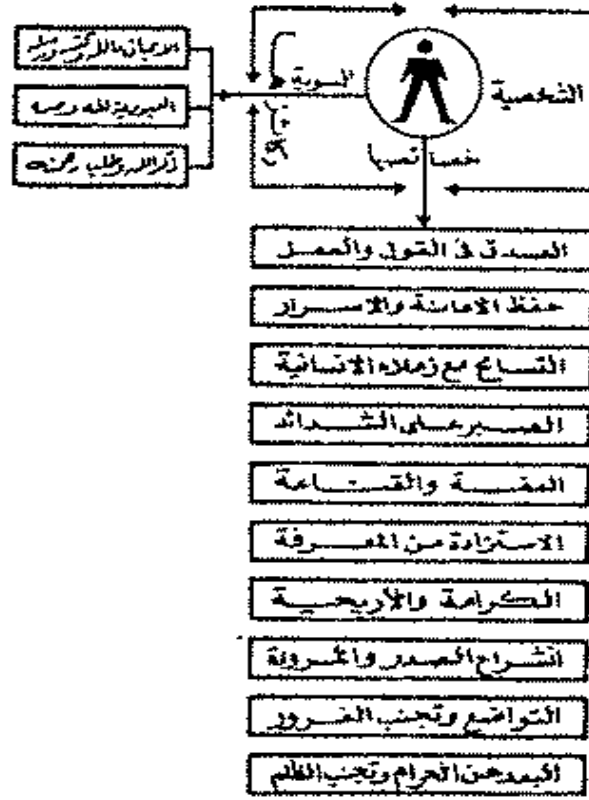
[النساء: ٣٦]

* التقوى والتحكم في الميل والاهواء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[الأحزاب: ٧٠-٧١]

ويمكن أن يوضح الشكل الآتي أبعاد وسمات الشخصية، كما وصفها القرآن الكريم:



والملاحظ أن صورة الإنسان المؤمن الصحيح نفسياً، كما صورها القرآن الكريم من خلال مجموعة السمات السابقة، تقدم لنا نموذجاً، يجب أن نعمل على تحقيقه من خلال عملية التطبيع الاجتماعي لأطفالنا، ومن خلال العمليات التعليمية؛ حتى تصبح سمات رئيسية عميقة الجذور.

◆ جهود العلماء المسلمين

في الصحة النفسية

• كفى للمتعلمين أن يقتنوا بأثار الجتهدين،

ويختاروا صفات المتورعين البالغين إلى منازل

المتقدمين والنابعين في علوم الأولين والآخرين.

◆ ابن مسكويه والصحة النفسية

- إن النفس تشتت باق إلى أفعالها الخسيرة.
- بحسب طلب الإنسان للخير وحرصه عليه يكون فضله.
- وعلى الإنسان أن يتجنب الشرور التي تعوقه عن فعل الخير.

(*) قدمت هذه الدراسة بمؤتمر علم النفس الأول، المنعقد بالقاهرة، إبريل - ١٩٨٥، الجمعية النفسية المصرية.

جهود ابن مسكويه في مضمار الصحة النفسية(*)

يستهل ابن مسكويه دراسته العميقة في تهذيب الأخلاق بمحاولة رائدة في تحديد تعريف النفس؛ حيث يبدأ في شرح ما يتعلق بها من عوامل، فيرى «أن النفس وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس.. فلها من نفسها مبادئ وأفعال لاتأخذها عن الحواس، وهى المبادئ الشريفة العالية التى تنبنى عليها القياسات الصحيحة»؛ فهو إذاً يرى أنه إذا كانت الحواس تدرك المحسوسات فقط.. فإن النفس تدرك أسباب الاتفاقات والاختلافات، التى تأتى من المحسوسات، وهى على حد تعبيره «معقولاتها»، التى لا تستعين عليها بشيء من الجسم ولا آثار الجسم.

فالنفس العاقلة فىنا هى بمثابة المجهر، الذى يستدرك شيئاً كثيراً من خطأ الحواس فى مبادئ أفعالها «فالنفس ليست بجسم ولا بجزء من جسم ولا حال من أحوال الجسم، وإنما شيء آخر مفارق للجسم بجوهره وأحكامه وخواصه وأفعاله»^(١). ولا يكتفى ابن مسكويه بهذا التحديد الدقيق لتعريف النفس، ولكنه أضاف إضافة عميقة لم يسبقه إليها عالم من علماء النفس، منذ أن بدأ العلم فى الظهور، ومنذ أن بدأ فى تقديم نظرياته التى ذاع صيتها وانتشرت شهرتها.. فيقول:

(١) أرجع إلى تهذيب الأخلاق فى التربية - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨١ .
(*) ابن مسكويه هو: «أبى على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه»، كان من فلاسفة القرن الرابع للهجرة، وتوفى عام ٤٢١هـ.

إن النفس تشتاق إلى أفعالها الخاصة بها، وتلك هي فضيلة النفس وبحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله، وهذا الفضل يزداد ويتزايد بحسب عناية الإنسان بنفسه وانصرافه عن الأمور العائقة له، والتي ترتبط بجهده وطاقته وما يتطلبه البدن من إشباع حسي وغريزي؛ فالفضائل لا تحصل لنا إلا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل، التي هي أضدادها وشهواتها الرديئة الجسمانية ونزواتها الفاحشة البهيمية^(١).

ومن هنا . حرص ابن مسكويه على أن يكون الإنسان متنبهاً لهذه الشهوات، من خلال تمسكه وحرصه على الخيرات، ورأى أن الواجب الذي لامرية فيه أن نحرص على الخيرات، التي هي كمالنا، والتي من أجلها خلقنا ولنجتهد في الوصول إلى الانتهاء إليها، وتجنب الشرور التي تعوقنا عن فعل الخير.

وفي معرض حديث ابن مسكويه عن الحرص على أداء الخير، لم يفته أن ينبهنا من خلال تقسيماته للقوى التي قد تحرك النفس، وهو بذلك التقسيم له فضل سبق والريادة أيضاً حيث حدد ثلاث قوى متباينة للنفس: فالقوة الناطقة توظف الدماغ والقوة الشهوية تستعمل البدن، والقوة الغضبية تستعمل القلب، وهو بهذا التقسيم لا يريد أن يفكك النفس أو يجعلها غير متحدة، بل هو يريد أن يؤكد فكرة انسجام هذه القوى؛ فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة، حدثت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة، ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقاداً للنفس العاقلة غير متأبئة عليها فيما تقسطه لها ولا منهمكة في اتباع هواها، حدثت عنها فضيلة العفة وتتبعها فضيلة السخاء.

ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة، تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها فلا تهيج في غير حينها ولا تمحى، أكثر مما ينبغي لها، حدثت منها فضيلة الحلم والاتزان وتتبعها فضيلة الشجاعة.

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، ص ١٠.

ويؤكد ابن مسكويه ضرورة تحقيق هذا الاتزان بين القوى الثلاث؛ لأنه عن طريق هذا الاتزان والاعتدال يتحقق تمامها وكمالها، أو على حد تعبيره تحدث فضيلة (العدالة) (*) .

وأكد ابن مسكويه ضرورة التنبيه إلى أن النفس العاقلة، إذا عرفت شرف نفسها وأحست بمرتبتها من الله عز وجل، أحسنت خلافته في تربية هذه القوى وسياستها ونهضت بالقوة، التي أعطاها الله تعالى إلى محلها من كرامة الله تعالى ومنزلتها من العلو والشرف، ولم تخضع للنفس الغضبية أو البهيمية .

ويضع ابن مسكويه مجموعة من المحركات، تميز الشخص الصحيح نفسياً على الوجه الآتي :

• أن يكون سعيداً؛

ويعتبر السعادة أولى رتب الفضائل، وهي محدودة بمدى توظيف الإنسان لإرادته ومحاولته إلى مصالحه في العالم المحسوس والأمور المحسوسة من أمور النفس والبدن، وما كان من الأحوال متصلاً بهما ومشاركاً لهما من الأمور النفسانية، ويكون تصرفه في الأحوال المحسوسة تصرفاً لا يخرج به عن الاعتدال الملائم لأحواله الحسية . .

ثم هناك رتبة أخرى لسعادة الإنسان، تتجلى في مدى توظيف إرادة الإنسان ومحاولاته إلى الأمر الأفضل فصلاح النفس والبدن، من غير أن يتلبس مع ذلك بشيء من الأهواء والشهوات، ولا يكثرث بشيء من الأمور المحسوسة إلا بما تدعوه إليه الضرورة (وتقضى المشروعية والشرعية) . والناس في هذا الأمر قد تتغير فتقع في الصراع النفسي؛ لأن هناك عوامل كثيرة يراها ابن مسكويه (ص ٧٣)، تظهر في :

(*) يلاحظ مدى توقد فكر ابن مسكويه وابتكاره وإصالة؛ حيث تنبه إلى ضرورة وحدة القوى التي تحرك النفس، وأنه لا بد وأن تتسجم في حركتها بحيث تغور في آخر المطاف فضيلة العدالة، تلك التي أدخلت تسمية «السواء النفسي» عند بعض المفكرين الأجانب» .

- (أ) اختلاف طبائع الناس .
 (ب) اختلاف العادات .
 (ج) اختلاف درجة العلم ومنزلتهم من الفضيلة والمعرفة والفهم .
 (د) اختلاف هممهم وإرادتهم .
 (هـ) اختلاف معاناتهم وحرصهم على تقبل المشكلات التي تواجههم (*) .

• أن يكون شريفاً مهما كانت حاجته إلى المال ،

الحاجة إلى المال ضرورية في العيش ، ولكن المكاسب الشريفة قليلة . . إلا أن هذه الحاجة لا ينبغي أن تغير سلوك الإنسان ؛ لأن ذلك الذي يشبعها عن طريق الحرام (يقع في الصراع النفسى مهما حصل منها ومهما صار غنياً) .

ويرى ابن مسكويه أن «العاقل الصحيح نفسياً هو الذى لم يتدنس بالقيح من المكاسب، ولم يتطرق إليه بخيانة ولاسرقة ولاظلم لمن هو دونه أو مثله، وتجنب فيه وجوه العار والفضائح كالخداع وترويع السلع القبيحة واستخدام المكر والخداع، والمساعدة على الفواحش، وتحسين القبائح فيما يوافق هوى الذى سيقدم المال .

• أن يكون عادلاً ،

يرى ابن مسكويه أن من أهم خصائص الشخص الصحيح نفسياً أن يكون عادلاً ؛ فالعادل بالحقيقة هو الذى يعدل قواه وأفعاله وأحواله، وكأنه يريد أن يقول إن الشخص الصحيح نفسياً هو ذلك الذى يحرص على قوته الجسمية، وما يصاحبها من عوامل، ثم إذا تكلم وأخذ على نفسه عهداً . . فلا بد وأن يلتزم بما تعهد، وأن يكون كلامه موافقاً لأفعاله وتصرفاته . . فالمرضى نفسياً هو كما أجمع عليه جميع المشتغلين بأمور الصحة النفسية، هو الذى يميل إلى أن يناقض أقواله، وتفضحه دائماً أفعاله المناقضة لما قال، وإذا تنبه إلى أغلاطه، فلا يستجيب ولا يرتد، بل يعود إلى الخطأ نفسه .

(*) هذا ما عبر عنه علماء النفس في العصر الحديث، بمدى تقبل الإنسان للإيجابيات التي تواجهه في حياته .

ويؤكد ابن مسكويه أن العادل، هو ذلك المستمسك بالشرعية، يعمل بطبيعة المساواة؛ فيكتسب الخير والسعادة من وجوه العدالة؛ لأن الشريعة تطالبنا بالمساواة فيكتسب صحته النفسية من وجوه العدالة؛ لأن الشريعة الإسلامية تأمر بالاشياء المحموده، لأنها من عند الله عز وجل، فلا تأمر إلا بالخير، وبكل ما يحقق للإنسان سعادته (وتوازنه النفس ص ٩٧).

• أن يكون متعاوناً ومتفاعلاً مع الجماعة،

يرى ابن مسكويه أن الضرورة داعية إلى أن يستعين الإنسان بأخيه في الإنسانية؛ لأن الناس مطبوعون على التناقضات ومضطربون إلى تماماتها، ولا سبيل إلا أن تجمع وتؤلف بين أشتات الأشخاص؛ ليصيروا بالاتفاق والاتلاف كالشخص الواحد، الذي تجتمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له.

• أن يحب ويحب؛

يعدد ابن مسكويه المحبة في شكل أنواع أسبابها، تكون بعدد أنواعها على حد تعبيره(*) .

فأحد أنواعها ما ينعقد سريعاً وينحل سريعاً.

والثاني ما ينعقد سريعاً وينحل بطيئاً.

والثالث ما ينعقد بطيئاً وينحل سريعاً.

والرابع ما ينعقد بطيئاً وينحل بطيئاً.

ولقد قسم ابن مسكويه هذه التقسيمات؛ لأنه يرى أن مقاصد الناس في مطالبهم وسيرهم ثلاثة، ويتركب بينها رابع، وهي (اللذة والخير والمنافع والتركيب منها). وإذا كانت هذه غايات الناس في مقاصدهم.. فلا محالة أنها أسباب المحبة من عاون عليها وصار سبباً للوصول إليها؛ فقد أفلح وتمتع بالصحة

(*) ارجع إلى تهذيب الاخلاق لابن مسكويه ص. ١١٢-١١٣ (في التعاون والمحبة).

النفسية... فأما المحبة التي يكون سببها اللذة فهي التي تنعقد سريعاً وتحل سريعاً، وذلك أن اللذة سريعة التغير، وأما المحبة التي سببها المنافع التي تنعقد ببطئاً وتحل ببطئاً... وهذه الأنواع من المحبة كلها تحدث بين الناس خاصة؛ لأنها تكون بإرادة وروية وتكون فيها مجارة ومكافأة.

وعلى هذا الأساس... يرى ابن مسكويه أن المحبة التي تجعل الإنسان يحب ويحب، هي تلك التي تتجرد من المنفعة وتبتعد عن المصلحة؛ لأنها تضيع بضياغ المصلحة وتذهب بذهابها؛ فلاخير في المحبة المنعقدة على المنفعة أو عقد الصفقات(*).

• أن يكون صديقاً ودوداً:

الصداقة نوع من المحبة... إلا أنها كما يرى ابن مسكويه، أخص منها فهي المودة بعينها، ويرى أيضاً أن الإنسان إذا أراد أن يكون صديقاً مخلصاً... فينبغي أن تكون صداقته بعيداً عن المنفعة؛ لأن من كانت طباعهم في تكوين الصداقة من أجل اللذة فهم يتصادقون سريعاً ويتقاطعون سريعاً، وربما اتفق ذلك بينهم في الزمان القليل مراراً كثيرة، وربما بقيت بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حالاً بعد حال. فإذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها، انقطعت الصداقة بالوقت وفي الحال.

ويؤكد ابن مسكويه ضرورة الصداقة وما يصاحبها من ود ومحبة، فالشريعة الإسلامية إنما أوجبت على الناس أن يجتمعوا في مساجدهم كل يوم خمس مرات، وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الأحاد ليحصل لهم الانس الطبيعي، الذي هو فيهم بالقوة حتى يخرج إلى الفعل، ثم يتأكد بالاعتقادات الصحيحة التي تجمعهم.

فالسعيد إذاً من اكتسب الأصدقاء واجتهد في بلل الخيرات لهم؛ ليكتسب بهم

(*) كثيراً ما نرى في الاتجاهات الأجنبية؛ خاصة المدرسة السلوكية في علم النفس، وغيرها من المدارس (إن الميار في أن يحب الإنسان ويحب يرجع إلى مدى عقده لصفات مريخة، حتى ولو استخدم فيها كل الوسائل، والألاعيب والمسامرات والحفلات الملاجئة، وهذا في اعتقادهم توافيق مع الموقف، ومرونة سلوكية تثير الدهشة والإعجاب(1)).

مالا يقدر أن يكتسبه لذاته.. فيلتذ بهم أمام حياته، ويلتذون به أيضاً فالإنسان محتاج إلى الصديق عند حسن الحال وسوئه.

لذلك يرى ابن مسكويه أنه من الواجب على الإنسان السوى متى حصل على صديق أن يكثر مراعاته ولا يستهين باليسير من حقه عنده، مهما يعرض له أو حادث يحدث له في أوقات الرخاء، فينبغي أن تلقاه بالوجه الطلق والخلق الرحب، وأن تظهر له في عينيك وحركاتك وفي هشاشتك وارتياحك عند مشاهدته إياك ما يزداد به في كل يوم وكل حال، ثقة بمودتك وسكوناً وراحة إليك، ويرى السرور في جميع أعضائك التي يظهر السرور فيها إذا لقيك.

وانظر إلى الصديق إذا كنت صحيحاً نفسياً إن إصابته نكبة أو لحقته مصيبة أو عثر به الدهر.. كيف تكون مواساتك له بنفسك ومالك، وكيف تظهر له تفقدك ومراعاتك ولا تنتظر به أن يسألك تصريحاً أو تعويضاً، بل اطلع على قلبه وأسبق إلى مافي نفسه وشاركه في مضض ما لحقه ليخفف عنه (ص ١٣٥).

وواضح من هذا النص الذي أورده ابن مسكويه مدى حرصه على السلوك السوى، ومدى اهتمامه بفعالية السلوك الإنساني. ويظهر الإنسان من خلال أفعاله وتصرفاته، وتظهر معه أيضاً مروءته أو تخاذله (شتان بين المروءة والخسة)، ويضيف ابن مسكويه لآداب الصداقة وضرورة الالتزام بها، ويدعو إلى الحرص على الصديق كمؤشر من مؤشرات الصحة النفسية، فيقول:

«وإن بلغت مرتبة من السلطات والغنى فاغمس إخوانك فيها من غير امتنان ولا تطاول... وإن رأيت منهم من يحاول أن يهرب من مكرمتك خجلاً... فتابعه دون كبر و صلف - فالكبر والصلف يتقص من الصداقة ويقطع حبل المودة...» ص ١٣٥ (آداب الصداقة).

• أن يكون قنوصاً راضياً،

القنوص هو الشخص الذي لا يشتغل بفضول العيش فإنها بلانهاية، ومن سعى إليها وطلبها أوقعته في مهالك لانهاية لها. ومن هنا. فإن الشخص الذي يتبرم دائماً ولا يقنع مثله كمثله الذي لا يملأ عينه غير التراب.

• أن يبتعد عن العجب والافتخار:

فالعجب ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها، والدليل على ذلك أن الفضل مقسوم بين البشر، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره، وكل من كانت فضيلته عند غيره... فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه، وكذلك أيضًا الافتخار فإن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا، ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه(*).

ومن هنا كان حسن الخلق والتواضع من الأمور المهمة للصحة النفسية للفرد؛ فحسن الخلق يجنب الإنسان الوقوع في الخطأ، ويجعله في حالة من الضبط النفسي، والفخر والاعتزاز والاستعلاء على الآخر ضرب من ضروب المرض النفسي... يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

[لقمان: الآية ١٨]

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع لله أحد إلا رفعه الله.

[رواه مسلم]

• أن يعرف عيوب نفسه:

يرى ابن مسكويه أنه ينبغي لطالب الفضيلة والراحة النفسية أن يتخذ جميع معارفه من الناس مرآة له، تراه صور كل واحد منهم، ويرى هو نفسه من خلالهم، وآفة الإنسان تكمن في حبه لنفسه. واعتمادًا على ذلك تخفى عليه معاييه ولم يرها، وإن كانت ظاهرة، والصديق الودود تظهر مودته في كشف عيوب صديقه؛ حتى يتجنبها. ومن هنا... فإن معرفة المرء عيوب نفسه تجنبه

(*) روى عن الرسول محمد بن عبد الله ﷺ أنه قال (لأنا نونى بأنا بكم واتنوى بأعمالكم).

الوقوع فى الخطأ أو ادعاء القدرة أو الإعلان عن مهارات ليست عنده؛ فيفضحه الموقف، وتكشفه الظروف التى قد تطالبه بإظهار ماكان يدعيه.

• أن يبتعد عن الشر وما يؤدى إليه من أفعال،

الشرير هو صاحب السلوك الذى يؤذى به الآخر، والغريب أن هذا الشرير إذا خلى بنفسه وتذكر أفعاله الرديئة.. فإنه يقع نهبا للصراع النفسى والشرير بطبيعة الحال يلتمس لعشرته ومخالطة من هو مثله أو أسوأ حالا منه؛ فيجد للوقت راحة به وسكوتا إليه لأجل المشاكلة، ثم يعود بعد قليل وبالا عليه وزيادة فى خياله وفساده فيألم به ويهرب منه، فليس له محب ولاذاته ولا له نصيح ولا نفسه، وليس يتحصل إلا على الندامة ولا يرجع إلا إلى الشقوة.

• أن يحرص على الخير والفضيلة،

الرجل الخير الفاضل هو الشخص الصحيح نفسيا.. فإن سيرته جيدة محبوبة فهو يجد ذاته وأفعاله الحيرة، قد جعلت كل إنسان يحاول مصادقته، فهو صديق نفسه والناس أصدقاؤه وليس يضاده إلا الشرير فقط.

والحرص على الخير والفضيلة يجعل صاحبهما يتمتع بالنية الطيبة.. تلك التى تجعله يؤكد ذاته، دون أن يجور أو يظلم، أو يتكبر(*).

• أن يحفظ حق الجار ويحترم حقوقه وحرمته،

تعد هذه الصفة من صفات الشخص الصحيح نفسيا، ولم ترد فى الدراسات الاجنبية على العموم، ولا نجد عالما من علماء الصحة النفسية قد اهتم بها، ولكن ابن مسكويه يظهرها بأمانة وريادة، ويجعلها أساسا من الأسس، التى تجعل الإنسان قريبا من الله؛ فقد قال الله تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

(١) كانت النجاة المنشودة ومازالت لعلماء النفس فى العصر الحديث هى مدى محاورات الإنسان لتأكيد

ذاته .

وَالْمَسَاكِينَ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴿٣٦﴾

[النساء: ٣٦]

وعن عبد الله بن عمر، وعائشة رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ.

ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (متفق عليه).

• أن يتمتع بسلوك الأريحية وإكرام الضيف (*)؛

الشخص الصحيح نفسياً هو ذلك الذى يتمتع بصفة العطاء والكرم، وأن
يقدم مكرمه للضيف سواء على المستوى اللفظى أو المستوى الحسى، أو ما تجود
به نفسه. وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بهذا السلوك كملمح من ملامح السلوك
السوى، يقول عز من قائل:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا
قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَأَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾

[الذاريات: ٢٤: ٢٦]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ
بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾

[هود: ٧٨]

• أن يبتعد عن الغدر، وأن يكون وفياً بالعهد؛

يرى ابن مسكويه أن الغدر وجوهه كثيرة.. فقد يستعمل فى المال وفى الجاه

(*) يلاحظ هنا أهمية الحرص على الجار واحترامه والحرص على حقوقه، وهذا المفهوم لم يرد إطلاقاً كصفة
من صفات الشخص الصحيح نفسياً فى الدراسات الأجنبية، التى اهتمت بذلك.

وفى الحرم وفى المودة، وهو على كثرة وجوهه، مدموم بكل لسان ومعيب عند كل أحد ينفر لسماع من ذكره؛ ولذلك يعد الغادر شخصاً مريضاً من الناحية النفسية. . . وأن سلوك الغدر يعتبر من السلوك المرضى الذى يجعل صاحبه فى حالة من القلق وتوقع الأذى. . . والغدر تصاحبه الخيانة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[الأنفال: ٢٧]

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾

[النساء: ٥٨]

ويرتبط سلوك الأمانة والوفاء بالعهد بذلك السلوك الفعال المنتج، الذى جعل الإنسان وفيًا مخلصًا، يقول ثم يفعل بما يقول، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾

[الإسراء: ٣٤]

وقال جل جلاله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

[الصف: ٢: ٣]

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - إن رسول الله ﷺ قال:

«آية المنافق ثلاث (إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان).

[متفق عليه]

• أن يبتعد عن المواقف التي تجعله مذخوراً خائفاً،

وهنا يتنبه ابن مسكويه لما سماه علماء النفس (بالفوبيا Phobia)، وهي الخوف الشديد في غير موضعه، وهو من أمراض النفس، إلى جانب أنه اعتبر أن الخوف الموضوعي من الأمور المقبولة؛ حيث يعرف السبب، فيقول:

«إن الخوف يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور والتوقع والانتظار، إنما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل... وهذه الحوادث ربما كانت عظيمة وربما كانت يسيرة وربما كانت ضرورية وربما كانت ممكنة، والأمور الممكنة ربما كنا نحن أسبابها، وربما كان غيرنا سببها، وجميع هذه الأقسام لا ينبغي للعاقل أن يخاف منها».

والإنسان الصحيح نفسياً هو ذلك الذي لا يجعل مع الله شريكاً، ويتميز بالتقوى متماشياً مع قول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[الطلاق: ٢: ٣]

وقال العلي القدير:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾

[الحجرات: ١٣]

وقال:

﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

[فصلت: ٣٠]

فالخوف ليس من صفات المؤمن، إذا كان يرتهن بموقف، أو يستند إلى توقع الأذى من ذوى الجاه أو السلطة أو من قلة الرزق.

ويضيف ابن مسكويه إضافة لها قيمتها، فيقول إن الخوف من الموت صفة من صفات المريض نفسيًّا؛ لأنها تجعله متشبِّهًا بالحياة، ولوعًا بها، خائفًا من مواجهة الحقيقة وساوسًا، ولا يقنع بشيء ولا يقنع بشيء (ص ١٨٠).

• أن يكون صادقًا،

والصدق هنا كأحد أبعاد الشخصية الصحيحة نفسيًّا، لا يقتصر على القول فقط؛ بل لابد وأن يكون الإنسان صادقًا في قوله وفعله، وقد أمرنا الله أن نتجنب الكذب وما يؤدي إليه من صراعات نفسية؛ فالكذب كما يقولون «لارجل له بل هو كسيح قلما يستطيع أن يعيش». من هنا يؤكد ابن مسكويه قول الصدق وفعل ما أمرنا الله به من الأفعال الخيرة.

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٩]

وقال:

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾

[محمد: ٢١]

وقال العلي القدير:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

[ق: ١٨]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

[الإسراء: ٣٦]

• أن يتمتع بالحياة وخجل الأدب،

من عيزات الصحة النفسية أنها تجعل صاحبها يتوافق مع ذاته، ثم ينعكس هذا

التوافق في تعامل الشخص من الآخرين، والحياء والفجل والمشيح بالادب،
ويجعل صاحبه في صورة مهذبة - تماشيًا مع قول الله وأحاديث الرسول محمد ﷺ.

يقول الله تعالى:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾

[القصص: ٢٥]

وعن عمران بن الحصين - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ:

(الحياء لا يأتي إلا بالخير).

• أن يكون شكورًا متوكلًا على الله،

الشكر والاعتراف بالنعم صفة من صفات الشخص الصحيح نفسيًا؛ ذلك
أن الإنسان الشاكر المتوكل على الله يشعر بأنه في راحة نفسية؛ لاعتقاده
الراسخ في أن الله سبحانه وتعالى هو مولاه وهو ناصره، ويصبح الشكر
لله على نعمه في كل الأحوال أمر من الأمور الضرورية التي تجعل الإنسان
قريبًا من الله.

يقول الله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾.

وقال عز من قائل ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

[إبراهيم: ٧]

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»

(رواه أبو داود الترمذی)

وعن أنس ابن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

(رواه مسلم).

وفى معرض التوكل على الله والاتجاه إليه فقط راعياً ومستولاً وقائداً وعظيماً، يعلمنا الله من خلال آياته الكريمة، فيقول عز من قائل:

﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

[الأنفال: ٢]

وقال تعالى:

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾

[الطلاق: ٣]

وعن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال:

نظرت أقدام المشركين ونحن فى الغار، وهم على رؤوسنا فقلت: يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ماظنك بأثنين الله ثالثهما»،

(متفق عليه)

وهكذا تكون الصحة النفسية أن تعانى النفس البشرية حلول الحياة ومرها وخيرها وشرها، وأن يكون لها فى تلك المعاناة تمحيص وتطهير وتصفية وتنقية؛ لكى تقبل على ربها سبحانه، وقد تهيأت للمقائه بالتوبة والعمل الصالح، وأقلعت عن كل معصية تبعلها عن مرة أهل الجنة.

وهكذا.. تتضح آراء ابن مسكويه فى تفسير الأبعاد النفسية، التى يمكن أن

نسميها بلغة علم النفس الحديث (البيان النفسى psychological profile تلك الأبعاد التى أراد بها أن يحقق الصحة النفسية للفرد، ويبعده عن مآهات الغرائز، أو ما يسمونه بعض علماء النفس (اللييدو)؛ خاصة أولئك الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية هدم الإنسان بأفكارهم، التى جعلت الجنس محوراً أو الشهرة أساساً، بل ووصل بهم الأمر إلى أنهم طالبوا بعدم قمع الغريزة، واستباحوا التحرر الغريزى لأنه يرتبط بالتحرر الاجتماعى.

ومثل هذه الآراء تؤدى إلى التخريب؛ لأنها تتنافى مع طبيعة الانسان؛ لأن الإنسان الشهوانى إنسان مبتور، يعيش فى صراع داخلى وتمزق مستمر.

وآفة مايقدم الآن من بعض فروع علم النفس، والتى تهتم بالغريزة والمحسوسات، أنها أرجعت الإنسان إلى الحياة البدائية الغفل، وهذا فيه امتهان للإنسان؛ لأن الإنسان يسعى دائماً نحو تفاضل أوفر، بالعلام على نفسه باستمرار، ولن يتم له ذلك إلا بالعودة إلى الله خاشعاً متضرعاً؛ فالإنسانية فى وقتنا الحاضر تعاني من وحشية الإنسان، ومن نزعاته الدفينة إلى دفن الإنسان.

◆ ابن حزم ومداواة النفوس^(*)

• «إني أعلم من عيوب نفس أكثر مما أعلم من عيوب الناس ونقصهم»

• «أكثر ما يكون ما لم نعلمه، فالحزم هو التأهب لما يظن».

• لا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإنابة، لكن على سبيل استكمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف.

(ابن حزم في مداواة النفوس)

(*) ابن حزم (رسالة التلخيص لوجوه التلخيص) تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار العروبة، ١٩٦٠، ص

«الإمام الجليل أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الظاهري» ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٤٥٦ هجرية؛ وهو أحد العلماء الذين وقفوا أنفسهم على نشر العلم وتحصيله، مع الجهر بالحق وإفادة الناس، وواجه بشجاعة كل المصاعب التي اعترضته، ولقد وصفه أحد تلاميذه المخلصين؛ فقال:

«مارأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه»^(١).

ولقد تميز ابن حزم بانصرافه عن مطامع الدنيا ومطامح المجد في سبيل حب العلم والسعي وراء الحق، على الرغم من أنه عاش في عصر، تهافت أهله على جمع الأموال وبناء القصور واقتناص الملذات. ولقد استطاع ابن حزم الوقوف وإمعان النظر في نفوس البشر، وراح يتغلغل ببصيرته في خفاياها، وكان يعيش حياة تعتبر نموذجاً لحياة والعالم النزيه، الذي يطلب العلم للعلم والعمل لا للمال والجاه أو للشهوة والمجد... أليس ابن حزم هو الذي يقول في دراسته الموسومة باسم: (مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق).

* إن لذة العاقل بعقله.

* إن لذة العالم بعلمه.

* ولذة الحكيم بحكمته^(٢).

(١) أبو عبد الله الحميدي: (جذرة المقتبس) تحقيق ابن تاروت الطبخي، القاهرة، السعادة، ١٩٥٣م، ١٣٧٢هـ، ص ١٩١.

(٢) ابن حزم: مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق - دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

وفى تناولنا لآراء ابن حزم فى (مداواة النفس) . . يكمن الهدف الذى نسعى إليه، وهو محاولة تقديم آراء ابن حزم وإسهاماته فى مضمار الصحة النفسية، وكيف أنه كان صاحب فضل وريادة، وله آراء فى كتابه (مداولة النفوس) تفوق فى قيمتها آراء كثيرة. كما حدد المستشرق الإسباني (بلاسيوس) مكتبه (سيكا) وغيره ومن علماء السلوك والأخلاق، وما قدمه (بيكون) من آراء، نالت حظاً واسعاً فى مضمار الأخلاق فى الوقت الذى كان قد سبقه ابن حزم فى إعلانها وإظهارها^(١).

وبعد الكتاب الذى نحن بصدده أشبه بسجل ذاتى أو يوميات، كتب فيها ابن حزم بعض ملاحظاته عن قضايا النفس، وما يتبعها من سلوكيات وأخلاقيات، لمجد فيها التجارب الواسعة التى صاغها فى شكل مبادئ عامة وحكم أخلاقية، تنطق بذاتها عن مكنونات النفس البشرية، وتعلن عن قضاياها وتحدد وسائل علاجها.

وسوف نتناول هذه القضايا من خلال نصوص ابن حزم، ثم نحاول أن نجعل النصوص تقدم أفكاره، ويكون التعليق من خلال ماورد فى هذه النصوص من ملاحظات نفسية دقيقة تدأى النفوس وتعالجها.

أولاً: فى مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة،

يرى ابن حزم أن الأخلاق الذميمة هى تلك التى تشغل نفسها بالقضايا الحسية، التى تجعل صاحبها غارقاً فى أدران الشهوة، وأن هناك من الحاجات العضوية التى يسعى الإنسان إلى إشباعها. . إلا أنها تتضاءل أمام الحاجات النفسية التى ذكرها ابن حزم فى هذا النص:

«لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله

(١) ارجع إلى تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٤م ص ٢١٧.

عز وجل باجتهاده، أعظم من لذة الأكل بأكله والشارب بشربه والواطي بوطئه،
والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والأمر بأمره»^(١).

ويقدم ابن حزم الدليل على صدق رأيه، عندما يقول:

«إن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينها، كما
يجدها المتهمك فيها، ويحسنونها كما يحسنها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا
عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم في الشئيين من عرفهما لا من
عرف أحدهما ولم يعرف الآخر»^(٢).

الإنانية وحب النفس من الأخلاق الذميمة،

يرى ابن حزم أن من أسباب القلق والصراع النفسي أن يفكر الإنسان في نفسه
ومصلحته فقط، دون أن يراعى الآخر، ويقبل عليه ويخفف عنه ويتجاوب معه -
فليس من السلوك السوي أن تعيش لنفسك فقط - بل لابد وأن يتفاعل مع
الجماعة... تواسى المهوم وتعمل على إزاحة أسباب الهم والقلق عنه.

ويرى ابن حزم أن الناس إذا كانوا قد اتفقوا في الطريقة والأسلوب، الذي
بفضله يزيحون هذا الهم ويخففون من حدته... فهو يرى:

«إن من الناس من لا دين له فلا يعمل للأخرة، وفي الناس من أهل الشر من
لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق لغيره. وفي الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته
وفي الناس من يحب ومنهم من لا يريد المال...» ويستمر ابن حزم في عرض
نماذج السلوك المختلفة، التي تصطنع مواقف في الحياة تظهر فيها المصالح الفردية
وتتعارض، فيكثر الهم والقلق، وتزداد الضغائن، لأن كل فرد يسعى فقط إلى
تحقيق مصلحته، ومن هنا كان العلاج النفسي لهذه الأخلاق الذميمة من وجهة
نظر ابن حزم، على الوجه الآتي:

«لا تبدل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل

(١، ٢) أرجع إلى ابن حزم: مداراة النفوس، ص. ١٣، ١٤.

فى دعاء إلى حق وفى دفع هوان وفى نصر مظلوم^(١)، وكل من يذل نفسه فى غرض من أغراض الدنيا فهو كبائع الياقوت بالخصى.

وهنا تتجلى لنا تحليلات ابن حزم النفسية وقدرته على أن يضع أمامنا (الموقف) الذى يصنع القلق ويؤدى بالنفس إلى التوتر، ثم يقدم الإرشاد والتوجيه النفسى، من خلال ما يترتب على الموقف من أحداث ونتائج، ويركز على الأداء والسلوك والتصرف كمحرك من المحركات التى تكشف نفسية الإنسان.

راحة العقل تتجلى فى طرح المبالاة بكلام الناس،

يرى ابن حزم أن من أسباب الهم والقلق والتوتر النفسى أن تبالى بكلام الناس؛ لأن من يستطيع أن يسلم من طعن الناس وعيبيهم فهو مجنون.

ويعطى ابن حزم الدليل على ذلك، فيقول:

من حق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق، وإن آلتها فى أول صدمة، كان اغتباطه بدم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه لأن مدحهم رياه إن كان بحق وبلغ مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب فأفسد بذلك فضائله وإن كان يباطل فبلغه فسره فقد صار مسروراً بالكذب، وهذا نقص شديد، وأما ذم الناس إياه فإن كان بحق فبلغه فرها كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا ناقص.

وهنا يوضح لنا ابن حزم كيف أن الإنسان عليه أن يقدر نفسه حق قدرها ويتعرف قدراته ويكتشف عيوبه ويواجهها؛ حتى يحاول أن يصلح منها... فالعاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها الحيوان، وإنما يفرح ويسعد بتقدمه فى الفضيلة وحميد السلوك.

ويضرب لنا ابن حزم مجموعة من الأمثلة جرياً كعادته فى سرد المواقف؛ فيقول: «فمن سر بشجاعته التى يضعها فى غير موضعها فليعلم أن النمر أجراً

(١) مداراة النفوس: ص ١٦.

منه، وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه، ومن سر بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسمًا. ومن سر بحمله الأثقال فليعلم أن الحمار أحمل منه. ومن سر بحسن صوته فليعلم أن كثيرًا من الطير أحسن صوتًا منه... فأى فخر وأى سرور فيما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه؟!»

وهنا يحدد ابن حزم بدقة عالم النفس الماهر الموقف؛ ليفهم الشخص الذى يدعى صفة أو قدرة أو قوة بأن ما تدعيه؛ حتى إذا وصل إلى درجة الحقيقة فإن هناك من يتميز فيها عليك... لكن الشخص الذى يتميز، كما يرى ابن حزم بقوة التمييز واتساع العلم وحسن العمل له أن يفرح... فإنه لا يتقدمه فى هذه الوجوه إلا الملائكة وخيار الناس.

يقول الله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

هذا القول الحق جامع لكل فضيلة؛ لأن نهى النفس عن الهوى يتمثل فى ردها عن الطبع الغضبي والشهوانى؛ لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى، فلم يبق إلا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها، والذى تميزت به عن سائر الحيوانات والحشرات.

كلام الناس إذا كان يعبر عن الخير ويدعو إلى الفضيلة، ويعلن عن المودة والالفة كان مؤثرًا إيجابيًا، أما إذا كان خارجًا عن قلوب معتمة وضمائر خربة فالالتجاء إلى الله مع تعرف القدرة الحقيقية للإنسان موضع الكلام... فإذا عرف الإنسان قدراته بطريقة موضوعية تجنب الوقوع فى الخطأ، وإذا كان الإنسان يتعلم كما يقول ابن حزم من تجربة النوم أنها تجربة عميقة، يسلم نفسه من خلالها إلى خالقها.

«إذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسى كل سرور وكل حزن فلو راقب نفسه في يقظته على ذلك أيضاً لسعد السعادة التامة»^(١).

الدهاء والجفاء والقدر خصال النفس المريضة،

يرى ابن حزم أن الإنسان عليه أن يحرص على نفسه من شر الخبث والدهاء. ولا بد من أن يوصف الإنسان بسلامة الجانب، وأن يحتفظ من أن يوصف بالكر والدهاء.

«وطن نفسك على ما تكره، بقل همك إذا أتاك، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدرته. إذا تكثرت الهموم سقطت كلها».

ويرفض ابن حزم أن يتصف الإنسان بالغدر والجفاء، ويرى:

«إن الغادر يفي للمجدود»^(٢) والوفى يقدر بالمحدود والسعيد كل السعادة في دنياه من لا يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان».

فلا تفكر فيمن يؤذيك فإنك إن كنت مقبلاً فهو هالك وسعدك يكفيك. وإن كنت مدبراً فكل أحد يؤذيك (فظوي لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها).

ويرى ابن حزم أن الجفاء خصلة من خصال النفس المريضة، وأن الإنسان الذي يعامل الآخر بجفاء يحتاج إلى الصبر على هذا الجفاء، ويقدم ابن حزم مراحل للصبر على الجفاء على الوجه الآتي:

- ١- صبراً عما يقدر عليك ولا تقدر عليه.
- ٢- وصبراً عما تقدر عليه ولا يقدر عليك.
- ٣- وصبراً عما لا تقدر عليه ولا يقدر عليك.

(١) مداواة النفوس: ص ٢٠.

(٢) للمجدود: ذو الحظ، أي قد يقع الوفاء في القليل من طبيعته الغدر، وقد يقع الخلف في القليل من طبيعته الوفاء على الرغم منه.

- ارجع إلى مداواة النفوس: لمحقق عبد الرحمن عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٩٠ هـ. ١٩٧٠ م، ص ٣١-٣٢.

فالأول ذل ومهانة وليس من الفضائل، والثاني فضل وبر وهو الحلم، وهو الذى يوصف به الفضلاء، أما الثالث فينقسم إلى قسمين يراهما ابن حزم على الوجه الآتى:

* إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الغلط، ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه، وهنا يكون الصبر عليه أفضل، وهو ضرب من ضروب الحلم.

* وأما من كان لا يدري مقدار نفسه، ويظن أنه لها حقًا يستطيل به فلا يتندم على ما سلف منه، فالصبر عليه ذل للصابر وإفساد للمصبور عليه.

ثانيًا، فى الإخوان والصداقة والنصيحة

يقدم ابن حزم فى مضممار الأخوة والصداقة والنصيحة مجموعة من الآراء بمثابة منهج للتوجيه والإرشاد النفسى، أو ما يمكن أن يسمى بلغة علم النفس المعاصرة (التوجيه المباشر)؛ حيث يقول:

* استبقاك من عاتبك وزهد فيك من استهان بسيئاتك، فالعتاب للصديق كالسبك للسيكة فيما أن تصفو وإما تطير.

* لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والحزى، ولا تزهد فيمن يرغب فيك فإنه باب من أبواب الظلم.

* أبدل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، وكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه.

* لاحظ أن ذوى التراكيب الخبيثة يبغضون - لشدة الحسد - كل من أحسن إليهم إذا رأوه فى أعلى من أحوالهم.

* لاتنصح على شرط القبول ولا تشفع على شرط الإجابة ولا تنهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف.

* ويحدد ابن حزم أخلاقيات الناس في شكل تفاعلات وعلاقات، يحدد من خلالها ما يسمى بحركة الجماعة (ديناميات الجماعة) من خلال اختياره لقضية المدح والذم فيقسم الناس إلى طوائف:

١- طائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب وهذه صفة أهل النفاق والعيابين. ويرى ابن حزم أن هذا خلق قد فاش في الناس وغالب عليهم.

٢- طائفة تلم في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين.

٣- طائفة تمدح في الوجه والمغيب، وهذه صفة أهل الملق والطمع.

٤- طائفة تقدم في المشهد وتمدح في المغيب، وهذه صفة أهل السخف والفواكه.

وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة ويثنون بالخير في المغيب أو يمسكون عن الذم، وأما العيابون الذين لا يميلون إلى النفاق فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب.

ويقدم ابن حزم بعض المعايير فيما يتعامل به الناس من أخلاقيات:

(١) الابتعاد عن التلون المذموم ذلك الذي يجعل الإنسان يتنقل من رى متكلف لامعنى له إلى رى آخر مثله في التكلف لامعنى له، ومن حال لامعنى لها إلى حال لامعنى لها بلاسبب يوجب ذلك.

فأما من استعمل من الزى ما أمكنه مما به إليه حاجة، وترك التزويد مما لا يحتاج إليه، فهذا عين من عيون العقل والحكمة^(١).

وهنا يؤكد ابن حزم ضرورة الابتعاد عن السلوك السيكوباتي، الذي يجعل الإنسان يتكلف في تصرفاته، ولا يتنبه إلى الأخطاء التي يرتكبها، بل وقد يرجع إلى ارتكاب هذه الأخطاء حتى بعد أن يتعرفها وعلاج هذه الآفة عند ابن حزم،

(١) مباحلة النفوس: ص ٦٤ (طبعة المكتبة السلفية) ١٩٧٠م / ١٣٧٠ هـ.

الرضا والاستغناء - فهو يرى أن الإنسان لابد له أن «يستغنى بما وجد عما لا يجد»^(١).

(ب) الالتزام بالوفاء والثبات على المبدأ والعهد، ووضع الكلام في موضعه والتوسط في تدبير المعيشة ومسايرة الناس بالمسألة... كل هذه سلوكيات يراها ابن حزم يتصف بها الشخص (الرزين)، الذي يتجنب مواقف السخف ومواقف المهاترات.

(ج) إذا نصحت ففي الخلاء وبكلام لين، ولا تسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون تآمراً. فإن خشيت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير. وإن نصحت بشرط القبول منك، فأنت ظالم ولعلك تخطئ في وجه نصحتك فتكون مطالباً بقبول خطئك وترك الصواب.

ولقد استطاع ابن حزم - من خلال رسالته عن أهم عاطفة يمر بها الإنسان، وهي عاطفة الحب والمودة - أن يعبر عن العوامل النفسية التي تعترى الإنسان من خلال هذه التجربة العاطفية. وتتميز دراسة ابن حزم بالتسلسل المنطقي والترتيب المنهجي في تناول الموضوع، فيبدأ بالكلام في ماهية الحب، ثم ينتقل إلى نشأته ليستقصى علاماته ومظاهره ويستعرض أنواعه ونماذجه، ثم يتبع أحوال المحبين وعوارض حبه فيحدثنا عن الوصل والهجر والوفاء والغدر واللين والفضى والسلو والموت وفضل التعفف.

ويسجل ابن حزم في كتابه جلال الحب وقداسته من وجهة نظره، فيقول:
الحب دقت معانيه لجلالته عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل^(٢).

(١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) ابن حزم: طوق الحمامة (في الألفة والألاف) تحقيق فاروق سعد - دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٧٥ ص ٦٥ .

والتأمل العميق لهذا النص يرى أن ابن حزم كان يخشى أن يقع في ظن البعض أن الحديث عن الحب هو حديث عن الجنس والشهوة والفاحشة، ولكن ابن حزم كان أحرص ما يكون على إبراز قدسية تلك العاطفة.

وتعتبر دراسة ابن حزم في «طوق الحمامة» محاولة مبكرة في علم النفس؛ لأنه يرى أن نفس المحب قاصدة إلى نفس المحبوب مشتهية علاقته، جاذبة لو أمكنها كالمغناطيس والحديد، وأن خيال المحب يضيف على كل ما يهواه من ضروب الكمال، وكيف أن أوهام المحب تخلع على شخصية المحبوب كثيراً من المزايا بما يجعل منها جوهرة ثمينة نادرة.

يقول ابن حزم:

«إن الذي أفرغ ذهنه في هوس من لم ير، لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها، وعيناً يقيمها نصب ضميره، لا يتمثل في هاجسه غيرها، لأنه قد مال بوهمه نحوها».

وابن حزم يؤكد أيضاً أن (المعينة) التي قد تأتي بعد ذلك تثبت هذا الحب أو قد تلغيه تماماً^(١).

وقد تنبه ابن حزم في دراسة (طوق الحمامة) إلى مرحلة التثبيت Fixation، الذي فسرتة مدرسة التحليل النفسي على أساس أنه بمثابة ارتباط الإنسان في مرحلة مبكرة من مراحل نشأته بتجربة معينة أو موضوع معين ارتباطاً وثيقاً؛ بحيث يدور هذا الارتباط حتى انتقاله إلى مرحلة النضج النفسي، أو ما يسمى بالبلوغ العاطفي، حيث كتب:

«وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحب طويلة بعد هذا...»

(١) ارجع إلى الأستاذ الدكتور زكريا إبراهيم: ابن حزم الأندلسي - أعلام العرب، ٥٦، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ص. ص ٢٣٧-٢٣٨.

وقوله :

«دعنى أخبرك أننى أحبيت فى صباهى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت
من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو على صورة الحسن نفسه».

كما نبه ابن حزم إلى ماردته مدرسة التحليل النفسى، فى القرن العشرين،
من أن كل حب يخفى وراءه كراهية فى اللاشعور فهو يرى:

إنه إذا تأكدت المحبة بين المحبين تأكيداً شديداً، كثر تضادهما فى القول تعمداً
وخروج بعضهما على بعض فى كل يسير من الأمور، وتتبع كل منهما لغلظة تقع
مع صاحبه وتأويلها على غير معناها.

ولقد كانت اللفتات والآراء النفسية لابن حزم بمثابة المشعل، الذى أضاء
الطريق أمام المشتغلين بالصحة النفسية؛ حيث أوضح أهمية الاستقرار النفسى فى
تأجيل عاطفة الحب ودوامها، وكيف أنه تنبأ إلى أن العشق السريع هو أقرب إلى
الشهوة منه إلى الحب، فى حين أن العاطفة الهادئة الواعية الصابرة التى تتكون
على مر الأيام والليالى لا بد وأن تدوم وتثبت، وذلك عكس الشهوة العابرة أو
المغامرة الخاطفة، التى قد تلعب فيها العاطفة دوراً محدوداً لتحقيق نزوة عابرة.

ويقول ابن حزم فى ذلك:

«وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واجدة ولا أكاد
أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة، وإما أن يكون فى ظنى متمكناً من
صميم الفؤاد نافذاً فى حجاب القلب فما أقدر ذلك ومالصق بأحشائي حب قط
إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهرًا وأخلى معه فى كل جد
وهزل وكذلك أنا فى السلو والتوقى، فما نسيت ودًا لى قط»^(١).

وإذا كان ابن حزم قد ربط الحب بالاستقرار النفسى، وأوضح مدى ضرورة
هذا الاستقرار فى استمرار الحب.. فإننا لمجده رفض فكرة التعلق بشخصين فى

(١) ابن حزم: طوق الحمامة (فى الألفة والآلاف) تحقيق فاروق سعد ص ٩٣ .

وقت واحد مؤكداً (وحدانية الحب... حيث إن التعدد حليف الشهوة، في حين أن الوجدانية قريبة المحبة Affection)؛ لهذا يقرر ابن حزم صراحة:

«إن كل من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين فقد اختلطت عليه المحبة بالشهوة والشهوة لا تسمى حباً على الإطلاق بل على المجاز».

ابن حزم يستنكر التقلب في الحب ويستهن المثل في العاطفة، ويهاجم كل من يرى أنه من الممكن أن تتجه العاطفة إلى حب اثنين في وقت واحد.

ويحدثنا ابن حزم في باب الضنى عن الأمراض النفسية والجسمية، التي قد تترتب على قمع الحب أو كتمانها فيقول:

«ولابد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل إما بين وإما بهجر، وإما بكتمان واقع لمعنى من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والتحول وربما أضجعه ذلك»^(١).

لما كان الحب في نظر ابن حزم ظاهرة بشرية، تتجلى فيها العاطفة الإنسانية في أعظم معانيها... فإننا نراه يؤكد أن المودة إذا استحالت إلى عداوة، صارت أفظع من الموت وأنفذ من السهم وأمر من السقم وأوحش من زوال النعم وأقبح من حلول النقم.

ويختتم ابن حزم حديثه عن الحب بالإشارة إلى التعفف، فيرى أن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة ومحاربة النفس الامارة بالسوء.

«وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» عند هذا القول الكريم العظيم لله سبحانه وتعالى، يقول العاصي:

«ياويلتى مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها».

(١) طوق الحمامة (باب الضنى) ص ٢٣٧ .

التعفف سلوك الأبرار وسمة من سمات الفضلاء، أشاد بها الرسول الأمين محمد ﷺ، عندما ذكر «أن رجلاً دعت امرأة ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله» فما أقبح من الزنا معصية، وما أسوأ الشهوة من سلوك.

ومن هنا نجد ابن حزم يؤكد وجهة نظره عن ضرورة التعفف، فيقول:

«تأنس النفس بالنفس فأما الجسد فمستثقل مهزوم به، ودليل ذلك استعجال المرء بدفن جسد حبيبه إذا فارقتة نفسه وأسفه لذهاب النفس، وإن كانت الجنة حاضرة بين يديه»^(١).

(١) مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق لابن حزم.

◆ ابن قيم الجوزية ورعاية الطفولة

• من أهمل تعليم ولده وإرشاده إلى ما ينفعه.. فقد أساء إليه غاية الإساءة وأكثر الأولاد، إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسنته فأضاعوها صفاراً، فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينتفعوا آباءهم كباراً.

• عاتب أحد الآباء ولده على العقوق، فقال له ولده: يا أبت إنك عقتني صغيراً فعقتك كبيراً وأضعنتي وليداً فأضعنتك شيخاً^(١).

(١) من كتاب: تحفة المودود وأحكام المولود لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، ص ١٨٠ .

الإمام الجليل الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، الشهير بابن قيم الجوزية، (ولد سنة ٦٩١ - ٧٥١هـ، وتوفي سنة ١٢٩١ - ١٣٥٠م)، وهو أحد العلماء الذين قدموا إسهامًا فكريًا، يعد من المراجع الأساسية في علم نفس النمو Developmental Psychology، حيث استقى ابن قيم الجوزية أفكاره عن تربية الطفل ورعايته من الشريعة الإسلامية، تلك التي لم تترك جانبًا من جوانب الحياة ولا أمرًا من أمور الدنيا والآخرة، إلا وهدت إلى خير ما يتبع فيه. ولقد فصلت الشريعة السمحاء كل أمور الدين والدنيا تفصيلًا دقيقًا، يجعل الإنسان على بصيرة من أمره عزيزًا مطمئنًا سعيدًا برضوان الله في الدنيا والآخرة.

ويرى ابن قيم الجوزية في دراسته (تحفة المودود بأحكام المولود) أن للمولود أحكامًا منذ أن يستقر نطفة في الرحم، حتى يولد وينمو ويتربص ناشئًا فشابًا ثم راشدًا، تثبت له جميع أحكام التكليف؛ اعتمادًا على مرحلة النضج العضوي والنفسى والعقلى، التي قد وصل إليها.

وسوف نتناول الأفكار الرئيسية التي تضمنتها دراسته عن الطفل، تاركين للباحثين ومن يهمهم أمر الطفل أن يعيدوا النظر في أمر قراءة هذا المنهل الفياض في تربية الطفل، إيمانًا منا بالحقيقة التي نقول: إن البحث العلمى شأنه شأن سباق التتابع يجرى فيه الباحث شوطًا معينًا ومحددًا، ثم يسلم العلم إلى زميل ليستأنف بقية السباق... بحيث يصبح البحث العلمى دائمًا استفهامًا وتساؤلًا ودهشة مستمرة ومحاولة للفهم والقراءة والتثقيب... فهيهات أن يصل البحث العلمى إلى كلمة نهائية على الإطلاق.

يستهل ابن قيم الجوزية دراسته^(١) في استحباب طلب الأولاد؛ فيذكر ضرورة الزوج من المرأة الولود، وأن النبي عليه الصلاة والسلام يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة.

ولقد ذكر الله في كتابه العزيز أهمية الزواج والإنجاب، وطالبنا به كآية من آياته الكريمة الجليلة؛ حيث يقول عز من قائل:

«والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة... ورزقكم من الطيبات».

وقد تكون الحكمة التي جعلت الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان من الذكر والأنثى خفية على بعض الناس، ولو أمعنوا النظر فيها لسجدوا لله شكراً على هذه النعمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يكون متميزاً منفرداً عن سائر الكائنات، ومن هنا أوكّل سبحانه وتعالى التناسل إلى الذكر والأنثى؛ بحيث ينفرد كل إنسان عن غيره حتى ولو كانا توأمين...

وعلى الرغم من أن ابن قيم الجوزية قد نوه على ضرورة استحباب بشارة من (ولد له ولد وتهنته)... إلا أنه رفض أن تكون هناك مفاضلة بين الذكر والأنثى، على أساس استحباب الذكور وكراهية الإناث، ونبه الأذهان إلى أن كراهية خلقة البنات كثيراً ما تسبب لهن أمراضاً نفسية وجسمية وعقلية. ثم يضيف ابن قيم الجوزية (أنه إذا كانت الأبناء والبنات نعمة من الله فلا بد وأن نختار الأسماء وأن نهتم بالتسمية وقدم فصلاً طريفاً فيما يستحب من الأسماء وما يكره منها).

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

«أنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسمائكم»^(٢).

وهناك من الأسماء المحرمة والمكروهة والمعيبة، التي تمثل لصاحبها مشكلات

(١) ابن قيم الجوزية: (تحفة المودود بأحكام المولود) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٩، ص ١١.

(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن.

كبيرة بعد أن يكبر؛ ومن هنا كان ضروريًا أن تختار الأسماء وتتقّى. وفي فصل عن تغيير الاسم باسم آخر لمصلحة تقتضيه... قال أبو داود:

«وغير رسول الله ﷺ حربًا إلى (سما) وسمى المضطجع (المنبعث) وأرضًا يقال لها عفرة (خضرة) وشعب الضلالة إلى شعب (الهدى) وبنى الزينة سماهم بنى (الرشيدة).

وكما أن تغيير الاسم يكون لقبحه وكرهيته (كأن يسمى الأب ابنه بالخيل - الكلب - الزبال - العفش - المحروم - إلخ)؛ فقد يكون التغيير لمصلحة أخرى مع حسنه... كما غير اسم (برة بزنب) حرصًا على سلامة المخاطبة بعد ذلك؛ فكيف يستقيم المعنى عندما أقول خرجت من عند برة أو يقال: كنت عند برة!!

ويذكر ابن قيم الجوزية في الفصل نفسه أن النبي ﷺ قد غير اسم المدينة المنورة، وكان (يثرب) فسمّاها (طيبة) كما في الصحيحين عن أبي حميد، قال: «أقبلنا مع النبي ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة فقال هذه (طيبة)»، وبنه ابن قيم الجوزية على ضرورة التفاهم بين الأب والأم^(١) على اختيار الاسم - ولو أنه قرر أن الأبوين إذا تنازعا في تسمية الولد فهي للأب... فيقال دائمًا ابن فلان وبنت فلان.

قال تعالى: ﴿ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾.

ولما كانت عملية التطبيع الاجتماعي، تعد من أهم العمليات التي يمر بها الإنسان منذ ولادته، فقد اهتم ابن قيم الجوزية بهذه المرحلة اهتمامًا كبيرًا محددًا مطالب النمو الاجتماعي، وما تتطلبه من تفاعل... فقدم في دراسته مجموعة من الملاحظات المهمة، التي تعد بمثابة برنامجًا للتوجيه والإرشاد النفسى فى رعاية الطفولة، فيذكر هذه الإرشادات على الوجه الآتى:

* ضرورة تقبيل الأولاد والحنو عليهم والرقّة فى معاملتهم.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود. «فصل تسمية الأولاد» ص ١٠٤ .

* وجوب تأديب الاولاد وتعليمهم والعدل بينهم فى العطاء والمنع . وإذا كانت هذه الإرشادات قد قدمها على وجه العموم . . فإننا نراه قد استفاد فى شرح بعض المهام ، التى ينبغى مراعاتها فى تربية الأطفال ، وهى :

فى امر تغذية الطفل

١- ينبغى أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة ، لما فى لبنها فى ذلك الوقت من الغلظ والإخلاط .

٢- ينبغى أن يمنع من حمل الأطفال والتطواف بهم ؛ حتى يأتى عليهم ثلاثة أشهر فصاعداً لقرب عهدهم بيطون الأمهات .

٣- ينبغى أن يقتصر بهم على اللبن وحده إلى نبات أسنانهم لضعف معدتهم وقوتهم الهاضمة عن الطعام ، فإذا نبتت أسنانه قويت معدته وتغذى بالطعام . . فإن الله سبحانه وتعالى قد أخرج إنباتها إلى وقت حاجته إلى الطعام لحكمته ولطفه ، ورحمة منه بالأم وحلمة نديها فلا يعرضها الولد بأسنانه .

٤- ينبغى تدريب الطفل فى الغذاء ، فأول ما يطعم اللبن والخبز المنقوع فى الماء الحار واللبن الحليب ، ثم بعد ذلك الطيبخ والأوراق الخالية من اللحم ، ثم بعد ذلك ما لطف جداً من اللحم بعد إحكام مضغه أو رضه رضاً ناعماً .

ويرى ابن قيم الجوزية أن هناك من الأمور التى تطرأ على الطفل فى نموه ، وهى ما يخص حركاته ، نذكرها فيما يلى :

فى متابعة نمو الطفل وحركاته :

١- إذا قرب الطفل من وقت التكلم وأريد تسهيل الكلام عليه ، فليدلك لسانه بالعسل والملح والاندراى ، لما فىهما من الجلاء للرطوبات الثقيلة المانعة من الكلام .

٢- إذا جاء وقت نطقهم فليكن أول ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه وتعالى

وتوحيده، وأنه سبحانه فوق عرشه، ينظر إليهم ويسمع كلامهم وهو معهم أينما كانوا.

٣- إذا حضر وقت نبات الأسنان . فينبغي أن تدلك لثاهم كل يوم بالزبد والسمن، ويمرغ حذر العنق تمريناً كثيراً، ويحذر عليهم كل الحذر وقت نباتها إلى حين تكاملها وقتها من الأشياء الصلبة، ويمتنعون منها كل المنع لما في التمكن منها من تعريض الأسنان لقساده وتعييجها وخللها.

٤- ولا ينبغي أن يشق على الأبوين بكاءه وصراخه، ولا سيما لشربه اللبن إذا جاع فإنه يتنفذ بذلك البكاء انتفاعاً عظيماً . فإنه يروض أعضائه ويوسع أمعاءه، ويفسح صدره ويسخن دماغه ويحمي مزاجه، ويشير حرارته الغريزية، ويحرك الطبيعة لدفع ما فيها من الفضول، ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وغيره.

٥- وينبغي أن يوقى الطفل من كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنينة والمناظر الفظيعة والحركات المزعجة . فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها، فلا يتنفذ بها بعد كبره.

مرحلة الفطام وأهميتها

يعطى ابن قيم الجوزية أهمية كبيرة لمرحلة الفطام، واسترشد أن الله تعالى قد ذكر في أمر الفطام والرضاعة (والوالدات يرضعن أولادهن حولين . . الآية إلى قوله تعالى: إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف).

قد حددت الآية الكريمة أن تمام الرضاع حولان، وذلك للولد إذا احتاج إليه . . . وأن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما، مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك.

وينبغي للأم أن تتدرج في فطام الطفل، ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة، بل تعود به إياه وتمرنه عليه لمضرة الانتقال عن الألف والعادة مرة واحدة.

تحذيرات وتنبيهات في رعاية الطفل،

١- ينبغي أن تجنب الطفل كثرة الأكل والشرب، ويحدد ابن قيم الجوزية ذلك عندما يقول:

إن من أنفع التدبير لهم أن يعطوا دون شبعهم ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم وتقل الفضول في أبدانهم وتصح أجسادهم وتقل أمراضهم لقلة الفضلات.

٢- ومن يطعم الأطفال دون شبعهم، ترتفع قاماتهم وتعتدل أجسامهم، ويقل فيهم ما يعرض لغيرهم من الكرار ووجع القلب.

٣- وما ينبغي أن يحذر منه أن يحمل الطفل على المشي قبل وقت؛ لما يعرض في أرجلهم بسبب ذلك من الانتقال والاعوجاج بسبب ضعفها وقبولها لذلك.

٤- ينبغي مراعاة وقت طعام الطفل ووقت نومه وبوله وإخراجه.

في تربيته أخلاقه وتهذيبه،

ويرى ابن قيم الجوزية أن ما يحتاج إليه الطفل - غاية الاحتياج - الاعتناء بأمير خلقه؛ فإنه ينشأ عما عوده المربي في صغره من غضب ولباح وعجلة وخفة مع هواه وطيش وحدة وجشع؛ فيصعب عليه في كبره تلافى ذلك.

وتعتبر هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرر منها غاية التحرر فضحته، ويرى أن التربية والتنشئة الاجتماعية تلعب دوراً مهماً في الحراف أو اعتدال الأخلاق.

ويرى ابن قيم الجوزية أنه ينبغي مراعاة:

(أ) أن يتجنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء.

(ب) أن يعود الآباء والأمهات الأبناء العطاء، ويجنبوهم الكذب والخيانة (فإنه متى سهل عليهم سبيل الكذب والخيانة أفسد عليهم سعادة الدنيا والآخرة وحرّمهم من كل خير).

(ج) يجب أن نجنب الأطفال الكسل والبطالة والدعة والراحة؛ لأن أرواح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أرواح الناس، فالسعادة في الدنيا والسعادة في العقبى، لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب.

(د) الحذر كل الحذر من تكوين الطفل من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، وعشرة من يخشى فساد أو كلامه، أو الأخذ من يده بما يجعله منساقاً له تبعاً لأوامره الفاسدة.

(هـ) ينبغي أن نجنب الطفل كل العوامل، التي قد تؤدي به إلى الميوعة، وأن نعوذه السلوكيات، التي تجعله مؤدياً لدوره الاجتماعي والأخلاقي؛ تبعاً لأوامر الشرع وتعاليم الدين.

(و) تشجيع الطفل من الأمور الضرورية والاهتمام بقدراته، وتعليمه بعض المناشط وتشجيعه على ممارستها.

(ز) مراعاة استعدادات الطفل من الأمور المهمة، التي يرشدنا إليها ابن قيم الجوزية فيقول:

«وما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو مهيأ له. فإذا رأى الوالد أن الطفل حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واع فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعمل وإن رأى خلاف ذلك فعليه أن يحول طاقاته إلى أمور حرفية أخرى يجد فيها الطفل متناً لتوظيف هذه القدرات»^(١).

وهكذا.. استطاع ابن قيم الجوزية - من خلال دراسته - أن يتناول مرحلة الطفولة، وما تتطلبه من رعاية وإرشاد وتوجيه، يجعلانه في موضع الريادة لما نسميه اليوم بعلم النفس الارتقائي، أو علم نفس النمو.

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، ص ١٨٨٢.

◆ ابن جماعة والمعلم والمرشد

(نموذج إرشادي إسلامي في ضرورة الإعداد النفسي للمعلم والمتعلم)

- على المعلم أن يصون العلم، ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، فلا بد بذله بذاهبه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة، أو حاجة إلى من يتعلمه منه وإن عظم شأنه وكبر قدره.
- أن ينزه علمه عن جعله سلماً يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقدم على أقرانه.
- أن يحرص على تعليم طالبه وتفهمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير إكثار لا يجتمله ذهنه، أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لتوقف الذهن العبارة ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره^(١).

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، نسخة وحيدة مطبوعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٦٩٨٨ ب.

(*) ظهرت طبعة عن دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، وقد رجعنا إلى هذه الطبعة.

الإمام الجليل أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حارم بن صخر قاضي القضاة، بدر الدين الكنانى الحموى الشافعى (ولد عام ٦٩٣ وتوفى ٧٣٣هـ).

وهو أحد العلماء المسلمين، الذين قدموا لنا إسهاماتهم فى ضرورة تجويد العملية التعليمية، من خلال توطيد أواصر العلاقة الحميمة الحانية بين المعلم وطالبه، وقدم من خلال دراسته الموسومة باسم (تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم) (*) أهم ما يمكن أن يقال فى الإرشاد النفسى، ودور المعلم المرشد الموجه لطلابه لتتم العملية التعليمية على الوجه الأكمل.

فإذا كان هناك من يتصور الآن الإرشاد النفسى؛ على أساس أنه يمثل عبئاً جديداً يضاف إلى مهام المدرسين والمربين، وأن الإرشاد النفسى ماهو إلا أسلوب تقوم به جماعة أو أخصائى يعاون المعلم على تحقيق رسالته . . فإن ابن جماعة يرى أن الإرشاد النفسى من أهم المهام التى ينبغى أن تلقى على عاتق المعلم، وأن المعلم الذى لايقوم بالعملية الإرشادية لايقوى على أن يقوم بالمعلومات بالصورة المرضية . . فمهمة المعلم لا تنحصر فى إمداد الطلاب والتلاميذ بالمعلومات الواردة فى المناهج الدراسية، ولكنها تتجدد من خلال ما يقدمه من توجيهات وإرشادات، من شأنها أن ترقى بقدرات المتعلمين فى كافة الجوانب

وتنبه ابن جماعة أيضاً إلى ضرورة أن توجه العملية التعليمية نفسها لمصلحة

(*) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم نسخة وحيدة مطبوعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٦٩٨ (ب). ظهرت طبعة عن دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، وقد رجعنا إلى هذه الطبعة.

التلميذ، وكأنه ينبهنا إلى ضرورة الاهتمام بالتوجيه التعليمي، ذلك الذى يمثل الآن مشكلة المشكلات... فكثيراً ما نجد المشكلات التى تظهر من عدم صلاحية وضع الطلاب فى الموضع المناسب من الكليات المعاهد، وأن هناك من المحكات التى قد لا ترتقى إلى مستوى الموضوعية، يعتمد عليها فى تنسيق وتصنيف الطلاب... وقد تنبه أستاذ الجليل الدكتور عبد العزيز القوصى إلى هذه المشكلات، ومن خلال بحوثه الرائدة فى هذا المضمار، يقول: «يظن بعض الناس أن التوجيه ربما ينصب على التلميذ وحده، وأن هناك أنواعاً من التعليم يوجه لها التلميذ؛ بمعنى أننا نقوم بتوجيهه لهذا النوع أو ذاك من أنواع التعليم، التى لا يمكن أن يلحقها تبديل أو تغيير، ولكن هؤلاء ينسون أن عملية التوجيه تقوم على افتراض أنه يمكن تغيير كل من الطرفين: التلميذ من جهة والتعليم من جهة أخرى».

ويحدد الدكتور القوصى - فى دراسته - الهدف من التوجيه التعليمي، فيقول:

«أما الهدف الذى يسعى إليه المربون من وراء التوجيه التعليمي، فهو تهيئة الظروف التعليمية التى تكشف عن أحسن ما ينطوى عليه التلميذ، والعمل على توجيههم، بحيث يصبح من الممكن أن يطرد عنهم بعد هذا»^(١).

وهكذا... يتضح لنا أن كل مدرس مسئول عن رسالة الإرشاد النفسى لطلابه، والتى هى بدورها رسالة التربية ورسالة المدرسة ذاتها، وانطلاقاً من التصور الواسع لمهمة المعلم قد يكون من الممكن أن نقول إن الموقف الذى يتخذه المدرس من طلابه والاستعداد الذى يبديه نحو مساعدتهم على تصحيح أخطائهم، وعلى التغلب على ما يعترضهم من مشكلات وصعاب، يجعل من هذا المدرس مدرسا مرشداً موجهاً بدرجة من الدرجات.

وبقدر ما يزود المعلم نفسه بالمفاهيم التربوية وخصائص النمو وفتيات التدريس، بقدر ما يستطيع أن يؤدي دوره كمرشد وموجه. وحتى إذا كان هذا المدرس لم يؤهل التأهيل الكافي لمهمة الإرشاد، ولا يتمكن تماماً من فنياتها

(١) القوصى: فى مدلول التوجيه التعليمي وميدانه - صحيفة التربية، السنة السابعة، القاهرة، مايو ١٩٥٥

وأساليبها التقنية.. فإنه يستطيع أن يفعل كثيراً في توجيه الطلاب وإرشادهم، لو أنه اعتمد على الملاحظة الدقيقة لطلابه، وتتبع إجاباتهم عن أسئلته الشفوية والتحريرية ومناقشاتهم داخل الفصل وإجاباتهم المنزلية ومواقفهم المختلفة، من شخصه ومن المدرسة ومن النشاط المدرسي، ومن زملائهم في الفصل.

آداب المعلم في نفسه:

يستهل ابن جماعة دراسته في أدب العالم في نفسه ومع طلبته ودرسه بذكر فضل العلم والعلماء، مسترشداً بقول الله تعالى:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

وقال تعالى:

﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾.

وقال تعالى:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

وقال تعالى:

﴿أولئك هم خير البرية﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشى ربه﴾.

فاقتضت الآيتان الكريمتان أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى، وأن الذين يخشون الله تعالى هم خير البرية.. فيتتبع أن العلماء خير البرية.

ويؤكد ابن جماعة أن العلماء أصحاب الفضيلة هم العاملون الأبرار المتقون، الذين يقصدون بالعلم وجه الله الكريم.

واعتماداً على هذه المنزلة الرفيعة للعلم.. يحدد ابن جماعة آداب رجل العلم في نفسه على الوجه الآتي^(١):

* دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله.. فإن المعلم أمين على ما أودع من العلوم، وما

(١) رجل العلم في تصور ابن جماعة هو المعلم الذي يقوم بالتدريس للطلاب، وهو أعلى منزلة وأعظم شأنًا من أي إنسان آخر، ارجع إلى «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والتعلم» لابن جماعة ص ٣٨ طبعة بيروت - ١٩٨٠ - دار الكتب العلمية.

منح من الخواص والمفاهيم والآراء؛ فحق للمعلم أن يتواضع لله في سره وعلايته ويحترس من نفسه، ويقف على ما أشكل عليه.

* أن يصون العلم ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، فلا يذله بلهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا، من غير ضرورة أو حاجة أو إلى من يتعلمه منه منهم، وإن عظم شأنه وكبر قدره.

* أن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقلل منها بقدر الإمكان، الذي لا يضر بنفسه أو بعياله.

* وأقل درجات للعالم أن يستقدر التعلق بالدنيا، لأنه أعلم الناس بخستها وفتنتها وسرعة زوالها وكثرة تعبها نصبها، فهو أحق بعدل الالتفات إليها والاشتغال بمفهومها.

* أن ينزه علمه عن جعله سلماً يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية، من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقدم على أقرانه.

* أن يتنزه عن دنىء المكاسب ورذيلها طبعاً وعن مكروهاها عادة وشرعاً، وكذلك يتجنب مواضع التهم، وإن بعدت ولا يفعل شيئاً يتضمن نقص مروءة أو ما يستنكر ظاهراً وإن كان جائزاً باطناً.. فإنه يعرض نفسه للتهمة وعرضة للوقية.

* أن يحافظ على القيام بشعائر الدين وظواهر الأحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى بأذى نفسه لله، لا يخاف فيه لومة لائم، ويرى ابن جماعة أن العالم لابد وأن يتنفع بعلمه فينعكس على تصرفاته وسلوكه، وإذا لم يتنفع العالم بعلمه فغيره أبعد عن الانتفاع به^(١).

* على المعلم أن يعامل الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه وإلقاء السلام وإطعام الطعام وكظم الغيظ وكف الأذى عن الناس، واحتماله منهم والإيثار وترك الانتشار والإنصاف وترك الاستنصاف، وشكر التفضل والتلطف بالفقراء والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرهم.

(١) قال الشافعي رضي الله عنه: ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع، ولهذا عظمت رثة العالم، لما يترتب عليها من الفساد لاقتناء الناس به.

« أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة، ويعمره بالأخلاق المرضية، فمن الأخلاق الرديئة (الغل والحسد والبغى والغضب لغير الله تعالى والغش والكبر والعجب والسمعة والبخل والخبث والبطر والطمع والفخر والخيلاء والتنافس في الدنيا والمباهاة بها والمداهنة والتزين للناس وحب المدح بما لم يفعل والعنى عن عيوب النفس والاشتغال عنها بعيوب الخلق والغيبة والنميمة والبهتان والكذب والفحش في القول واحتقار الناس ولو كانوا دونه فالحذر كل الحذر من هذه الصفات الخبيثة والأخلاق الرديئة فإنها باب كل شر، بل هي الشر كله).

ويشير ابن جماعة إلى جوانب إرشادية مهمة، ترتقى إلى مستوى البرامج الإرشادية، لما تحتويه من فنيات وجوانب، من شأنها أن تعالج هذه السلوكيات الرديئة السابقة، وكأنه يقدم ما اصطلاح عليه الآن بلغة علم النفس المعاصر تعديل السلوك Behaviour modification . . فمن أراد أن يطهر النفس من هذه الصفات، فعليه أن يداوى الحسد بالفكر العميق، الذي يراه بأنه اعتراض على الله سبحانه وتعالى في حكمته المقتضية تخصيص المحسود بالنعمة، ومن هنا فالحاسد معترض على مشيئة الله .

أما بالنسبة للعجب والزهو بنعم الله إلى مستوى الاستهزاء بالآخر . . فإن الدواء أن يتذكر الإنسان أن علمه وفهمه وجودة ذهنه وفصاحته، وغير ذلك من النعم فضل من الله عليه وأمانة عنده ليرعاها حق رعايتها، وأن معطيه قادر على سلبها منه في طرفة عين، وما ذلك على الله بعزيز.

ومن أدوية الرثاء للفكر بأن الخلق كلهم لا يقدر على نفع الإنسان، إلا إذا أراد الله ذلك ولا على ضيره، بما لم يقدره الله تعالى عليه^(١).

ومن أدوية احتقار الناس، يناشدنا ابن جماعة أن نتدبر قول الحق تعالى:

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾.

(١) قال رسول الله ﷺ: «من سمع الله به ومن براء الله به» متفق عليه.

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ .

ومن الأخلاق السوية دوام التوبة والإخلاص واليقين والتقوى والصبر والرضا والقناعة والزهد والتوكل والتفويض وسلامة الباطن وحسن الظن والتجاوز وحسن الخلق ورواية الإحسان، وشكراً لنعمه والشفقة والحياء من الله تعالى ومن الناس ومحبة الله هي الخصلة الجامعة لمحاسن الصفات كلها، ولنا في رسول الله أسوة حسنة .

* على المعلم أن يداوم الحرص على الازدياد بالمعرفة، بملازمة الجد والاجتهاد، وأن يعد نفسه الإعداد العلمي والثقافي، وأن يستغل وقته بما يؤيده في تخصصه . ومع ذلك ينبه ابن جماعة إلى ضرورة ألا يحمل المعلم نفسه فوق طاقتها كي لا تسأم وتمل وربما نفرت نفرة لا يمكنه تداركها، بل يكون أمره في ذلك قصداً وكل إنسان أبصر بنفسه .

* ألا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه عن هو دونه منصباً أو نسباً أو سنناً، بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت . . . فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها .

* على المعلم أن يهتم بالتصنيف والجمع والتأليف، وأن يحاول أن يجمع حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة، ويضع ابن جماعة مجموعة من المحركات؛ لكي يتم للمعلم ما يريد من التأليف على الوجه الآتي :

- ١- أن يعتنى بما يعم نفعه وتكثر الحاجة إليه .
- ٢- ليكن اعتناؤه بما لا يسبق إلى تصنيفه .
- ٣- أن يتحرى إيضاح العبادة في تأليفه .
- ٤- أن يعتمد عن التطويل الممل والإيجار المخل، مع إعطاء كل مصنف ما يليق به .

٥- أن يراجع تصنيفه بحيث لا يخرج من يده، قبل تهذيبه وتكرير النظر فيه وترتيبه.

آداب المعلم في درسه:

يرى ابن جماعة أن المعلم بعد أن يتصف بهذه الصفات في نفسه والحرص على أن يتزود بها.. فإن هناك مجموعة من الآداب، التي ينبغي مراعاتها في درسه، وكأنه يؤكد الحقيقة التي تتردد كثيراً في مضمار الصحة النفسية، وهي (فاقد الشيء لا يعطيه)؛ بمعنى أن الإنسان إذا كان متوافقاً مع نفسه.. انعكس هذا التوافق في تعامله مع الآخرين، ومن هنا نجد ابن جماعة يضع بعض الآداب للمعلم؛ لكي يقدم درسه لطلابه على الوجه الأكمل؛ إذ لابد من مراعاة الجوانب الآتية:

١- أن يجهز نفسه إذا عزم على مجلس التدريس، بأن ينظف نفسه ويتطهر ويلبس أحسن ثيابه اللائقة به، بحيث يعظم العلم من خلال مظهره المشرف.

٢- أن يدعو الله بالتوفيق ويحاول أن يتجنب الحركات العشوائية، التي قد تشغل بال الطلاب، وأن يتعد عن كل الأفعال التي تقلل الهيبة.

ولا يدرس في وقت جوعه أو عطشه أو همه أو غضبه أو نعاسه أو قلقه فربما أجاب أو أفتى بغير الصواب.

٣- أن يجلس بارزاً لجميع الحاضرين ويلتفت إليهم التفاتاً قصداً بحسب الحاجة ويخص من يكلمه أو يسأله، أو يبحث عن الذي يحتاج إلى مزيد من الالتفات إليه والإقبال عليه.

٤- يرى ابن جماعة إذا تعددت الدروس.. فعلى المعلم أن يقدم الأشرف فالأشرف والأهم فالأهم (مثلاً يقدم تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين ثم أصول الفقه).

٥- يقدم ابن جماعة بعض النصائح للمعلم أثناء التدريس، بأن يطالب المعلم أن

يقف فى مواضع الوقف، وأن يصل الخبرات بعضها ببعض ولا يتقيد بمصنف أو مؤلف بغية عدم تطويل الفكرة الواحدة، مع مراعاة التشويق وإثارة المستمع، ولا يرفع صوته رائداً عن قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة.

٦- أن يصون مجلسه عن اللفظ فإن الغلط تحت اللفظ، وأيضاً ينبغى أن يسان المجلس عن رفع الأصوات واختلاف جهات البحث.

٧- أن يزجر من تعدى فى بحثه أو ظهر منه سوء أدب أو أكثر الصياح بغير فائدة وساء أدبه على غيره من الحاضرين والغائبين، أو ترفع فى المجلس على من هو أولى منه أو نام أو تحدث مع غيره أو ضحك أو استهزأ بأحد الحاضرين.

٨- أن يلازم المعلم الإنصاف فى بحثه ويسمع السؤال من مورده على وجهه، إن كان صغيراً ولا يترفع عن سماعه فيحرم الفائدة، وإذا سأل أحد الطلاب المعلم عن مالم يعلمه قال: لا أعلمه أو لا أدري، فمن العلم أن يقول لا أعلم... وعليه أن يرجع إلى المصنفات والكتب لكى يتثبت من صدقه وصحة إجاباته.

٩- أن يختم الدرس وأن يقف عند فكرة تمكته من استئناف درسه فى المرة القادمة، بطريقة مشوقة تمكن المستمع من الاستزادة أكثر، والاستمتاع بما يسمعه لأنه يشعر بحاجته إليه.

آداب المعلم مع طلبته:

١- أن يقصد المعلم بتعليم طلابه وتهذيبهم وجه الله تعالى وإحياء العلم ونشره، ودوام ظهور الحق وخمول الباطل، وأن يرغبهم فى العلم وطلبه.

٢- أن يحب المعلم لطلابه ما يحبه لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه، وينبغى أن يعتنى بمصالح الطالب، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من العفو والشفقة عليه والإحسان إليه، والصبر على جفاء ربما وقع منه أو نقص

لا يكاد يخلو الإنسان منه وسوء أدب في بعض الأحيان، ويبسط عذره بحسب الإمكان.

٣- يوجهه ويرشده نفسياً على ما قد يصدر منه من سلوكيات غير سليمة بلطف بعيداً عن القسوة، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شأنه... ويقول ابن جماعة: «إذا عرف الطالب توجيهات المعلم لذكائه بالإشارة فلا حاجة إلى صريح العبارة وإن لم يفهم ذلك إلا بصريحها أتى بها وراعى التدريج في التلطف»^(١).

٤- أن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه وحسن التلطف في تفهيمه، لاسيما إذا كان أهلاً لذلك لحسن أدبه وجودة طلبه.

٥- وينبه ابن جماعة إلى ضرورة مراعاة الاستعدادات والقدرات لدى الطلاب، بحيث لا تقدم لهم معلومات أكبر من قدراتهم أو تفوق تهيؤهم واستعداداتهم، فيقول: ينبغي على المعلم أن «لا يلقي رلى الطالب ما لم يتأهل له لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه»^(٢).

٦- أن يحرص على تعليمه وتفهمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير إكثار، لا يحتمله ذهنه أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره.

وهنا يتضح أن ابن جماعة ينبه إلى ضرورة مراعاة الفروق الفردية، بل يضع لها البرامج الإرشادية التي تجعل المعلم يتابع هذه الفروق، ويعمل على تزويدها بحيث يرتفع بالآقل قدرة وينمى أصحاب القدرات العالية^(٣).

٧- أن يطالب الطلبة بإعادة ما قد حفظوه، ويمتحن ضبطهم لما قدم لهم من القواعد المهمة والمسائل الغريبة.

(١، ٢) ابن جماعة: تذكرة السامع والتكلم في أدب العالم والمتعلم ص. ٥٢-٥٣ (في أدب العالم مع طلبته).

(٣) أرجع إلى رأى ابن جماعة في أمر إرشاد الطلاب أصحاب القدرات الأقل ص ٥٣. (تذكرة السامع والتكلم في أدب العالم والمتعلم).

ومن هذا المنطلق يؤكد ابن جماعة ضرورة الثواب والعقاب حيث ينبه المعلم إلى ذلك، ويؤكد مافى الثواب والعقاب من تجويد، فمن يراه المعلم مصيباً في الجواب فلا بد وأن يشكره لكي يبعثه على الاجتهاد في طلب الازدياد، ومن رآه مقصراً فلا بد من تشجيعه وتأييده في الوقت نفسه على علو الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم؛ لاسيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطاً والشكر انبساطاً^(١).

٨- ألا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض، وكذلك لا يقدم أحداً في نوبة غيره أو يؤخره عن نوبته إلا إذا رأى في ذلك مصلحة تزيد على مصلحة مراعاة النوبة.

٩- وينبه ابن جماعة إلى ضرورة الاقتصاد في الجهد وتوزيع الوقت والطاقة بما يتفق وقدرة الطالب على التحمل؛ فيؤكد ابن جماعة ذلك قائلاً: إذا سألك الطالب في التحصيل فوق ما يقتضيه حاله أو تحمله طاقته، فينبغي أن ترفق به وتعلمه أن يورع مجهوده وطاقاته بما يحمله على الأناة والاقتصاد في الاجتهاد، وكذلك إذا ظهر له منه نوع سامة أو ضجراً.

١٠- على المعلم أن يراقب أحوال الطلبة في آدابهم وهديبهم وأخلاقهم باطناً وظاهراً، وكذلك يدعم أواصر المحبة والمودة بين طلابه، من خلال ما يعامل به بعضهم بعضاً من إفشاء السلام وحسن التخاطب في الكلام والتحاسب والتعاون على البر والتقوى. وعلى المعلم أن يسعى لتحقيق مصالح الطلبة وجمع قلوبهم ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاء ومال. فإن الله تعالى في عون العبد مادام العبد في عون أخيه؛ ولاسيما إذا كان ذلك إعانة على طلب العلم الذي هو أفضل القربات.

ويقدم ابن جماعة بعض السلوكيات، التي تتضمن أخلاقيات، لا ينبغي أن يغفلها المعلم كمرشد وموجه، على الوجه الآتى:

(١) المرجع السابق ص ٥٥.

* إذا غاب بعض الطلبة غياباً رائداً عن العادة، سأل عنه وعن أحواله عن كل ما يتعلق به... فإذا لم يعلم عنه شيء أرسل إليه أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل.

* إذا كان الطالب مريضاً عادة إن كان في غم خفض عليه، وإن كان مسافراً تفقد أهله ومن يتعلق به وسأل عنهم وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانه، وإن لم يكن شيء من ذلك تردد عليه ودعا له.

(أعلم أن الطالب الصالح أعود على المعلم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه وأقرب أهله إليه).

* أن يتواضع من الطالب وكل مسترشد سائل، إذا قام بما يجب عليه من حقوق الله تعالى وحقوقه، ويخفض له جناحه بلين له جانبه.

وإذا كان ابن جماعة قد عرض لنا هذا التكامل بين جوانب شخصية المعلم وعلاقته كموجه ومرشد لطلابه... فإن ابن جماعة قد حدد أيضاً ضرورة أن يتزود الطالب نفسه ببعض العوامل، التي تجعله أهلاً لتلقى العلم ومنبتاً صالحاً لغرس بالمعلم وتوجيهاته.

لقد نهج ابن جماعة المنهج نفسه الذي اتبعه في تفصيل جوانب المعلم من حيث أدبه مع نفسه، ومع درسه، ومع طلابه، فإننا نجد أيضاً قد حدد في دراسته في آداب المتعلم الجوانب نفسها، من حيث فروعها الثلاثة على الوجه الآتي:

أولاً: آداب الطالب مع نفسه

* أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق؛ ليصلح لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه.

* أن يكون حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى، والعمل به وإحياء الشريعة وتنوير قلبه، وتحلية باطنه والقرب من الله تعالى.

* أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التحصيل لا يفتر بخدع التسريف.. فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها.

* على الطالب أن يقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجهد في التحصيل؛ «فالعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك».

* أن يقنع الطالب بمعيشته ومن القوت بما تيسر، وإن كان يسيراً ومن اللباس بما يستر؛ فالصبر على ضيق العيش يؤدي إلى سعة العلم.

* أن يقسم وقته تقسيماً عادلاً؛ بحيث لا يحرم نفسه من الترويح وأجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبحاث، وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل.

* أن يتجنب كثرة الأكل.. فإن كثرة الأكل تؤدي إلى البلادة وقصور الذهن وفقر الخواص وكسل الجسم، إلى جانب التعرض لخطر الأسقام البدنية.

* أن يأخذ بالورع ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه.

* أن يحرص على رياضة البدن أو المشي وأن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره، إذا كل، وأن ينتزه ويروح عن نفسه بحيث يستعيد نشاطه وحيويته، وأن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة عن ثماني ساعات.

ثانياً: آداب الطالب مع معلمه (شيخه)

يحدد ابن جماعة مجموعة الآداب التي ينبغي أن يراعيها طالب العلم مع معلمه، على الوجه الآتي:

(١) أن يطيع معلمه ولا يخرج عن رأيه وتدييره.. بل سيكون معه على حد تعبير ابن جماعة (كالمريض مع الطبيب الماهر فيشاوره فيما يقصده ويتحرى رضاه

فيما يعتمد ويبالغ في حرمة وليعلم الطالب أن ذله لشيخه عز وخضوعه له فخر وتواضعه له رفعة^(١).

(ب) أن ينظر إلى المعلم بعين الإجلال ويعتقد فيه درجة الكمال.. فإن ذلك أقرب إلى نفعه به، ولا ينبغي أن يناديه باسمه إلا مقروناً بما يشعر بتنظيمه.

(ج) أن يعرف له حقه ولا ينسى له فضله وأن يصبر على جفوته، وأن يشكر الشيخ (المعلم) على توفيقه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقیصة أو على كسل يعتره أو قصور يعانيه.

(د) أن يستأذن قبل أن يدخل على المعلم، وأن يحرص على أن يكون كامل الهيئة معطر البدن والثياب، وإذا دخل على المعلم وكان معه من يتحدث معه فسكتوا عن الحديث.. فعلى الطالب أن يسلم ويخرج سريعاً إلا أن يحثه المعلم على البقاء... وحتى إذا بقى في الغرفة فعليه ألا يطيل إلا إذا أمره المعلم بذلك.

(هـ) أن يجلس بين يدي المعلم جلسة الأدب بتواضع وخضوع وسكون وخشوع، ويصغى إلى المعلم ناظراً إليه بعمق انتباه متعلقاً لقوله بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية، ولا يثقلت من غير ضرورة ولا يعث بما في أنفه ولا يفتح فاه ولا يشبك يديه أو يعث بأزراره وإذا ثاءب ستر فاه.

(و) أن يحسن مخاطبة أستاذه، وأن يتحفظ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس في كلامه.

(ز) إذا سمع أستاذه (معلمه) يذكر حكماً في موضوع أو يدلي برأى في مشكلة.. فعليه أن يصغى إليه إصغاء مستفيد له متعطش إليه، فرح به كأنه لم يسمعه قط، وإذا لم يسمع كلام المعلم لبعده، أو لم يفهم بعض الآراء التي طرحها.. فله أن يسأله المعلم أن يعيد تفهيمه بعد بيان عذره بسؤال لطيف.

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص ٨٧ (في آداب الطالب مع شيخه).

(ج) على الطالب ألا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سواء منه أو من غيره ولا يسابقه فيه ولا يظهر معرفته به أو إدراكه له قبل الشيخ، إلا إذا عرض عليه المعلم ذلك، ولا ينبغي أن يقطع على المعلم كلامه أى كلام كان، بل عليه بالصبر حتى يفرغ الشيخ ثم يتحدث معه أو مع جماعة المجلس.

(ط) إذا مشى الطالب.. فإن هناك آداباً للمشى مع المعلم، يحددها ابن جماعة فى قوله «إذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل وخلفه بالنهار إلا أن يقتضى الحال... وإذا مشى أمامه التفت إليه بعد كل قليل ولا يمشى بجانب الشيخ إلا لحاجة أو إشارة منه ويحترز من مزاحمته بكتفه أو بركابه، إن كانا راكبين وملاصقة ثيابه، ويؤثره بجهة الظل فى الصيف وبجهة الشمس فى الشتاء وبجهة الجدار فى الرصفانات ونحوها»^(١).

ثالثاً: آداب الطالب فى دروسه

يرى ابن جماعة أن هناك بعض الأمور، التى ينبغى مراعاتها بالنسبة لطالب العلم تتعلق بدروسه، وهى بمثابة آداب ينبغى أن يتحراها طالب العلم بدقة، إذا أراد لنفسه أن تبلغ شأنًا فى مضمار العلم؛ فينبغى على الطالب من وجهة نظر ابن جماعة:

* أن يتدبّر بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظاً، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه فإن أصل العلوم وأهمها وأهمها، ثم عليه بحفظ مختصر من كل فن على أن يلازم القرآن الكريم.

* أن يحذر فى ابتداء أمره من الاشتغال فى الاختلافات بين العلماء، أو بين الناس، بل عليه أن يتقن العلم أولاً، ثم يدخل بعد ذلك فى المناقشات ويتعامل مع الاختلافات.

* على الطالب أن يصحح ما يقرؤه قبل حفظه تصحيحاً متقناً، إما بالاسترشاد بأستاذه أو بسؤال الزملاء، وعليه أن يجهز نفسه بالأدوات الدراسية، التى تساعد على أن يسجل أفكاره وما يسمعه من معلومات.

(١) تذكرة السامع والتكلم ص ١١٠.

* أن يتعد عن الغرور والنظر إلى نفسه بعين الكمال، الذي يجعله في حالة استغناء عن المعلم فإن ذلك عين الجهل وقلة المعرفة^(١).

* أن يتأدب مع الزملاء ويعاملهم بالحسنى وأن لا يستحى من سؤال ما أشكل عليه، وتفهم ما لم يتعقله بثلطف وحسن خطاب وأدب وسؤال، وكذلك لا ينبغي للطالب أن يستحى من قوله: لم أفهم إذا سأله أستاذه؛ لأن ذلك يفوت عليه كما يرى «ابن جماعة» مصلحته العاجلة والآجلة، أما العاجلة فحفظ المسألة ومعرفتها واعتقاد أستاذه فيه الصدق والورع والرغبة والآجلة سلامته من الكذب والنفاق واعتياده التحقيق^(٢).

* أن يساعد الزملاء ويرغبهم في التحصيل ويدلهم على الكتب والمراجع، التي تساعدكم ويصرف عنهم الهموم التي تشغلهم ويهون عليهم، ومن يبخل على الزملاء لا يثبت علمه وحتى إن ثبت فلا ثمرة له.

وإذا كان ابن جماعة قد أعطى الموضوع حقه؛ من حيث تناوله للعملية التعليمية والعلاقة الإشادية، التي ينبغي أن تتوافر بين المعلم وطالبه.. فإن ابن جماعة قد أعطى اهتمامه إلى الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم، وحذر من العبث بالكتب واحترام التعامل، واعتبارها أمانة في عنقك، تسلمها لأهلك إذا كانت ملكك أو تسلمها للآخر إذا كانت معارة لك، ومثل هذه الآراء التي أفاض ابن جماعة في شرحها في دراسته - التي نحن بصددتها - قد جعلتنا نتبين كيف كان هذا العالم الجليل موجهاً ومرشداً، حيث تناول العملية التعليمية من جميع جوانبها.

ويستطيع المتأمل المنصف والدقيق لدراسة ابن جماعة عن آداب سكنى المدارس أن يتبين كيف تنبه العالم الجليل إلى المشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والصحية لنظام (الداخلية)، أعنى به نظام السكن داخل المنشأة التعليمية؛ بحيث

(١) يسترشد ابن جماعة بقول ابن جبير: لا يزال الرجل عالماً ما تعلم ماذا ترك التعلم، وظن أنه استغنى فهو أجهل ما يكون.

(٢) في آداب الطالب مع درسه ص ١٦٠.

لنجد ابن جماعة قد قدم أعظم البرامج الإرشادية لتخطيط المدارس وطرق معاملة الطلاب داخل المدارس. والظريف أنه قنبه منذ التاريخ القديم إلى المشكلات، التي نعاني منها الآن ونقف أمامها في حيرة وقلق، مثل:

- * الكتابة على جدران دورات المياه وجدران المدرسة بصورة بلديّة أو معيبة.
- * العبث بأدوات المدرسة وتخطيطها وكيف يحرص الطلاب عليها.
- * ضرورة إحساس الطلاب بالانتماء إلى مدرستهم أو إلى مؤسساتهم التعليمية.
- * آداب الدخول والخروج من المدارس وآداب النزول والصعود.
- * النهي عن الجلوس في مداخل المؤسسات التعليمية
- * الأدب في المشي داخل المؤسسة التعليمية، والحذر من معاكسة الجيران المحيطين بالمنشأة التعليمية.
- * منع الطلاب من التجرد عن الثياب في المواضع المكشوفة في المدرسة، وتجنب العادات القبيحة كالضحك الفاحش، أو الصعود إلى سطح المدارس من غير حاجة أو ضرورة.
- * الاهتمام بملابس الطلبة وحثهم على الاعتدال في اللبس والحشمة والتحفظ والحرص على سمعة المنشأة.

وهكذا:

استطاع العالم الجليل ابن جماعة أن يضع أمامنا مشروعًا للإعداد الفنى التربوى للمعلم والطالب، نجد فيه الروح العصرية والاتجاهات التربوية النابعة من تعليم الدين الإسلامى الخفيف، والمؤكد حقيقة مهمة مؤداها: «إن التربية الإسلامية تربية شمولية تهتم بجوانب الإنسان المتعددة، وأن التعاليم الإسلامية تعاليم كل عصر وكل زمان؛ لما تحتويه من أصالة وقيم ورؤية نفسية وعضوية وثقافية وحضارية».

وما أحوجنا هذه الأيام إلى الالتزام بقواعد هذا النموذج الإرشادى، الذى يجعل المعلم فى صورته السوية، ويحدد المسار السليم للعملية التعليمية.

◆ أبي الفرج الجوزي والقدرات العقلية

• أجل القدرات موهبة العقل فإنه الآلة في تحصيل المعرفة وبه تضبط المصالح وتلحظ العواقب وتترك الفواض وتجمع الفضائل.

• العقلاء يتفاوتون في موهبة العقل، ويتباينون في تحصيل ما يتقنه من التجارب والعلم.

• حلا الذكاء سرعة الفهم وحلته والبلادة جموده^(١).

• إذا بلغك أن غنياً افتقر فصديق، وإذا بلغك أن فقيراً استغنى فصديق، وإذا بلغك أن حياً مات فصديق، وأما إذا بلغك أن أحق استغاد عقلاً فلا تصديق^(٢).

(١) أبي الفرج الجوزي: الأذكياء: المكتب التجاري - بيروت - ١٩٦٦ .

(٢) أبي الفرج الجوزي: أخبار الحمقى والغفلين: المكتب التجاري - بيروت، ١٩٥٠ .

ظهرت طبعة جديدة لهذه الكتب عن مكتبة الغزالي - بيروت، ١٩٨٠ .

العالم الجليل أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي محمد بن علي ابن عبيد الله الجوزي، ولد في بغداد سنة ٥٠٧هـ وتوفي سنة ٥٩٧هـ، وقد ذكر ابن الأثير^(١) أن أبو الفرج الجوزي كان علامة عصره في التاريخ والحديث والوعظ، وما يتصل بحال الإنسان من عوامل نفسية وقدرات عقلية والجدل والكلام.

ولقد تميز بالفكر المنهجي والاسترشاد بالمواقف؛ ليخرج منها بالدرس المستفاد. . وكان يهتم بأحوال الإنسان وقدراته في توظيف العقل، يعطى أصحاب القدرات العقلية العالية شأنًا عظيمًا في كتاباته، وينادي بضرورة الاهتمام بهذه القدرات. وكان رحمة الله عليه، له جلد عجيب على التدوين والكتابة، فهو أحد العلماء الكثيرين من التصنيف في الموعظة والتاريخ والحديث والفقه والطب والدراسات المهمة بالقدرات العقلية. . . ولعل أشهر مؤلفاته:

- ١- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.
 - ٢- المدهش في المواعظ وغرائب الأخبار.
 - ٣- صفوة الصفوة في التراجم.
 - ٤- الأذكىاء وأخبارهم.
 - ٥- روح الأرواح.
 - ٦- الحسن البصري سيرته وآدابه.
 - ٧- أخبار الحمقى والمغفلين.
- يلذكر أبي الفرج الجوزي في ماهية العقل ومحلّه^(٢) أن العقل ينطلق بالاشتراك

(١) ابن الأثير: (الكامل في التاريخ) مجلد ١٠ ص ٦٤٠ .

(٢) أبي الفرج الجوزي: الأذكىاء في ذكر ماهية العقل ومحلّه ص ١٠ .

على أربعة معانٍ، أحدها (الوصف) الذى يفارق به الإنسان البهائم، وهو الذى استعد لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذى أراد من قال غريزة. وبضيف أبى الفرج الجوزى إلى كل ذلك أن العقل فى هذه المرحلة الأولى يمثل النور، الذى يقذف به فى القلب ليستعد بواسطته لإدراك الأشياء.

أما المعنى الثانى للعقل،

فيتجلى من خلال ما وضع فى الطباع من العلم بجوار الجائزات واستحالة المستحيلات.

والمعنى الثالث للعقل،

ما يحصله من مجموعة العلوم التى يستفيد منها الإنسان، وتعتبر محصلة تجاربه وخبراته.

المعنى الرابع للعقل،

يتجلى فى وقته الغريزية، التى تقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة؛ بحيث يتحكم العقل فى جموع هذه الشهوة، ويهذب من حدتها ومطالبها الضاغطة على الإنسان.

ويرى أبو الفرج الجوزى أن الناس يتفاوتون فى هذه الأحوال المصاحبة للمعانى السابقة إلا فى القسم الثانى، الذى هو بمثابة الحد الأدنى الضرورى للمعلم والإدراك، الذى ينبغى أن يتوافر لدى كل شخص.

ويرى أبو الفرج فى بيان «معنى الذهن والفهم والذكاء»:

«أن حد الذهن قوة النفس المهيأة المستعدة لاكتساب الآراء وحد الفهم جودة التهيؤ لهذه القوة وحد الذكاء جودة حدس من هذه القوة تقع فى زمان قصير غير ممهل (فيعلم الذكى معنى القول عند سماعه).

ويتميز الشخص العاقل صاحب القدرات العقلية العالية ببعض التصرفات، التى تجعلنا نستدل من خلالها على عقله، يحددها أبو الفرج الجوزى على الوجه الآتى:

- ١- السكوت والسكون وخفض البصر.
 - ٢- لا يتحرك حركات عشوائية، ولكن حركاته فى أماكنها اللائقة بها.
 - ٣- يراقب العواقب فلا تستقره شهوة عاجلة عفاها ضرر.
 - ٤- ينظر دائماً بعين فاحصة فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل.
 - ٥- يترك ما يخاف ضرره ويستعد لما يجور وقوعه.
- ويسترشد أبو الفرج بآراء العلماء عن خصال العاقل، صاحب هذه القدرات؛ فنجدته يقدم رأى أبى الدرداء فى علاقة العاقل فيقول:
- «إن العاقل يتواضع لمن فوقه ولا يزدري من دونه بمسك الفضل من منطقته يخالف الناس بأخلاقهم ويحرص على الإيمان فيما بينه وبين ربه ويمشى فى الدنيا بالتقية والكتمان^(١).
- وأورد أبو الفرج الجوزى فى مضممار علامات الشخص العاقل على لسان لقمان، وهو يخاطب ابنه قائلاً:
- يابنى ما يتم عقل امرئ حتى يكون فيه عشر خصال:
- * الكبر منه مأمون والرشد فيه مأمول.
 - * يصيب من الدنيا القوت وفضل ماله مبدول.
 - * التواضع أحب إليه من الشرف والذل.
 - * الكرامة مع الشرف أحب إليه من العز مع الهوان.
 - * لا يسام من طلب المعرفة طول دهره.
 - * لا يتهرم من إجابة ملهوف أو تقديم معروف.

(١) الأذكياء: فى الاستدلال على عقل العاقل بالأفعال والأقوال، ص ١٥.

* يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه .

* أن يرى جميع أهل الدنيا خيراً منه وأنه شرهم ليجود من عمله ويصلح دائماً من شأنه .

* غايته الشرف والسؤدد وحسن العقل .

* ومن حسن عقله غطى ذلك جميع ذنوبه .

ويسترشد أبو الفرج الجوزي بكلمات تدل على قوة الفطنة عن نبينا الأمين محمد، ﷺ، على الوجه الآتي:

« أخبرنا حارثة بن مضرب عن علي عليه السلام قال لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وجدنا عندهما رجلين: رجلاً من قريش ومولى لعقبة ابن أبي معيط فأما القرشي فأثلت وأما مولى عقبة فأخذناه فجعلنا نقول له كم القوم فيقول: هو والله كثير عددهم شديد بأسهم فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبي ﷺ فقال له كم القوم؟ فقال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم فأبى... ثم سأله النبي كم ينحرون من الجزر فقال عشرًا لكل يوم فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: القوم ألف لأن كل جزور لمائة.

هنا تتضح الفطنة الفطرية التي جعلت الرسول الأمين يحصى العدد، ويدرك العلاقة بين ما يأكله الأعداء وبين عددهم^(١).

وأوضح أبو الفرج المواقف المتعددة لاستخدام الذكاء كقدرة عقلية في المواقف المختلفة، وبين كيف أن هذه القدرة تمكن صاحبها من التخلص من المأزق، وأنها تجعله في مكانة عالية إذا أحسن استخدامها. ومن خلال أمثلته ومواقفه، نستطيع أن نؤكد أن دراسة أبي الفرج الجوزي عن الأذكياء تعد إضافة رائدة للدراسات، التي تناولت أصحاب القدرات العقلية العالية، ولا يكتفى أبو الفرج الجوزي بأن يقدم لنا الذكاء كقدرة عقلية، ولكنه يقدم لنا دراسة عميقة عن ذوى القدرات^(١) أرجع إلى: المواقف والأحاديث المتعددة، التي ذكرها أبو الفرج الجوزي في هذا المصنف، عن رسول الله محمد ﷺ ص ١٨ .

الأقل أولئك الذين أطلق عليهم (الحمقى والمغفلين)، وفي ذكر الحماسة ومعناها يقول أبو الفرج الجوزي:

«معنى الحمق والتغفل هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود بخلاف الجنود فإنه عادة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعاً.

فالأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلكه الطريق فاسد ورؤيته في الطريق الوصول إلى الغرض غير صحيحة.

والمجنون أصل إشارته فاسد فهو يختار ما لا يختار.

وهنا يوضح لنا أبو الفرج الجوزي أن الحق والتغفل مرحلة تختلف عن الجنون؛ على اعتبار أن المغفل هو ذلك الذي يتصرف بطريقة محدودة نحو ما يهدف إليه بحيث يتعثر ويضيق أفقه، إذا اعترضته مشكلة أو وضع خطة.. فإنه لا يقوى على الحل البديل، ويتصرف بطريقة ضيقة، ويضرب أبو الفرج مثلاً عن بعض المغفلين فيقول:

أن طائراً طار من أمير فأمر أن يغلق باب المدينة، وكان مقصوده حفظ الطائر^(١).

وفي ذكر اختلاف الناس في الحمق، يرى أبو الفرج أن الناس يتفاوتون في العقل وجوهره ومقدار ما أعطوا منه فلهذا أيضاً يتفاوت الحمق. ولقد قيل لإبراهيم النظام^(٢) ما حد الحمق؟ فقال: سألتني عما ليس له حد، وتلا هذه الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

[الانفطار: ٦]

ومن هنا.. فإن الإنسان خلق أحمق لكي يتفجع بالعيش، وقد استرشد أبو الفرج ببیت الشعر القائل:

(١) أبي الفرج الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين ص ٢٢ .
(٢) إبراهيم النظام: من الذين أخذوا مذهب الاعتزال، هو بحر في علوم الفلسفة والفقه والنفس والآداب، ولد ١٦٠هـ، وتوفي ٢٣١هـ.

لعمرك ما شئ يفوتك نيله بغبن ولكن فى العقول التغابن

وذكر أبو الفرج الجوزى فى القسم الثانى من أخبار الحمقى والمغفلين، وهو المتعلق بالخصال والأفعال؛ فيحدد أن من أخلاق الحمق العجلة والخفة والجفاء والغرور والفجور والسفه والجهل والتوانى والخيانة والظلم والضياع والتخريب والغفلة والخيلاء والمكر.

ويوضح هذه السمات - من خلال تصرفاته - لما يتعرض من أحوال ومواقف على الوجه الآتى:

* إن استغنى بظر وأن افتقر قنط.

* إن فرح أشر وإن قال فحش.

* إن سئل بخل وإن سأل ألح.

* إن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه.

* إن ضحك نهق وإن بكى خار.

ويحدد مجموعة من الدلائل على غباء الأحمق، من خلال ست خصال انفعالية، فيقول:

إنه يتميز بالغضب من غير شئ والإعطاء فى غير حق والكلام من غير منفعة والثقة بكل أحد وإفشاء السر ولا يستطيع أن يفرق بين عدوه وصديقه ويتكلم ما يخطر على قلبه ويتوهم أنه أعقل الناس ويتميز بسرعة الجواب والوقية فى الأخبار والاختلاط بالأسرار وإن أحسنت إليه أساء إليك وإن أسأت إليه أحسن إليك وإذا ظلمته أنصفت منه ويظلمك إذا أنصفت.

ويحذر أبو الفرج الجوزى من صحبة الأحمق، ويسترشد بأحاديث وأقوال فيقول^(١):

(١) ارجع إلى أخبار الحمقى والمغفلين (فى التحدير من صحبة الأحمق) ص ٣٨ .

لاتؤاخي الأحقق فإنه يشير عليك ويجهد نفسه فيخطئ وربما يريد أن ينفعك
فيضرك وسكوته خير من نطقه وبعده خير من قربه.

وقال بعض الحكماء مؤنة العاقل على نفسه ومؤنة الأحقق على الناس ومن
لاعقل له فلا دنيا له ولا آخرة.

ويوضح لنا أبو الفرج الجوزي ضرورة أن يتميز المعلم بحدة الذكاء وبقدرته
على إدراك العلاقات، وحرصه الشديد على تنمية قدرات تلاميذه العقلية، والتنبه
إلى خطورة عوامل الغفلة بالنسبة للمعلم؛ بوصفه قدوة.

ويرى أبو الفرج الجوزي أن بعض المؤدبين للمأمون أساء أدبه على المأمون،
وكان صغيراً، فقال المأمون «ما ظنك بمن يجلو عقولنا بأدبه ويصدأ عقله بجهلنا
ويوقرنا بذكائه ونستخفه بطيشنا ويشحد أذهاننا بفوائده ويكل ذهنه بغينا فلا يزال
يعارض بعلمه جهلنا ويبقظته غفلتنا حتى نستغرق محمود خصاله ويستغرق
مذموم خصالنا»^(١).

(١) ارجع إلى أخبار الحمقى والمغفلين (الباب الثاني والعشرين) ص ١٤٠ .

◆ المرض العقلي والمرض النفسي

• أولاً : المرض العقلي.

• ثانياً : المرض النفسي.

أولاً، ما المرض العقلي Psychosis ؟

لقد تناول العلماء المهتمون مفهوم المرض العقلي على أنه كل ما يندرج تحت زملة الاضطرابات الانفعالية، وما يتعلق بذلك من الحكم على الأشياء والسلوك والشخصية على وجه العموم؛ بحيث يبدو للعالم الخارجى Extrinsic فى صورة من الشذوذ، وعدم التوافق، والخروج على السائد المألوف.

وواضح من هذا التعريف أن المرض العقلي يجعل صاحبه يعانى اختلالاً شاملاً، واضطراباً يمثل خطورة على شخصيته، وينعكس على مستوى تفكيره وقواه العقلية؛ بحيث يبدو:

- (أ) عاجزاً عن ضبط نفسه والقيام برعايتها.
 - (ب) لا يستطيع أن يحقق توافقه الاجتماعى النفسى.
 - (ج) لا يقوى على معرفة الأسباب الكافية وراء هذا الاضطراب السلوكى الذى يثير الدهشة ويدفع إلى الخوف والاضطراب.
 - (د) يفتقر إلى البصيرة التى تمكنه من التعرف على مشكلته.
- ويمكن أن نقسم الأمراض العقلية إلى،

- (١) أمراض تستند أعراضها إلى جانب عضوى.
 - (٢) أمراض تستند أعراضها إلى جانب غير عضوى
- وسوف نتناول كل مرض من هذه الأمراض، على الوجه التالى:

أولاً، المرض العقلى الذى يستند إلى جوانب عضوية:

تعد بعض العلل العضوية التى قد تؤدى إلى الإصابة بالمرض العقلى من الأمور التى تصيب (المخ)، أو ما يطلق عليه الجهاز العصبى المركزى، بالتلف أو التدمير إثر حادث معين أو تلف معين، أو ما يحدث فى مرحلة الشيخوخة؛ حيث تصاب بعض الخلايا بالضمور وانهيار بعض الوظائف الجسمية.

وهناك بعض الأسباب التى تؤدى إلى الدخول فى جوانب عصبية (نيورولوجية)، تؤدى إلى المرض العقلى، وهى:

الإدمان بكل أنواعه - اختلال إفرازات الغدد - التهاب الخلايا العصبية بسبب الإصابة ببعض الأمراض السرية مثل الزهري... تلك التى تؤدى إلى اضمحلال الخلايا العصبية، وتدهور القوى العقلية لدى الإنسان.

بعض الأمراض العقلية:

بعد أن حددنا من خلال التقسيم السابق للأمراض العقلية والعوامل، التى تؤدى إلى ظهورها.. نتناول بعض الأمراض العقلية، التى قد تصادف من يعمل فى مجال العلاج النفسى أو الإرشاد النفسى، وما تتطلبه من خدمة اجتماعية، وهذه الأمراض هى:

» ذهان الشيخوخة:

عندما يضطر الإنسان لاستخدام العصب، والاستماع بسماعة، والرؤية بمنظارين أحدهما للقراءة والثانى للمسافات، والمنظار الثالث للبحث عن المنظارين الآخرين وطاقتهم الأمنان وما يستر الصلح... فإن هذا الإنسان يعانى من الشيخوخة، وما يصاحبها من أعراض (الضعف العام فى الصحة - نقص القوة العضلية - ضعف الطاقة الجسمية والجنسية بوجه عام). أما بالنسبة للتغيرات النفسية التى تصاحب الشيخوخة... فإنها تتمثل فى ضعف الانتباه والذاكرة، وضيق الاهتمام، والنحافة وشدة التأثير الانفعالى والحساسية النفسية... هذه الأعراض التى قد تهدد كيانه

العاطفى والانفعالى، ترسب جميعها بحيث ينتج عنها ما اصطلح عليه فى علم النفس، الذى يهتم بالأمراض النفسية والعقلية بذهان الشيخوخة.

وجدير بالذكر أن الذى يصل إلى هذه المرحلة من السن قد بلغ به الكبر عتياً، ويحتاج إلى عناية لإصابته بهذا المرض، والذى يتميز بالأعراض التالية:

(١) اضطراب فى النوم يصاحبه قلق شديد؛ فهو دائماً مستيقظاً ولا يعرف النوم طريقه إليه بسهولة ويسر.

(٢) من الممكن أن يفقد توجيهه إلى العنوان الذى يسكن فيه، أو لا يتعرف بسهولة الأماكن التى يتردد عليها.

(٣) الذاكرة عنده مشوشة، فهو لا يستطيع أن يستدعى الأحداث الماضية بسهولة، أو يتعرف أشخاصاً سبق له التعامل معهم.

(٤) يتميز سلوكه بالعزلة والميل إلى الابتعاد عن التفاعل مع الآخرين.

(٥) قد نراه يتحرك داخل غرفته ليلاً دون هدف واضح ودون إبداء السبب؛ فهو يلوذ بنفسه، يجتر تفكيره، ولا يقوى على المناقشة مع أحد.

(٦) تضعف عنده الحساسية الانفعالية فلا تجده متعرفاً الصغار، ولا يداعب الأطفال أو يقدم لهم المكافآت؛ بل يضيق بهم ولا يستطيع أن يقيم صداقات معهم.

صالح مثل هذه الحالات:

يتم علاج ذهان الشيخوخة من خلال الرعاية الاجتماعية، التى من شأنها أن تقيم لهم مؤسسات حيث هذا النوع من «الذهان»، إذا اشتد بصاحبه فقد يفقده تركيزه تماماً ويمنع عنه بصارته، التى قد لا تجعله على درجة من الكياسة فى التعامل.

إلى جانب أن الإشراف الطبى العام من الأمور المهمة(*)؛ فيجب العمل على

(*) هناك عقاقير وأدوية مسكنة تعطى للمسنين لتخفف عنهم آلامهم، إلى جانب إمدادهم بالفيتامينات اللازمة، مع الإشراف الطبى العام عليهم.

تحقيق راحته وأمنه وشعوره بالأمان والتقدير والاحترام؛ لأن الشخص فى هذه الحالة لا يستطيع أن يحمى نفسه ولا يعرف معنى البرودة أو السخونة. . فعلىنا أن نعمل على حمايتهم فى الحر والبرد، وأن نقدم لهم الاطعمة سهلة الهضم، وأن نهين لهم أماكن صالحة للنوم، وكافية للضوء وجيدة التهوية.

وقد عملت الدولة المتقدمة لهم أماكن خاصة محمية، تحقق لهم هذا الإشباع النفسى والعضوى، والحماية اللازمة لكى يتمكنوا من السير، ودفع الأذى عن طريقهم وتيسير الأماكن لاستقبالهم.

بعض الأمراض السرية وعلاقتها بالمرض العقلى (**)

يقصد بالأمراض السرية الأمراض التى يصاب بها الأفراد من الممارسات الجنسية الشاذة، أو عن طريق ميكروبات وبائية للممارسة الجنسية غير المشروعة. وأخطر هذه الأمراض هو مرض «الزهرى»، وبطبيعة الحال يعد الإيدز أخطر هذه الأمراض، ولكن سوف نبدأ (بمرض الزهرى)، وذلك الذى اشتهر على المستوى الإكلينيكي بأنه مسبب للمرض العقلى.

وقد اصطلح العلماء فى هذا المجال على أن هذا المرض (الزهرى) قد اصطلح على تسميته Dementia Paralytica؛ لأنه ذو طبيعة يغلب عليها الالتهابات In-flammatory، ويتسبب من خلال أعراضه فى تدهور المريض وإصابة المخ؛ مما يؤدي به إلى الشعور بالهزال والاضمحلال Degeneration، الذى ينعكس أثره على العقل فيضطرب الجسم تبعاً لذلك.

وهذا المرض ينعكس على الشخصية فيحدث فيها تغيرات جوهرية، تنعكس على الطباع وأسلوب الحياة، وقد يصل الأمر بالمريض إلى أنه لا يقوى على التفكير أو الاستيعاب، بل وأن المرحلة المتقدمة لهذا المرض عندما يستفحل المرض. . فإننا نراه:

(*) أخطر هذه الأمراض هو «الإيدز» الآن، والدراسات تحاول أن تبحث علاقته بالمرض العقلى.

* يقع صريحاً لمشاعر الاكتئاب، بل وبعضهم يفكر فى الانتحار لا لزوم لها؛ مما ينعكس عليهم بالهلوسات والتصرفات الشاذة.

* الاضطرابات الحركية التى تبدو آثارها فى عجز المصاب فى التحكم فى استعمال أصابعه، أو الرعاش، وما يؤدى إليه من صعوبة فى النطق وعدم وضوح الكلام.

* التناقض الوجدانى فى أسلوب حياته، بحيث لا يستقر على حال فتراه تارة حزيناً مهموماً يائساً، وتارة أخرى نراء يهلى بطريقة شاذة غير مألوفة، يحاول من خلالها أن يعبر بزهو وفخر عن نفسه.

* يفقد احترامه من خلال تصرفاته التى تبدو شاذة وغريبة، تدفع إلى التساؤل والدهشة.

وإذا كان (الزهري) كمرض من الأمراض السرية قد تم اكتشاف درجة علاقته بالمرض العقلى، وأطلق عليه «الشلل الجنونى العام»، إلا أن الأمر يختلف عندما نتحدث عن الإيدز(*)؛ حيث يتسبب مرض الإيدز عن الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرى HIV، وكلمة إيدز AIDS اختصار التسمية الإنجليزية Acquired Immuno- Deficiency Syndrom، وتسمى باللغة العربية «متلازمة نقص المناعة المكتسبة» ويقصد بكلمة متلازمة (زملة الأعراض التى تصاحب مرض ما).

والإصابة بهذا الفيروس تؤدى إلى فقدان جسم المريض القدرة على مقاومة مسببات الأمراض المعدية، وبعض الأورام، وتكون الأمراض المتسببة فى هذه الكائنات والأورام هى السبب المباشر فى القضاء على المريض.

(*) يلاحظ أن اختصارنا «الإيدز» كمرض بسبب الخلل العقلى فيه تنبيه وإرشاد للشباب؛ لئلا يحصنوا أنفسهم ضد هذا المرض «اللعين».

وتتبلور الصورة الكلينيكية لهذا المرض فى المراحل التالية:

(١) المرض الحاد:

وقد يحدث عقب العدوى بحوالى أسبوعين إلى بضعة أسابيع؛ وهو يسبق التحول حيث تظهر بعض الأعراض مثل حمى أو إجهاد أو آلام عضلية أو تضخم بالغدد الليمفاوية أو طفح جلدى والصداع والسعال.

(٢) دور الكمون:

فى خلال هذه الفترة يتكاثر الفيروس ويصيب مزيداً من الخلايا، ولكن دون ظهور أعراض، وتستمر هذه المرحلة لمدة شهور قد تمتد إلى سنوات.

(٣) تضخم الغدد الليمفاوية المنتشرة الدائمة:

حيث تظهر أعراض على شكل تضخم بالغدد الليمفاوية، وتستمر أكثر من ثلاثة أشهر دون أى سبب ظاهر.

(٤) الأعراض المرتبطة بالإيدز:

تظهر خلال هذه المرحلة بعض الأعراض مثل نقص فى الوزن أكثر من ١٠٪ - حمى دون سبب ظاهر - إسهال دون سبب ظاهر، ويستمر لفترة طويلة تظهر بعدها مجموعة أعراض أخرى.

(٥) الإيدز:

وهنا يصاب الفرد بأمراض خطيرة، مثل: التهابات الرئة - الجهاز العصبى - وهنا تظهر علاقة هذا المرض الخطير بالجنون العقلى، إلى جانب ما يصاحب هذا المرض الخطير من ردود الفعل الاجتماعية والاقتصادية الشديدة للإيدز، والعدوى بالفيروس إلى تأثيرات قاسية على المستوى الشخصى والأسرى والاجتماعى للمريض، فغالباً ما ينجذ مريض الإيدز والمصابين بالعدوى من الأسرة والمجتمع، فى الوقت الذى يكونون فيه فى أمس الحاجة إلى المساندة والرعاية(*).

(*) تجرى الدراسات الآن تحت إشراف منظمة الصحة العالمية حول ارتباط مرض الإيدز بالأمراض العقلية، حيث أشارت النتائج المبدئية إلى أنه يودى إلى خلل فى الدماغ، ويدمر الجهاز الليمفاوى.

الأمراض العضوية العقلية غير العضوية،

وهناك بعض الأمراض العقلية المرتبطة بعوامل غير عضوية؛ أى لا ترجع العلة أو السبب إلى عوامل عضوية، كما أشرنا بالنسبة للأمراض العقلية السابقة، وأول هذه الأمراض:

انفصام الشخصية،

وهو المرض الذى اشتهر مع المصطلح الذى يحدده «سكيزوفرينيا»، وهو يعطى مؤشرات عن تدهور بطئٍ للشخصية، يستمر مع مراحل العمر قد يبدأ فى مرحلة المراهقة ويطلق عليه «جنون المراهقة»؛ حيث إذا تعرضت هذه الفترة إلى مجموعة من العوامل غير المواتية؛ فقد يؤدى إلى إغراق المراهق فى أحلام اليقظة... تلك التى قد تدفعهم إلى شطط فى التفكير، إذا لم يسحن تربيتهم وتوجيههم.

والسؤال الآن ما الأسباب التى قد تتدخل فتحدث هذا المرض؟

نظراً لأن هذا المرض قد يظهر بشكل أكثر خلال المرحلة العمرية ١٤-٣٠ سنة، فإن هناك عوامل تتدخل وفق طبيعة هذه المرحلة، نذكر منها:

(أ) الضغوط الاقتصادية والضائقة المالية حيث يشعر من يقع تحت طائلة هذه الظروف أنه لا يستطيع أن يفي بمتطلباته؛ فتستبد به تلك الظروف، وتمنعه من التعامل السوى مع مشكلاته.

(ب) الاضطراب والتفكك الأسرى الذى يؤدى إلى الشعور بأن الأسرة قد أصبحت بيئة طاردة وليست جاذبة؛ الأمر الذى يدفع من يقع تحت طائلة هذا التفكك الأسرى إلى أن يلوذ بنفسه ويغترب عن واقعه.

(ج) الفشل فى العلاقات الغرامية أو الصدمة العاطفية؛ مما يؤدى إلى الشعور بالاكئاب.

(د) القلق الشديد من ممارسة العادة السرية والإفراط فيها؛ مما قد يؤدى بصاحبها إلى الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب Sense of guilt؛ مما يؤدى إلى ظهور أعراض «الهوس والهلءاء» والهلوسة.

ويلاحظ أن «الفصام» كمرض عقلى غير عضوى، يؤدى إلى ظهور أعراض وخصائص تميزه.

ومن هذه الخصائص والأعراض:

(١) البلادة الانفعالية:

التي تؤدى بصاحبها إلى عدم التأثر وعدم الميل إلى المشاركة مع الآخرين - فنجد «الفصامى» يفقد الاهتمام فلا يتفاعل مع أحد، ويفقد الأصدقاء بسهولة - ولا يصنع شبكة من العلاقات الاجتماعية مع الآخرين، يميل إلى الخوف والحزن ويستثار بسهولة - فيغضب من أقل شيء ولا يهتم بأى معايير أو أعراف - فهو يتعامل بعدم اكتراث وعدم انتماء.

(٢) الفرق فى أحلام اليقظة:

فيصنع من خلالها عوالم متعددة فلا يقترب من دنيا الواقع، ولا يبدى أى اهتمام بما يدور حوله من أحداث؛ فهو يحب أن يجنب نفسه الدخول فى إطار التفاعل الاجتماعى، فهو لا يقوى على أن يكون مساهماً وفعالاً.

(٣) يتميز مريض الفصام بظهور بعض الأعراض الغريبة عليه:

فهو من الممكن أن يتكلم مع نفسه أثناء السير فى الطرقات العامة؛ بحيث نراه وكأنه يجسد أو هاماً معينة، أو أنه يتصور أن كل من ينظر يتابعه أو كل من يشير بأصبعه يقصده، وهنا يتجسد الوهم سلوكاً لديه

وجدير بالذكر:

إن هناك تجسداً للوهم يصاب به الأفراد، وهم فى حالة من تجسيد الوهم. نذكر هذه الحالات وقاية من الوقوع فى هذه الهواجس، التى قد تؤدى إلى الانقصام، وهذه الحالات:

* توهم المرض من خلال التوظيف الخاطئ للمعلومات.

* توهم «الدردحة» من خلال الخروج على السائد المألوف.

* توهم السعادة من خلال سلوك الإدمان على المخدرات.

والسؤال الآن: ما الذى يؤدى إلى هذا الوهم، الذى قد يدفع إلى الانفصام؟

ولعل الإجابة تكون على الوجه التالى:

هناك جوانب كثيرة فى السلوك الإنسانى تحتاج إلى مراجعة، وكأننا نحاول دائماً من خلال تفسير السلوك الإنسانى أن نتقصى دوافعه، ونحاول بقدر المستطاع أن نتعرف الظروف والملايسات، التى قد تتدخل فتحدث هذا السلوك، وتشكل تلك التصرفات.

ولعل الإضافة البسيطة التى نقدمها فى غضون هذا الفصل ثمكتنا من تعرف بعض المواقف، التى يمر بها الإنسان فيتصرف حيالها تصرفات متوهمة يوظف فيها معلوماته تارة، أو تضغط عليه بعض الظروف الاجتماعية تارة أخرى، وهو بين هذه وتلك يتصرف فتحسب عليه التصرفات، ويخضع لما نسميه تقويم المجتمع لهذه التصرفات.

وقصدنا من عرض بعض الأوهام التى قد تسيطر على الإنسان؛ بحيث تضغط عليه، فتتحول من خلال هذا الضغط إلى بعض السلوكيات المتوهمة أن نوضح للقارئ مدى خطورة تجسيد هذه الأوهام، ومدى ضرورة الحرص والتحفظ فى كل عمل يتقدم إليه الإنسان بحيث تصدر كل تصرفات الإنسان أو غاليته، وفق رغبة عميقة فى «الحرية» و«المعقولية» ونزوع قوى نحو تجويد السلوك والفعل والاتساق الواعى مع القيم الأخلاقية، وما يحيط بالإنسان الفرد من أعراف وأصول وتقاليد اجتماعية سليمة، تعبر بصدق عن أصالة الشخصية واستمرارها السليم.

وإذا كانت الأفكار التى تضغط على الإنسان؛ فتفرض عليه هذا السلوك المتوهم.. فإن هذه الأفكار ينبغى أن تنقى وتنقى، بحيث تتضح الرؤية أمام هذا

الإنسان ويحاول أن يتخلص من أفكاره المتهمة؛ بحيث يخطو خطوات سليمة من شأنها أن تجعله في صورة مرموقة من حيث التصرف والسلوك والفعل، ولن يتسنى للإنسان أن يصل إلى هذا المستوى السلوكي، اللهم إلا إذا نظر نظرة عميقة إلى المستقبل، واضعاً في اعتباره أن القيم الأخلاقية النابعة من الدين هي المرشد والموجه لهذه التصرفات دائماً.

فإذا كان الماضي يمثل حجر الزاوية في كمية الأفكار والآراء، التي تتدخل بشكل ما من الأشكال في تشكيل هذه السلوكيات المتهمة.. فإن الإنسان لا ينحصر فقط في ماضيه ولكنه يمضي دائماً إلى المستقبل، فإذا كان الماضي ضرورياً للاختيار بالنسبة للإنسان الفرد.. فإن هذه الضرورة تتجه دائماً للاختيار بالنسبة إلى المستقبل؛ لأن هذا الماضي نفسه هو ما ينبغي تغييره، ومن هنا يكون اختيارنا لبعض التصرفات السلوكية التي يتدخل فيها الوهم؛ فيعمل على تجسيدها وتشويه صورة الواقع.. فلا يملك الإنسان الذي يخضع لهذه الأوهام إلا أن ينصاع ويخضع لتلك الأوهام... وبطبيعة الحال فهو يشعر بالتعب النفسي؛ لأنه بنفسه.. ومن خلال أوهامه.. قد حكم على نفسه أن يعيش وسط شرقة غريبة، أفررت خيوطها أوهامه وعملت هواجسه على تجسيدها... فكان غريباً في تصرفاته وسلوكياته.

عندما يتوهم الإنسان المريض من خلال التوظيف الخاطئ للمعلومات؟

يعيش الإنسان كمخلوق تستهويه الحياة، فيحاول أن يبحث فيها عن اللذة المنشودة، ويحاول هذا الإنسان في سعيه اللاهث أن يتجنب كل عوامل الألم، فالسعادة والشقاء طرفان متضامتان متحدتان، وإن كانا في ظاهرها ضدّين متقابلين، والإنسان بحكم تطلعاته هذه مخلوق تستهويه العلا والقمم الشامخة...

ويحكم هذه المعلومة الغريبة للإنسان.. فإنه كثيراً ما يجد لذة في استطلاع كل ما هو بعيد وخفى وغامض، ويشعر اعتماداً على هذا الشعور بقوى غريبة

تتصارع بطريقة خفية غاشمة، يعجز عن إدراك كنهها وتقدير شدتها، وهذه القوى قلما تستمر فى غموضها أو توافق مستسلمة بأن تكون حبيسة داخل الإنسان... ولما كان الإنسان يحاول دائماً أن يؤكد ذاته من خلال خبراته، التى يحاول أن يعلن عنها ويزهو بتعددتها وتنوعها.. فهو يحاول أن يلتقط كل خبراته من المجتمع الذى يعيش بين جوانبه ويتعامل معه، ويميل الإنسان إلى أن يلتقط كل ما من شأنه أن يجعله قوياً صحيحاً من الناحية النفسية والصحية، ويحاول - استمراراً لتأكيد ذاته - أن يتعد عن كل الظروف والمواقف، التى قد تجعله مريضاً أو مستهدفاً للمرض.

واعتماداً على هذا الاتجاه الذى يتطلع إليه الإنسان، يحاول أن يجمع من المعلومات كل ما من شأنه أن يجعله مزوداً بالمعلومات والمعارف؛ لعله يجد فيها حصانته ويتجنب من خلالها شرور الأمراض... ولكن الإنسان فى سعيه الخيىث هذا نحو كل ما يحقق حصانته قد تشابه بعض الهواجس؛ لأنه من فرط حساسيته وحرصه على نفسه يخضع للتأويل - عندما يوظف ما يتشرب من أعراض لبعض الأمراض التى ذاع صيتها لخطورتها - فلا يملك إزاء هذه المعلومات إلا أن يستشعر نفسه مريضاً، وقد يجسد الوهم فيتصرف تصرفات المرضى، دون أن يكون مريضاً، ونسوق لذلك بعض الأمثلة:

السرطان وتوهم أعراضه:

إذا سألنا رواد جراحة السرطان وأساتذته: هل هناك علامات معينة يمكن أن تكون علامات إنذار، تعبر بشكل من الأشكال عن وجود هذا المرض الخيىث؟ فإن الإجابة من واقع دراساتهم ومشاهداتهم وتجاربهم تكون بالإيجاب، ويبدو أن فى عرض هذه الملامح أو تلك الأعراض تنبيهاً للإنسان الفرد ووقاية وحرصاً، فإذا كانت هذه الأعراض هى:

* الاضطراب فى التبول والتبرز.

* وجود جرح لا يلتئم.

- * حدوث نزف أو إفرازات غير طبيعية.
- * وجود ورم أو كتلة فى الثدي أو فى أى مكان آخر من الجسم.
- * صعوبة فى البلع.
- * حدوث تغيرات غير طبيعية فى الصوت أو الكحة، التى لا تشفى بالأدوية العادية.
- * حدوث تغيرات فى الحسّات الجلدية أو الزوائد الجلدية.

ويؤكدون أن أى علامة من هذه العلامات إذا ظهرت، فعلى الفرد ألا ينتظر ثانية واحدة، وعليه أن يذهب فوراً للطبيب على الأقل للاطمئنان على حقيقة الحالة، وللتأكد من عدم وجود السرطان، وليبدأ العلاج مبكراً إذا كان المرض موجوداً بالفعل.

ويمثل الطعام أهمية كبرى للإنسان، وتؤكد الدراسات المتعلقة بأبحاث السرطان الصادرة من الجمعية العلمية للسرطان فى الولايات المتحدة الأمريكية(*) توصيات بشأن الطعام، ومدى ارتباطه بمرض السرطان. وتدور محاور هذه التوصيات العلمية حول ضرورة تجنب زيادة الوزن وما يصاحبها من سمنة، ثم الحرص على زيادة كمية الطعام الذى يحتوى على الألياف، ولقد قدمت الجمعية العلمية للسرطان بعض النصائح بالنسبة للأطعمة، التى قد تسبب حدوث هذا المرض، وبعض الأغذية التى يمكن أن تحقق للإنسان وقاية منه. وقد كانت هذه النصائح:

- * تجنب زيادة الوزن بالابتعاد عن أكل الدهون والعمل على النشاط والحركة.
- * تناول الأطعمة التى تحتوى على الألياف، فقيها فائدة كبيرة إلى جانب الاعتماد على الفيتامينات الطبيعية، دون أن نعتمد على الحصول على هذه الفيتامينات من خلال الأدوية.

(*) ارجع إلى الأستاذ الدكتور شريف عمر - السرطان وأورام الثدي، كتاب اليوم الطبى، ١٩٨٤، ص. ٢٠-٢٣.

* تجنب شرب الخمر لأنها مع الإسراف فى التدخين تؤدى إلى ارتفاع احتمال الإصابة بالسرطان (الفم والحنجرة والمريء).

* الابتعاد عن الطعام المدخن (أسماك - لحوم) تجنباً من تلوثها بالقطران، أثناء عملية التدخين.

والملاحظ على هذه المعلومات المهمة والدقيقة أنها تعطى الإنسان الفرد الفرصة؛ لكى يلتقى ويختار ويدرك بوعى وفهم، إلا أننا نجد بعض الأفراد من يتوهمون هذه الأعراض فيهم، فلا يقطعون الشك باليقين ويذهبون للتأكد من الطبيب المتخصص تجنباً لزيادة استفحال المرض إن وجد، أو وقاية منه، ولكننا نراهم يخافون من مواجهة الحقائق، وتعتبر مواجهة الحقائق هى من أهم الملامح السلوكية المميزة للإنسان فى حالته السوية؛ لأنها تجعل منه إنساناً واقعياً، يتصرف وفق ما يراه العقل والمنطق، بعيداً عن الهواجس والتهويل والأوهام!!

الذبحة الصدرية وظروفها النفسية:

وفى دراسة قام بها كل من (الصاوى حبيب وسيد صبحى ١٩٧٩) (٥) عن الظروف، التى أحاطت ببعض الحالات التى أصيبت بمرض الذبحة الصدرية.. فقد كانت ظروف الإصابة تجمع بين موقف قبلى وموقف بعدى؛ أى إن هناك مجموعة من الملابس التى أدت إلى تجهيز الفرد للإصابة بهذا المرض، وقد توصلت الدراسة إلى أن ظروف الحالات موضع الدراسة قبل الإصابة بالمرض عبارة عن:

* شعور الفرد بحالة من القلق والتوتر بالنسبة لتصوره للمستقبل، ومدى حرص كل منهم على أن يكون شخصاً مهماً ومرموقاً يحظى بمكانة اجتماعية.

* تطلع كل منهم إلى الإنجازات العالية، فى الوقت نفسه الذى يفتقر فيه إلى الإمكانيات، التى تساعد على تحقيق ذلك.

(٥) ارجع إلى الصاوى حبيب، سيد صبحى: «دراسة نفسية فى الذبحة الصدرية»، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩.

* الإحساس بضغط العمل. وعدم تحقيق التوافق والتآلف مع الزملاء، داخل إطار العمل وكذلك مع الرؤساء.

* ضغط الإطار الأسرى بما فيه من مسئوليات، تتطلب أدواراً اجتماعية لها مسئولياتها، ومحاولة أداء هذه الأدوار بما يصاحبها من ضغوط اجتماعية واقتصادية وصحية، إلى جانب مهام العمل ومسئوليته.

* إحساس الفرد بضرب من ضروب الصراع النفسى؛ حيث أعلنوا عن عدم إمكانهم مواجهة الظروف مواجهة صريحة، تمكنهم من مناقشة المشكلات، التى قد تصادفهم؛ لكى يتوصلوا إلى حلول تجنبهم هذه المشكلات وتخفف عنهم حدوثها.

هذه الظروف التى كانت تصاحب هذه الحالات قبل الإصابة بالمرض، قد جعلت بعضهم فى موقف نفسى ضاغط؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يواجهوا أمورهم بطريقة موضوعية، فيها حرص على الأداء واستعداد لتقبل الواقع بروح، ملؤها العمل، وإرادة تستطيع مواجهة الصعاب، ومسئولية لها ترجمتها السلوكية الفعلية والواقعية.

وأنبتت الدراسة أيضاً ضرورة الاهتمام بالظروف النفسية المزاملة للإصابة بالذبحة الصدرية، والتى يمكن أن نلخص بعضها فى العوامل الآتية:

- * وفاة الزوج أو الزوجة المفاجئ.
- * حدوث طلاق أو انفصال فى الحياة الزوجية.
- * الفصل التعسفى من العمل.
- * الإفلاس المفاجئ والإحساس بالضائقة المالية.
- * عدم الإحساس بالقيمة داخل العمل، من خلال حالة الأدوار، التى يؤديها الفرد.
- * وفاة صديق عزيز.

- * تغيير مفاجئ غير متوقع فى ظروف الحياة الأسرية اقتصاديًا واجتماعيًا.
- * عدم الإحساس بالأمن والاطمئنان بالنسبة للمستقبل الوظيفى.
- * توقع الأذى من الآخرين فى أى لحظة من اللحظات.
- * تغيير العادات التى تعودها الشخص فى تطبيعها الاجتماعى.
- * التعرض للنقد الزائد دون القدرة على الدفاع أو التصدى له ومواجهته.
- * الإحساس بفقدان الثقة فى المحيط الاجتماعى.
- * فشل الأبناء فى الاستمرار فى دراستهم، وأثر ذلك على سمعة الأسرة أو العائلة.
- * التعرض لمازق ماضى ولائحد من يقف بجوارنا.
- * توقع الإخلاص من بعض الأشخاص، ثم الإحساس بعكس ما نتوقع (خيبة أمل).

ويلاحظ أن هذه الأسباب النفسية قد يتدخل فيها الوهم - بدرجة ما من الدرجات - لأن الدراسات فى هذا المضمار قد أثبتت أن الأشخاص الذين يتحملون المسؤولية ويعانون من توتر عصبى مستمر... هؤلاء لمجدهم أكثر عرضة للإصابة بمرض الشريان التاجى، فهم دائمو التفكير والتوتر، وغير قادرين على الاسترخاء والهدوء؛ لأنهم يحملون همومهم بين جوانحهم ويجسدون أفكارهم، ويتوهمون الفشل دائماً يحيط بهم؛ مما يجعلهم فى حالة من اليقظة الدائمة والأرق والتوتر.

صند ما فتوهم سلوك الدردحة بديلاً للقيم الأخلاقية،

انتشر سلوك «الدردحة» فى عصرنا المتغير المادى، وأعنى به ذلك السلوك الذى يغلب على صاحبه طابع الإدعاء، وتصبح الشخصية «المردحة» هى تلك التى تستطيع أن تتصرف «بفهلوة» وذكاء وحسن تقدير للموقف موضع «الدردحة»، والتقدير هنا لا يعنى الموضوعية بقدر ما يعنى معرفة «المردح» للكتف من أين يؤكل!!

والدليل على ذلك أن صاحب هذا السلوك يتوهم أنه فى مقدوره أن يخالط الجميع ويتماشى معهم، ولديه الاستعداد أن يتغير ويتلون.. فهو راض فى كل الظروف، ومع كل الأشخاص لما لديه من قدرة (عجيبة) على التلون والتغير.

ومثل هذا السلوك المزيف بقدرته على التكيف السريع، ومثل هذا الشخص اعتماداً على مزاولته وفطنته وقابليته لهضم كل شىء وكل موضوع وكل إنسان دون أن يجد فى ذلك غضاضة أو دون أن يتزعج لهذا الأمر نراه عليمًا بكل شىء هكذا يدعى، ومسايرًا للأمور بسطحية لكى يغطى مواقفه... ولا يرتبط ارتباطاً حقيقياً بما يقوله أو بما يلتزم به من تصرفات، كان قد أخذ على نفسه عهداً بتنفيذها.

وهذه الشخصية التى قد يميل إليها الآن معظم الشباب لاتتحمل المسؤولية. ومن هنا واعتماداً على الثقة الزائدة لدى هذه الشخصية، دون أن تعتمد هذه الثقة على أصالة أو قدرات حقيقية.. فإننا لمجدها تعامل الأمور باستهتار وتهكم على الغير أحياناً، وفى ادعاء القدرة البارة على حل الأمور فوراً، وكذلك فى القدرة على التخلص من المآرق كما تخرج الشعرة من العجين!!

الغريب فى أمر هذه الشخصية «المدرحة» أن هناك من يتوهم أنها شخصية عظيمة، بل ويزداد هذا الوهم تجسيدا عندما نرى هؤلاء يضربون بها الأمثال؛ خاصة عندما تظهر المشكلات، التى تحتاج إلى حل رصين وفكر واع؛ بحيث لايقوى عليها هذا «المدرح» لأنه غير كفء، ولا يتمتع بالقدرات التى تمكنه أن يواجهها... ولكنهم لإفراطهم فى الإعجاب بهذه السلوكيات المزيفة، من قبل هذا المدرح يتوهمون أنه هو المنقذ الوحيد، وهو فقط الذى فى مقدوره أن يحقق الإنجاز السريع، وهم يميلون دائماً إلى الاستماع إلى إرشاداته ونصائحه، ويكونون فى لهفة التشوق إلى سماع رأيه السديد، عندما يأتى ومعه الحلول الواهية، المعتمدة على المسكنات الموضوعية فى شكل التزييف والوصولية.

والغريب فى الأمر أن هؤلاء المتوهمين يرون فى الأشخاص أصحاب القيم

والأصول والمبادئ غير ما يروونه فى هذا السلوك (المدرج المزيف)؛ فهم يرون على حد وهمهم - أن الشخص صاحب القيم والمبادئ والأصول والالتزام الصحيح - أن هذا الشخص لا يتميز كما يتميز «المدرج» بخفة الظل، وأنه يميل إلى تصعيب الأمور من خلال التمهيص والتدقيق، وأنه يرى القيم الدينية هى الأساس.. فلا يوافق على أى أمر من الأمور، دون أن يكون متماشياً معها ووفق أصولها ومبادئها، عكس ما يتوهمون ويتطلعون إلى الشخصية «المدرجة» التى تميل دائماً إلى تشهيل الأمور؛ حتى ولو كان ذلك التشهيل على حساب القيم والأصول المعرفية السليمة.

وبطبيعة الحال وتحت وطأة هذا التمييز العجيب بين سلوك (المدرجة)، وما يصاحبه من معان مزيفة قد يجعل بعض ذوى الأخلاق العالية، يشعرون بالغربة أو الإحباط، فهم لا يعرفون هذه السلوكيات «المدرجة»، ويرفضون هذه الأمور ولا يريدون معرفتها.

وهذا التمييز لا ينبغى إلا أن يكون فى صالح الفئة الأصلية، التى تعتمد على القيم والأخلاق والأصول، وتلتزم بالمبادئ الدينية فى كل أفعالها وتصرفاتها وعليهم أيضاً التمسك بالولاء للقيم والإيمان بها، وأن يتجهوا فى سعيهم نحو القيم الدينية مهما جذبتهم عوامل «المدرجة»، فالولاء للقيم هو أعلى درجة تجنب كل إنسان من تجسيد الشرور، التى قد تأتية من الأوهام أو من المعانى غير الراقية، التى يظنها المتأمل العابرها لها معان أو قيمة(*).

عندما يتوهم البعض السعادة، من خلال سلوك الإدمان على المخدرات(**).

يمثل سلوك الإدمان على المخدرات بأنواعها خطورة بالغة؛ خاصة إذا كان هذا السلوك من النوع الذى ذاع صيته وانتشرت رائحته التى تزكم الأنوف، ولعل

(*) استخدام الكلاب البوليسية فى الأندية لاكتشاف أصحاب السلوكيات الشاذة من المدمنين خير دليل على الذين يتوهمون «المدرجة»، من خلال «إدمان للمخدرات»؛ فموقفهم يدعو إلى العار والحجل.

(**) لابد من أن نضع فى اعتبارنا أن الإنتاج وزيادته لا يقوى عليه إلا الأصحاء عضويًا ونفسيًا، والشخصية التى تعودت إدمان للمخدرات تفقر إلى هذه الصحة العضوية والنفسية، ومن هنا فهى تمثل عوائق للإنتاج السليم.

الخطورة تتجسد فى كمية المعلومات، التى قد تنتشر وتشيع عن هذا السلوك المنحرف الخطر، فهناك من يرى وهماً أن الإدمان على تعاطى هذه المواد المخدرة فى أشكالها وأصنافها المتعددة يؤدى بصاحبه إلى السعادة والإحساس بالراحة والهدوء!!

ومثل هذا الوهم يبتعد تماماً عن الصحة والدقة . . فقد أثبتت جميع الدراسات أن هذه السعادة المزيفة مردها إلى تعطيل مراكز التيقظ فى الجهاز العصبى، وأن الإنسان بهذا السلوك المنحرف يدفع بنفسه إلى الهلاك!!

وينبغى أن نهتم بظاهرة الإدمان على المخدرات، ويكون الاهتمام من خلال تطبيق النهج العلمى؛ أو أن حرمتهم وإرادتهم فى أمر رفض الاستمرار فى هذا السلوك ليست سوى وهم من الأوهام! وكأنهم قد كتب عليهم هذا المصير المشئوم.. مصير تعاطى، أو أن حرمتهم وإرادتهم فى أمر رفض الاستمرار فى هذا السلوك ليست سوى وهم من الأوهام! وكأنهم قد كتب عليهم هذا المصير المشئوم.. مصير تعاطى المخدرات!!

والواقع أن هذا الشعور الغريب سواء كان على مستوى الإحساس بالسعادة كما يتوهم البعض من هؤلاء أم على مستوى الانصياع والوقوف أمام المخدرات موقف العاجز الذى لا يملك إلا أن يتعاطاها.. هذا الشعور الغريب يجعلنا نركز الاهتمام على أمر هذه الظاهرة الخطيرة، التى يدفع المجتمع بسببها ثمناً باهظاً من الطاقات البشرية والمادية والاجتماعية، وعلينا أن نواجه هذا السلوك المنحرف الجديد على طبيعتنا المصرية وقيمنا الدينية وأصالتنا المصرية العريقة، وأن المواطن الصالح هو الذى يتجه إلى الإنتاج والعمل الجاد.

وبهذا التجسيد للوهم نستطيع أن نؤكد أن مريض الفصام يحاول:

* الهلوسات السمعية، حيث يتصور هذا المريض أن هناك أصوات تناديه لوجود لها، أو أن هناك أعراضاً يعانى منها هى أعراض لمرض خطير.. أو أن هناك ضرورة رaffle، لابد من التعامل معها (كالمخدرات أو الكحوليات)،

أو أداء أعمال غريبة كأن يمشى ليعبد بلاط الأرصفة - أو أعمدة الكهرباء في الشوارع العامة.

* بطبيعة الحال يعاني هذا المريض من الهلوسات البصرية إلى جانب الهلوسات السمعية؛ فهو لا يستطيع أن يتحقق من الواقع المعاش، ودائمًا زائف البصر ولا يعرف التركيز.

* يسيطر عليه اعتمادًا على عزلته وعدم مشاركته للجماعة للشعور باليأس، وأن المجتمع يظلمه ويستقصده وأنه Scape Goat كبش القداء لكل الناس، الذين يحيطون به، وإزاحة كل مشكلاته على المجتمع الظالم الذي يستبد به دائمًا.

خطورة هذا المرض:

إن بعض المرضى من هذا القبيل في التدهور، الذي يعبر عنه بالذهول التام يكونون قابلين للإيحاء للأوامر؛ بحيث قد نجدهم ينفذون كل أمر ويرددون ما يسمعون ويستجيبون لضعف شخصياتهم إلى ما يقال لهم، وهنا قد يرتكبون حماقات سلوكية أو جرائم أو يتخبطون الأعراف والقيم الاجتماعية، فيخرجون عليها اعتمادًا على هذه العوامل المصطنعة والأخيلة الكاذبة.

البارانويا (جنون العظمة):

يتميز هذا المرض غير العضوي باضطراب في التفكير. وقد أجمعت بعض الدراسات الكلينيكية على أن هذا المرض يظهر عادة في سن الأربعين، ولكن هذا التحديد قد لا يكون جامعًا مانعًا محددًا في هذه الفكرة؛ فهناك من يصاب بهذا المرض في مرحلة أقل أو أكبر من ذلك. والدليل على ذلك أن مرض جنون العظمة يرجع إلى الشعور بالكبت Depression ذلك الذي يصاحبه الشعور الشديد بالإحباط Frustration - وصاحب هذا المرض يعاني من الصراع Conflict وتأنيب الضمير Sense of guilt ولوم النفس - وهذا النوع البارانوى يشعر بالاضطهاد ويطلق عليه «جنون العظمة»، ويمكن أن نلخص الأعراض المميزة لهذا المرض على الوجه التالي:

(١) الاضطراب الفكرى والتشويش بحيث لا يمكن أن يصل إلى فكرة صائبة أو محددة Divergent تفكير مشتت.

(٢) الشعور بأنه مكروه ومضطهد من الآخرين - وأنه غير مرغوب فيه وقد يحدد عدم المرغوبية في شخص محدد - ويوضح كيف أن هذا الشخص بالذات يكرهه «ويستقصده».

(٣) هذيان وهواجس العظمة - وتلك التي تجعله يحس أنه شخص عظيم Super-man ولا يوجد أحد مثله - وأن هذا الشعور يجعله ينفر من الجميع ويتعالى عليهم، وكأنه ذلك الذي لم يخلق مثله في البلاد، وأنه وحيد زمانه وفريد عصره!! (*)

الهوس والاكتئاب Mania & Melancholia

الهوس أو (المانيا Mania) يظهر في شكل درجات متعددة، تتدرج من الصعوبة إلى البساطة حيث حدة الأعراض؛ فيتميز السلوك المصاب بهذا المرض بالنشاط المستمر بحيث لا يكل أو يتعب، فإذا تكلم فهو الذي لا بد وأن يسيطر على الكلام والحديث - يرفض أى معارضة، ولا يتحمل أى انتقادات، هذا في شكله البسيط يكون الهوس متميزاً بتلك الأعراض، ولكن عندما يزداد الهوس حدة Acute mania - فهو يأخذ بصاحبه إلى طريق الهذيان، ويظهر المريض وهو يعاني من الدخول في نوبات عصبية، تجعله لا يقوى على العمل الجاد أو المخطط الذي يعبر عن هدف، فهو شارد بحيث لا يمكن أن يعرف مكاناً ولا يستشعر الزمان أو حتى يدرك الأشخاص.

وهناك نوع أكثر حدة من الهوس، وهو الهوس فوق العادة أو خارق العادة Hyper mania وهو أقصى حالات الهوس، حيث يتميز هذا المريض في مرحلته الحادة بالعنف والقسوة - وقد تبلغ به القسوة وذلك العنف إلى أن يكون عنيفاً مع نفسه وعلى من يتعامل معهم - فيراء يسب الآخرين بالالفاظ النابية، ويصرخ فيهم ويحاول التحرش بهم - وذلك من خلال الهياج والانفعال الحاد. ولديه

(*) إلى جانب هذه الخصائص، فنحن نجد في البارانونى أنه شخص اثنى معاند متكبر لا يعترف بالانحطاط ولا يجب أن ينتقد أحد. وحتى إذا فشل فإنه يزيح أسباب الفشل على الآخرين، وهو شخص لا صديق له، ولا يصلح لقيادة الأشخاص لأنه لا يعرف قدرات الآخرين!!

رغبة عارمة في التخريب، والاستهزاء والضحك بصوت هستيرى - والغريب في الأمر أنه سرعان ما يلوذ بنفسه فيبكي ويدخل في نفسه منطوياً، وكأنه القنفذ الذى يدخل الأشواك داخله متقوقعاً وعبوساً!!

الاكتئاب النفسى،

يميل بعض الأفراد إلى أن يحيلوا الواقع المحسوس إلى كيان خاص، يخلعون عليه لغة خاصة مبنية على مشاعرهم الذاتية، تلك التى يترجمون من خلالها أحاسيسهم ورؤيتهم للأمور موظفين ما مروا به من تجارب؛ لأن نظرتهم لهذا الواقع تأخذ طابعاً معيناً تحدده تجاربهم، وما قد مروا به من ضغوط نفسية وقضايا تمثل لهم خبرات مؤلمة. وشعور الإنسان بهذا الشعور الضاغط يؤدي إلى «جنون الاكتئاب» Melancholia - وهذا المريض يكون فريسة لما يعتره من يأس وقنوط، وقد يستبد به هذا الشعور فلا يتصور أن هناك أملاً فى أى أمر يتعامل معه؛ مما قد يعرضه إلى إيذاء نفسه Self harm (*).

وجنون الاكتئاب قد تظهر أعراضه على الوجه التالى:

- * الشعور بالنشاط الجسمى العقلى بطريقة تدفع إلى التوتر والاضطراب.
- * الشكوى الدائمة من سوء المقادير، وأنه لا أمل فى تحسين حالته، وأن المتعوس متعوس هكذا يكون دائماً.
- * العزوف عن الاشتراك فى أى نشاط، حيث يشعر أنه غير جدير بالحياة ولا أمل فى حياته، فلماذا يشارك ويتعاون ويتفاعل.
- * العزلة التامة عن الجماعة - بحيث يفتقر إلى أدوات الاتصال بالجماعة - فلا يتحدث مع أحد يتجاوب مع أحد يتحدث معه.
- * قد يرفض الطعام فى الحالات الحادة، ويتشكك فى كل من يقدم له هذا الطعام، ويتصور أنه يضع له فيه السم أو يحاول أن يقتله عن طريق هذا الطعام!!

(*) من الأمراض النفسية غير العضوية إيذاء الذات المتعمد Self harm، وسوف نتناول مع الأمراض النفسية.

ثانياً: المرض النفسي

قبل أن نتناول بعض الأمراض النفسية، يجدر بنا أن نضع معايير الحكم على الصحة النفسية للفرد؛ بحيث تكون هذه المعايير بمثابة (مسطرة)، ونقيس من خلالها تقدم المجتمعات، التي نحكم من خلالها على صحة الفرد النفسية، وقد يكون من الممكن أن نتناول هذه المعايير على الوجه التالي:

أولاً، أن يعترف الفرد بقدراته وإمكانياته بطريقة موضوعية، فلا يدعى مالميس عنده،

وأن تقاس هذه القدرات بحيث لا يتجاوزها الفرد؛ تجنباً للوقوع في الأخطار. وهنا وجب الاهتمام بالفروق الفردية التي نحكم من خلالها على قدرات الأفراد، ويصبح هذا المعيار منبهاً لكل فرد كيف لا يدعى قدرة لا يتمتع بها، ولا يجوز أن يخلق في فراغات ادعاء القدرة؛ لأن هذا الأمر يجعل أصحابه عرضة للوقوع في الأخطاء.

ثانياً، استمتاع الفرد بعلاقاته الاجتماعية،

هذا المعيار يدفع كل فرد يتطلع إلى السواء النفسي إلى أن يحقق شبكة من العلاقات الاجتماعية، تمكنه من الاستمرار السليم؛ فلا يجوز للفرد أن يعيش بمعزل عن الآخرين؛ بل لابد وأن ينتمى الفرد للجماعة، لأن الفطرة الطبيعية للإنسان تجعله مدنياً بالطبيع، ويميل إلى مشاركة الجماعة والعمل معها.

ثالثاً، تحقيق النجاح في العمل والشعور بالرضا،

يعد إحراز النجاح في العمل وما يصاحبه من شعور بالرضا من أهم الأمور لتحقيق السواء النفسي؛ حيث يمثل الشعور بالرضا أهمية كبيرة خاصة في ميدان العمل. ولعل أهمية هذا الشعور قد جعلت علماء النفس يفرّدون له تخصصاً متميزاً ومنفرداً، يسمى التوجيه المهني Vocational Guidance. ذلك العلم الذي يتعامل مع الفروق الفردية ويحدد الكفاءات، ويضع القدرة في مكانها،

ويحدد المهام والأدوار التي تتطلبها العمل، ويضع بقدر المستطاع (الرجل المناسب في المكان المناسب).

رابعاً، انشراح الصدر والإقبال على الحياة،

إن انشراح الصدر وما يصحبه من شعور بالسعادة والحماس والتفاؤل يدفع صاحبه إلى الإقبال على الحياة - بوجه عام - حيث يشعر بضرورة وأهمية دوره، وأن التفاعل من الأمور الضرورية التي تجعله يتعامل مع الأزمات، ويضع الحلول البديلة الملائمة التي تساعد على التعامل مع المشكلات، أو المواقف الصعبة التي تواجهه. وبطبيعة الحال... فإن هذا الشعور الراقى يجعل صاحبه صحيحاً نفسياً؛ حيث يشعر - من خلال هذا الانشراح وذلك الإقبال على الآخرين - بمودة وتفاعل وحب وتفاهم وعطاء.

خامساً، القدرة على تقبل الإحباط،

إن الصحة النفسية للفرد تظهر عندما يتعامل الفرد مع مواقف محيطة، تمثل عقبة في مسيرة تحقيق أهدافه. وتتجلى الصحة النفسية والخلو من المرض النفسي، عندما يحاول كل فرد أن يخرج من شرنقة الإحباط إلى عوالم متعددة، ولا بد وأنه يوظف إرادته للفعل الجاد الذي يبحث عن الحل البديل للملائم... ذلك الذي يخلصه من الشعور بالاكتمال الذي يصاحب الشعور بالإحباط، والذي قد يطمس في أصحاب النفوس الضعيفة القدرة على الوصول إلى أسباب الإحباط.

سادساً، الإشباع المتزن للدوافع والحاجات،

ويعد الإشباع المتزن للحاجات والدوافع من الأمور المهمة لتحقيق الصحة النفسية، وهي توليفة سوية، تعتمد على تحقيق الاتزان بين النواحي (السيكولوجية والنفسية). وبطبيعة الحال... فإن الإنسان يحتاج إلى الإشباع المعنوي والإشباع النفسي، إلا أن الإشباع النفسي المتمثل في الحب المتبادل والانتماء والقبول الاجتماعي، والتقدير والمكانة الاجتماعية للإنجاز، والحاجة إلى المغامرة وكسب الخبرات الجديدة - وإلى الحرية والنمو المستقل، وكذلك أيضاً الحاجة إلى الفهم

والوضوح الفكرى وتبادل الراى بطريقة موضوعية بينى وبين الآخر، ثم حاجة الإنسان الضرورية إلى الأمن Security هذه الحاجات النفسية، لابد من إشباعها والعمل على تنميتها وتغذيتها.

سابعاً، ثبات اتجاهات الفرد،

إن الشخص السوى يتميزه المبادئ والقيم، ويعد ثبات الاتجاهات من أهم أبعاد الشخصية السوية؛ فالشخصية التى تغير المبادئ وتتلون وتلبس الأقتعة، وفق ما تحققة المصلحة الشخصية هى الشخصية المريضة المتناقضة(*).

ثامناً، تصدى الفرد لمسئولية ما يتخذه من قرارات وأفعال،

يتضح هذا المعيار فى كل ما يلتزم به الفرد السوى من قرارات وأفعال؛ حيث يمثل قيمة كبيرة، أمرنا الله بها فى كتابه الكريم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» صدق الله العظيم.

إذا القول لابد وأن تواكبه أعمال، وأن القول الذى يتضمن قراراً لابد وأن ينفذ حيث الإرادة الصالحة.. الإرادة الفعالة.. الإرادة الصادقة، المعبرة عن الالتزام فى الحق والصدق فى القول والمسئولية فى الإنجاز والتعامل.

تاسعاً، الاتزان الانفعالى والتصرف بحكمة وروية،

ويعد المعيار الذى يتصل بالاتزان الانفعالى الذى يدفع صاحبه إلى التصرف بحكمة وروية وفهم للموقف من أهم المعايير المعبرة عن الصحة النفسية؛ حيث يعبر الاتزان الانفعالى عن نضج الأنا، وكيف تتوازن هذه الأنا مع الضمير والإرادة.. دون «طفیان» للانفعالات أو «جوراً على حق» أو وجل من ارتكاب خطأ.

(*) كثيراً ما نسمع عن هذه الشخصية المريضة التى تؤمن بأن «الغاية تبرر الوسيلة»، «واللى تغلب به إلب به»، «واللى يتجور ألى أقول له يا عمى».

وهكذا...

فإن الصحة النفسية - اعتماداً على هذه المعايير - هي خلو الفرد من المرض النفسى والعقلى، أو بما يطلق عليه «العصاب - والذهان»؛ الأمر الذى يجعلنا نتناول الأمراض العصبية، أو ما يطلق عليها الأمراض النفسية. ولعل من الأهمية بمكان أن نعرفه بين المرض العقلى والمرض النفسى على الوجه التالى:

الفروق الجوهرية بين العصاب والذهان في التصرفات السلوكية

معايير الحكم	العصاب	الذهان
الشخصية	تتغير تغيراً جزئياً.	تتغير تغيراً شديداً.
درجة الصلة بالواقع	تظل مرتبطة بالواقع بطريقة بسيطة.	لا تتصل بالواقع نهائياً وتبدو مضطربة.
المظهر العام	يحافظ على مظهره إلى حد ما.	يتدهور المظهر العام.
السلوك العام	يظل في حدوده الطبيعية إلى حد كبير.	تصرفات غريبة تثير الدهشة ولا تحترم القيم.
الكلام والمخاطبة	لا يتغير بطريقة ملحوظة.	يتشتت في الكلام ويبدو مضطرباً، بحيث يصعب فهم الهلوس.
التفكير ومستواه	يفكر قليلاً ويشارك، ولكن يبدو مشغولاً وسواساً.	التفكير مشوش، ويتميز بوجود أوهام وضلالات.
الهلوس	لا توجد - وإذا وجدت فهي نادرة ومؤقتة	موجودة بأنواعها.
الانفعالات	مضطربة إلى حد ما.	اضطرابات شديدة إلى حد الهياج.
إدراك الأمور	سليمة إلى حد كبير.	مضطربة ولا يصل إلى الإدراك السليم دائماً.
خبرات كاملة (لا شعورية)	لا تظهر في سلوك المريض بصورة واضحة.	تطفح في تصرفاته وكل حركاته؛ بحيث تبدو شافة تعبر عن كبت ومقاومة Resistance

من خلال هذه المقارنة، نتناول الأمراض النفسية، على الوجه التالي:

بعض الأمراض النفسية

إيذاء الذات المتعمد:

يعد مصطلح إيذاء الذات المتعمد من الأمراض النفسية، الذي بدأ يظهر كمصطلح جديد، وقد كان هذا المصطلح ينحصر في محاولات الانتحار؛ نتيجة «للاكتئاب الحاد»، والأمر يتطلب أن نحدد المصطلح، وقد تم تحديد المصطلح على أنه:

أي فعل متعمد يقوم به المريض ويشابه عملية الانتحار ولكنه لا يؤدي إلى الوفاة

Any act deliberately undertaken by patient which mimics the act of suicide but which does not result in a fatal outcome.

وهذا التعريف معناه أن هذا الفعل متعمد، يقوم به المريض لإلحاق الضرر بنفسه، أو يأخذ مواد خطيرة كجرعات كبيرة من العقاقير النفسية، في حين أن جرعته أقل من تلك الكمية، التي أخذها حتى يعتقد أن تلك الزيادة سيكون لها أثر فعال.

ولمينا أن نحدد أسباب تعمد إيذاء الذات:

انشغل الأطباء النفسيون في دراساتهم عن إيذاء الذات المتعمد، الذي يؤدي إلى هذا السلوك وردوه إلى المرض العقلي، واتفقوا على أن الإنسان الذي يقبل على تعمد إيذاء الذات مصاب بخلل عقلي وهذيان قهري، ويقوم بتنفيذ الانتحار عندما يصل المرض العقلي أقصاه.

وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً لفترة طويلة وتمت معارضته فيما بعد، وأصبح الانتحار ينظر إليه على أنه عرض مرضي أو عرض لأمراض وانحرافات أخرى، ويمكن تقسيم العوامل التي تسبب تعمد إيذاء الذات إلى ثلاث فئات، هي:

أولاً، العوامل النفسية:

وتشمل هذه العوامل بالإضافة إلى الناحية الدينامية وخصائص الشخصية

دوافع الفرد، ومعرفة الأسباب التي أدت إلى تكون أفعاله وأفكاره ومشاعره دافعة له نحو تعمد إيذاء الذات.

ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى ثلاث فئات:

(أ) الدوافع البين شخصية Interpersonal.

(ب) الدوافع داخل الشخصية Interpersonal.

(ج) الأمراض النفسية.

ويمكن أن نتناول هذه العوامل على الوجه التالى:

(١) الدوافع البين شخصية،

تحدث هذه الدوافع، عندما يحاول الفرد عن طريق سلوكه أن يؤثر فى شخص آخر أو أشخاص آخرين، أو يؤثر فى تغيير اتجاه ومشاعر الأفراد، الذين يحيطون به وتربطه بهم علاقات شخصية.

ويمكن أن نرى السلوك الانتحارى هنا كوسيلة للتأثير والإقناع والسيطرة على مشاعر الآخر، وهذا الآخر غالباً ما يكون شخصاً مهماً فى حياة الفرد كالوالد أو الحبيب أو أحد أفراد العائلة، ويمكن أن يعمم الفرد الشخص المنوط به هذا السلوك ليصبح المجتمع كله.

ويكثر هذا النوع من الدوافع فى الفئة العمرية ٢٠ - ٢٥، حيث يتفاعل فيها الإنسان بقوة مع مشاعر الرفض من إنسان آخر، وهنا تكون الحالة الانفعالية عدواناً واعتماداً وعدم نضج واندفاعية، ويأتى السلوك الانتحارى ليعبر عن مشاعر الغضب، أو ليشتير مشاعر الذنب عند الشخص المتسبب فى هذه المشاعر العدوانية، وتكون المسألة كلها عبارة عن محاولة من الشخص لعمل شئ من جزء العلاقة البينية مع الآخر، ومثل هؤلاء الأفراد ليسوا بالضرورة يريدون الموت أو يرغبون فيه.

(ب) الدوافع داخل الشخصية،

وتظهر هذه الدوافع فى كيار السن؛ حيث تكون العلاقة مع الآخر قد انفصمت عراها، ويبدو سلوك الفرد كما لو كان تعبيراً عن الضغوط الناتجة داخله، ويمكن أن نراها فى رجل تجاوز الستين من عمره، وكما فى حديثه، عن وفاة زوجته مثلاً، أو أن أولاده تزوجوا وتركوه وحيداً، وتنشأ لديه مشاعر الوحدة القاتلة أو الشعور بأنه لم يعد مطلوباً أو محتاجاً إليه. وبطبيعة الحال... فإن مثل هذه المشاعر تجعله يستشعر أن الحياة لم تعد تستحق أن تعاش، ويكون مزاجه مكتئباً منسحباً ومريضاً جسمانياً، وهو هنا يحتاج إلى نوع من الحفاظ على التكامل النفسى واحترام الذات وتقديرها؛ حتى لو كان هذا عن طريق سلوك متناقض يودى إلى تحطيم هذه الذات، وهنا تكون الرغبة فى الموت شديدة.

(ج) الأمراض النفسية،

تلعب الأمراض النفسية من حيث إصابة الفرد بها دوراً فى إحداث السلوك الانتحارى، وقد بين عديد من الدراسات مدى ارتباط هذا السلوك مع عديد من الأمراض النفسية، سواء كانت عصابية أو ذهانية. وأهم الاضطرابات التى ترتبط بالسلوك الانتحارى والاضطرابات النفسية: الاكتئاب والفصام والهذاء المزمن وإدمان الخمر والمخدرات.

الأمراض النفسية الوظيفية،

يمكن تقسيم الأمراض النفسية الوظيفية إلى قسمين رئيسيين، هما:

١- العصاب بأنواعه.

٢- الحالات السيكوباتية.

أولاً: العصاب،

يعتبر العصاب النفسى من أكثر الاضطرابات النفسية حدوثاً بوجه عام، وهو صورة متواترة للاستجابات التى يكونها الفرد خطأ لما يواجهه من مصاعب فى

حياته، وقد سبق وعقدنا مقارنة بينه وبين الذهان (المرض العقلي)، من حيث:
نوع الأعراض وشدتها ومدى تدهور الشخصية وتصدها، وعلى وجه العموم
تنقسم أنواع العصاب إلى:
- عصاب القلق،

القلق شعور يصيب صاحبه بالتوتر والاضطراب، فإذا زاد القلق عن الحد فإنه
يجعل صاحبه غير متكيف اجتماعيًا، فيعطل إنتاجه وتثاثر فعاليته وتقل سعادته
وشعوره بالاطمئنان.

وقد ترجع أسباب القلق إلى:

(أ) عوامل وراثية.

(ب) اضطراب الجو الأسرى؛ خاصة خلال عملية التطبيع الاجتماعي - Socialization.

(ج) الصراع النفسي.

(د) أسباب مترسبة مثل الشعور بالإحباط أو عدم التوقع للنجاح والإحساس
بالفشل في كل خطوة.

وبصاحب هذا القلق مجموعة من الأعراض النفسية:

* الشعور بالتوتر العام.

* المخاوف مجهولة المصدر.

* عدم القدرة على التركيز وضعف الانتباه؛ مما ينعكس على العمل والإنتاج.

* شدة الحساسية والشعور بعدم الاستقرار.

* قلة النوم نتيجة للشعور بالأرق.

* الأحلام المزعجة والكوابيس الليلية.

الأعراض الجسمية:

(١) سرعة ضربات القلب - النهجان - الشعور بالتعب.

(٢) فقدان القدرة على الإقبال على الطعام وضعف الشهية.

٣) الشعور بالغثيان والقئ.

٤) كثرة التبول والشعور بالإمساك (أو كثرة الإسهال).

٥) روغان البصر والشعور بطنين بالأذن واضطراب فى السمع.

٦) توتر الدورة الشهرية عند النساء، والشعور بالضعف الجنسى عند الرجال.

العصاب الوسواسى:

يطلق عليه الوسواسى القهرى Impulsive neurotic، وهو عصاب يتميز بظواهر القهر والإلزام Obligation والتكرار العصبى، فهو إذا حدث فى مجال العاطفة سمي «مخاوف مرضية»، وإذا حدث فى مجال التفكير سمي (وسواسى) أما إذا حدث فى مجال العمل سمي «قهرًا».

والمرضى بهذا الوسواس القهرى كان يتميز منذ نشأته بالدقة والحرص على أن يكون نظيفًا مرتبًا فى كل أموره، يعاقب نفسه ويلومها إذا وقع فى خطأ.

ولهذه الأحاسيس التى تتميز بالوسواس مظاهر تتمثل فى مجموعة من الأعراض، تبدأ بالمخاوف التى يلوذ بها المريض، وهى عبارة عن شعور ملزم متكرر بالخوف من موضوع بذاته، يتبين المريض من خلاله أنه غير موضوعى - ولاداع إطلاقًا للشعور بالخوف بسببه، ولكنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه هذا الخوف، ومن أمثلة هذا الخوف (الخوف من الأماكن المغلقة كركوب المصاعد - الخوف من الأماكن المرتفعة كالنظر من البلكونة - الخوف من الإصابة بالأمراض المعضلة مثل السل والسرطان والإيدز... إلخ).

يشعر المريض بالوسواس وهنا نحده ينشغل بمجموعة من الأفكار التى تضغط عليه، ثم تعاوده بصورة متكررة بحيث لا يستطيع التخلص منها؛ بحيث يصبح مجترًا لهذه الأفكار، إلى جانب أن الشعور بالقهر... ذلك الذى يدفع المريض إلى أن يجد نفسه يقوم بأعمال لا مبرر لها، ويحاول أن يقاوم تلك الأعمال ودون جدوى - ولا يهدأ توتره إلا إذا قام بهذه الأعمال؛ فنجد أنه إذا كان يعيش فى

الشارع يقوم بحساب عدد البلاط على الرصيف أو عدد أعمدة النور في الشارع أو عدد الأشجار التي تزين الشوارع . . . تلك بعض الأمراض النفسية، التي يمكن التعامل معها على المستوى العلاجي والإرشادي. ويمكن للإخصائي الاجتماعي المساعدة في أمر توجيهها مع فريق العمل العلاجي الإرشادي(*) .

(*) توجد العيادة النفسية بجامعة عين شمس، وهي العيادة الرائدة في العالم العربي؛ حيث تقدم خدماتها، من خلال فريق العمل المكون من: «الطبيب النفسي - الإخصائي النفسي - الإخصائي الاجتماعي - إخصائي المقاييس النفسية - الطبيب الممارس العام - إلى جانب المرشد النفسي» .

◆ الإرشاد النفسي

- معنى الإرشاد.
- الاتجاهات المستقبلية للتوجيه والإرشاد.
- نظريات الإرشاد النفسي.
- توظيف النظريات في العلاج والتوجيه.
- وجهة نظر حول النظريات.

العالم الذى نعيش بين جوانبه يحتاج منا إلى أن نسبر أغواره، فهذا العالم متغير وإيقاعه سريع وإيجازاته المادية متنوعة ومتعددة، تحتاج إلى أن نواكبها ونعمل معها بجد واجتهاد وروية؛ فغالباً ما يصاحب هذه المتغيرات المتلاحقة والإيقاع السريع مجموعة من الاضطرابات، تتدخل فى درجة تكيف الشخص.

ذلك التكيف الذى يقصد به من الناحية النفسية تلك العملية السلوكية، التى يستطيع عن طريقها الكائن الحى أن يحتفظ بدرجة من التوازن، بين حاجاته المختلفة والعوائق التى يتعرض لها الإنسان فى المحيط الذى نعيش بين جوانبه.

وجدير بالذكر أن الإرشاد النفسى يمثل العلم والفن، وهو حديث النشأة حيث ظهر مرتبطاً بحركة التوجيه المهنى فى أوائل القرن العشرين، ولم يزدهر إلا فى الثلاثينيات، ومنها ذاع انتشاره فى كل بقاع العالم.

ولكى نوضح مفهوم الإرشاد. فإننا نراه ينصب على تغيير السلوك وتوظيف الإرادة والعمل على تجهيز الشخص؛ للإقبال بطريقة أفضل على المواقف التى تواجهه فى الحياة.

معنى الإرشاد:

الإرشاد النفسى هو العلم التطبيقى الذى يتعامل مع المشكلات، التى تحتاج إلى توجيه، وهو الذى يستند إلى الأساليب المشتقة من مجالات علم النفس وفروعه وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتربية والاقتصاد والفلسفة.

ولقد مرَّ الإرشاد النفسى بمراحل معينة:

(١) ارتبط بالتوجيه المهنى حيث كانت حركة التوجيه المهنى قد أخذت نصيباً كبيراً فى المجال الصناعى.

(٢) ارتبط التوجيه والإرشاد النفسى بالتوجيه المدرسى؛ حيث ركز جهوده إلى

توجيه التلاميذ في المدارس؛ حيث بدأت المشكلات المتعددة تظهر في إطار المدرسة، وقد ارتبط الإرشاد النفسى بعملية التعليم.

(٣) يركز على تحقيق التوافق والصحة النفسية، وقد تبين الانتباه إلى التعامل مع مشكلة الأمراض العقلية والتخلف العقلى.

(٤) ارتبط الإرشاد النفسى بالنمو النفسى، ولقد بدأ هذا الاتجاه فى الخمسينيات من القرن العشرين كرد فعل ليركز على التوافق حيث بدأ التفكير فى وضع الإرشاد النفسى فى خدمة مراحل النمو المختلفة (طبعاً لا تنسى محاولات بياجيه) وظهور فكرة مطالب النمو عندها.

وتتلخص فكرة العلاقة بين الإرشاد النفسى والنمو فى أنه توجد خلال مراحل النمو بأوجهها المختلفة (البيولوجية والاجتماعية والنفسية) فترات، يكون فيها الفرد مستعداً لتعلم مهارات معينة أو محتاجاً إلى تعلم وتحصيل مهام معينة، تقتضيها طبيعة هذه المرحلة، كما تقتضيها درجة النمو أو النضج التى وصل إليها.

الاتجاهات المستقبلية للتوجيه والإرشاد،

وهناك الاتجاهات المعاصرة التى تحكم تطور التوجيه والإرشاد، وهى:

(١) زيادة التركيز على برامج التوجيه فى مقابل برامج الخدمات؛ إرشادات البحوث الحديثة، التى سوف توجه المستقبل إلى أن الإرشاد سيتطور فى اتجاه الوظائف المحددة والأهداف المعنية؛ حيث ستتضاءل كمية الخدمات المعروضة مع ازدياد الطلب وحجم العمل.

(٢) سوف تزداد الحاجة لدى المرشد إلى التقييم Evaluation؛ حيث تمثل مهارات التقييم والحكم لدى الموجه والمرشد أهمية كبيرة، ويعد هذا من الأمور الطبيعية التى أدت إلى زيادة الحاجة إلى البرامج وإلى التقييم، وتتجلى أهمية التقييم فى كونه يوضح مدى تحقيق الأهداف، ومدى كفاءة البرامج المتبعة وكيف حققت غرضها.

٣) الاتجاه إلى الإرشاد الجمعى، ذلك الذى يستخدم عندما:

* تكون المشكلات فى الأفراد الذين يعانون من مشكلة مشتركة، أو أن هناك قضية ذات طابع واحد ومشترك.

* يستخدم الإرشاد الجمعى Group Counselling، عندما يكون الهدف تدريب الأفراد أصحاب المشكلة على درجة من التفاعل.

* يستخدم الإرشاد الجمعى، عندما يحتاج صاحب المشكلة إلى الشعور بالانتماء والأمن والطمأنينة.

* يستطيع المرشد أن يستخدم هذا الأسلوب الإرشادى النفسى الجمعى؛ لبث روح التعاون، وعدم الشعور بالخوف أو الخجل وإبداء وجهة النظر بحرية.

ويستخدم فى إطار هذا الأسلوب الإرشادى تكنيك جماعات اللقاء Encerint-er-Group، أو جماعات المواجهة أو كما أطلق «روجرز» جماعات النمو النفسى، ويعد من أهم الأساليب الإرشادية؛ لأنه يقوم بدور غير موجه وغير مباشر Non Directive، ولهذا الدور أهداف هى:

- إتاحة الفرصة للأفراد «وضع الإرشاد والتوجيه» لمناقشة القضايا أو المشكلات، التى تعرض عليهم بطريقة متفاعلة، إلى جانب أن أسلوب جماعات اللقاء أو المواجهة هو الأسلوب الإرشادى المتبادل، الذى يسعى إلى:

* تنمية فهم الأعضاء وتواصلهم بعضهم ببعض.

* إعطاء الفرصة لإبداء وجهة النظر بصدق، بعيداً عن دوائر التردد والخوف.

* زيادة التعاون بفهم ووعى ومودة.

* الاهتمام بإعطاء الفرصة للطفل؛ كى يعبر بطريقة بنائية فيها إضافة، من خلال هذا التفاعل المستمر والأخذ والعطاء فى قضية أو وجهة النظر حول الموضوع المطروح.

نظريات الإرشاد النفسى،

تعد دراسة النظريات الخاصة بالإرشاد النفسى مختلفة عند دراستها فى إطار الشخصية؛ حيث نجد الاهتمام قد ينصب على كل ما يتعلق بنظريات الإرشاد على المستوى النظرى والعملى، إلى جانب هذه النظريات.. نلقى مزيداً من الضوء على طرائق وأساليب الإرشاد فى اختلافها واتفاقها.

وجدير بالذكر أن عرض هذه النظريات يعطى المهتم بالعمل الاجتماعى والنفسى إطلالة على بعض الأساليب، التى يمكن أن تتبع فى هذا المجال:

النظرية التى تركز على سمات الشخص، وبعض أبعاد شخصيته،

وهى نظرية يطلق عليها الإرشاد النفسى المباشر أو النظرية الذاتية، وقد تم تعريف السمة على أنها نظام عصبى مركزى، يخص الفرد ويعمل على جعل المثيرات المتعددة متساوية وظيفياً، ويتسبب أيضاً فى إصدار وتوجيه أشكال متساوية من السلوك التكيفى التعبيرى.

وتستند هذه النظرية إلى مجموعة من الأفكار، هى:

- (١) يختلف الأفراد عن بعضهم البعض اختلافاً كلياً فى سلوكهم، وتعتبر هذه الفروق منتشرة ولها صفة العموم بين الأفراد.
- (٢) يمكن تعديل السلوك الإنسانى، ضمن حدود وقدرة الفرد العضوية (ذلك يتعلق بالوراثة والبيئة، التى يعيش فيها الفرد).
- (٣) تركز على الفكرة السائدة، التى ترى أن السلوك الإنسانى فى العادة متشابه.
- (٤) السلوك الإنسانى ممثل فى الوضع الحالى للفرد؛ (لأن هذا الوضع يحوى على مجموعة الخبرات السابقة، بالإضافة إلى المناخ الطبيعى والاجتماعى الذى يعيش الفرد بين جوانبه).
- (٥) يمكن النظر إلى السلوك الإنسانى بسهولة من ناحية قدرة الفرد، وشخصية الفرد العامة وأخيراً مزاج الفرد وحوافزه.

٦) القدرة على فهم سلوك الفرد الاجتماعي وعلاقته بالمجتمع.

ويلاحظ أن نظرية السمات، والعوامل تأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية، وتعتمد على المقارنة في تنمية المجموعات من الناحية الاجتماعية، ثم تساعد في الوقت ذاته على فهم وتحسين التقويم الذاتي، وتستند هذه النظرية، التي تهتم بالتركيز على السمات والعوامل إلى:

(١) السلوك:

تعتمد هذه النظرية على أن سلوك الإنسان يمكن أن يتم تنظيمه بطريقة مباشرة، وأنه يمكن قياس السمات والعوامل المحددة بتطبيق الاختبارات والمقاييس؛ للوقوف على الفروق الفردية في السمات المميزة للشخصية، ثم ترى النظرية أن نمو السلوك يتقدم من الطفولة إلى الرشد، من خلال نضج السمات والعوامل.

(٢) الشخصية:

هي عبارة عن نظام يتكون من مجموعة سمات أو عوامل مستقلة، تمثل مجموع أجزائها.

(٣) السمات:

السمة هي الصفة (الجسمية أو العقلية أو الانفعالية أو الاجتماعية) سواء كانت هذه السمة فطرية أم مكتسبة، يتميز بها الشخص وتعبّر عن استعداد ثابت نسبياً كنوع معين من السلوك، ويفهم الفرد في ضوء سمات شخصيته.

وقد حاول علماء النفس حصر تلك السمات الشخصية. فإذا بها تتجاوز الآلاف ولا يعرف لها حصر؛ لذلك لجأوا إلى أسلوب التحليل العاملي Factor analysis؛ حتى يضمنوا تلك السمات في منظومة، يطلق عليها السمات العامة Genral Traits. تلك السمات التي انقسمت إلى:

(١) سمات مشتركة: يتسم بها الأفراد جميعاً.

(٢) سمات فريدة: لا تتوافر إلا لفرد معين، ولا توجد بالصورة نفسها عند الآخرين

- ٣) سمات سطحية: وهى الواضحة الظاهرة.
- ٤) سمات مصدرية: وهى الكامنة التى تعتبر أساس السمات السطحية.
- ٥) سمات مكتسبة: وتنتج عن فعل العوامل البدائية وهى متعلمة.
- ٦) سمات وراثية: وهى تكوينية ولا تحتاج إلى تعليم.
- ٧) سمات دينامية: تهيج الفرد وتدفعه نحو الأهداف.
- ٨) سمات قدرة: تتعلق بمدى قدرة الفرد على تحقيق الأهداف.

(٤) العوامل، Factors

مصطلح رياضى إحصائى يوضح المكونات المحتملة للظواهر، وبالنسبة لتفسيره النفسى يسمى بالقدرة والتحليل العاملى Factor analysis وهو أسلوب إحصائى للتوصل لأقل عدد ممكن من العوامل المشتركة اللازمة؛ لتفسير مجموعة من الارتباطات، والتى تؤثر فى أى عدد من الظواهر المختلفة.

توظيف نظرية السمات والعوامل فى الإرشاد النفسى:

تعتبر هذه النظرية هى الأساس النظرى الذى يقوم عليه الإرشاد النفسى المباشر Directive counselling، وكان من العلماء الذين فطنوا هذه النظرية فى مجال الإرشاد «وليامسون» Williamson، وهو رائد طريقة الإرشاد المباشر.

وتركز نظرية السمات والعوامل فيما يتعلق بالإرشاد النفسى على:

- ١) أن عملية الإرشاد النفسى أساساً عملية عقلية معرفية Cognitive.
- ٢) أن سوء التوافق لدى الأشخاص العاديين يضعف إلى حد ما إعمال العقل والتفكير؛ مما يؤثر على درجة التقاط الخبرات التعليمية.
- ٣) المرشد النفسى تقع عليه مسئولية تحديد المعلومات المطلوبة والعمل على جمعها وتحليلها، ثم تقديمها إلى صاحب المشكلة.
- ٤) المرشد يمثل الإطار المرجعى بما لديه من معلومات وخبرة وقدرة كافية على

تقديم النصح وحل المشكلات بطريقة الإرشاد، ومن ثم ينظر إلى المرشد نظرة المعلم الموجه لعملية التعليم لدى صاحب المشكلة:

٥) تهتم نظرية السمات بالتشخيص النفسى، واستخدام طرق الإرشاد التى تناسب اختلاف الشخصية من فرد إلى آخر، وتهتم كذلك بتحليل الشخص (صاحب المشكلة)، ثم إجراء بعض المقاييس النفسية التى تعطى تقديرات كمية لسمات الفرد، بما يفيد عملياً فى اختباره المتعددة.

٦) يعتبر مجموعة من المشتغلين بالإرشاد أن تعرف أبعاد الشخصية يعطى قيمة ونجاح عملية الإرشاد.

وجهة نظرنا قدة لنظرية السمات والعوامل:

وجدير بالذكر أن هذه النظرية قد وجه إليها مجموعة من الانتقادات، هى:

- ١) أنه لا يوجد اتفاق عام حول معانى السمات والعوامل.
- ٢) التحليل العاملى أسلوب إحصائى... هناك من استطاع الاستفادة منه، وهناك من لم يستفد لسوء توظيف هذا الأسلوب.
- ٣) تركز النظرية على سلوك الشخص، ولكنها لا تحدد كيف يسلك أو لماذا يسلك سلوكاً معيناً محدداً، كذلك لم توضح الدور الذى يمكن أن تقوم به الدافعية Motivation.

- ٤) لا يمكن النظرية من القيام بوصف كامل للشخصية وكل أبعادها.
- ٥) هناك شك فى قيمة النظرية بالنسبة لمجالات الإرشاد النفسى، وتعامل بحذر فى أمر الشخصية وتكاملها.

ثانياً، نظرية التحليل النفسى Psychoanalysis

الأفكار المحورية لهذه النظرية:

عندما نتكلم عن نظرية التحليل النفسى، يخرج علينا دائماً فرويد Freud الذى يرى أن الجهاز النفسى يتكون من:

(١) الهو، Id

وهى عبارة عن منبع الطاقة الحيوية والنفسية، ومستودع الغرائز أو الدوافع الفطرية، والتي تسعى إلى الإشباع بأى صورة وبأى ثمن، وهى الصورة البدائية Primitive للشخصية، قبل أن يتناولها المجتمع بالتهذيب.

(٢) الأنا، Ego

هو كما يرى أصحاب هذا الاتجاه مركز الشعور والإدراك الحسى الخارجى والداخلى، وما يتضمنه من عمليات عقلية؛ حيث يقوم بالإشراف على الحركة والإدراك، وهو الذى يتكفل بالدفاع عن الشخصية وتوافقها، وحل الصراع بين مطالب (الهو) و(الأنا الأعلى) والواقع؛ فهو محرك ينفذ الأوامر الشخصية ويعمل فى ضوء مبدأ الواقع؛ من أجل حفظ الذات وتحقيقها والتوافق الاجتماعى.

(٣) الأنا الأعلى، Super Ego

وهو مصدر المثاليات والأخلاق ومنبع الضمير، وما يتعلق به من الالتزام بالمعايير الاجتماعية والقيم الدينية، وهو الرقيب الذى يمثل سلطة داخلية على نفس الإنسان.

المفاهيم التى تركز عليها هذه النظرية وروادها،

يرى (فرويد) أن الجهاز النفسى لابد وأن يكون متوازناً، حتى تسير الحياة سيراً سوياً؛ ولذلك يحاول (الأنا) حل الصراع بين (الهو) و(الأنا الأعلى). . . فإذا نجح كان الشخص سوياً، وإذا أخفق ظهرت أعراض العصاب Neurosis.

وجدير بالذكر أن الفرويديين المحدثين Neo - Freudians قد أسهموا بآراء جديدة تلتخص فى الآتى:

(١) أضاف (يونيغ Yung) أهمية الذات Self كجهاز مركزى للشخصية، يعتمد عليها فى وحدتها وثباتها وتوازنها، وأنها تحرك السلوك وتنظمه، واهتم

«يونج» بمفهوم الشخصية المصنعة Persona، واهتم كذلك بدراسة الانماط النفسية (الانبساطي والانطوائي - فروع التفكير الوجداني، الحسي، الإلهامي).

(٢) تحدث (أدلر Adler) عن مفهوم الذات الدينامي، الذي يتعامل مع الآخرين والذات المبتكرة Creative Self، وهي العنصر الدينامي النشط والفعال Ef-fective في الشخصية.

(٣) قدمت (هورني Horney) أيضاً مفهوم الذات الدينامي. . ذلك الذي جعلها تعتقد أن الشخص يناضل في الحياة، من أجل تحقيق ذاته فتحدث الذات المثالية والذات الواقعية.

(٤) وتحدث (رانك Rank) عن نمو الذات من الطفولة؛ بحيث يمر تطور الفرد بثلاث مراحل: (العادي - العصبي - المتوافق).

(٥) وتعتقد (سلوفيان Sullivan) أن جهاز الذات ينمو بطريقة يحفظ بها نفسه ضد القلق، الذي يعتبر نتاجاً للتفاعل الاجتماعي، وتلعب دينامية الذات Self Dynamics دوراً مهماً في تنظيم السلوك، وفي تحقيق الحاجة إلى القبول الاجتماعية Social Tolerance.

(٦) ويرى (فروم Fromm) أن الشخصية هي مجموعة من السمات النفسية -Psy-chological Traits، والجسمية الموروثة والمكتسبة، التي تميز الفرد وتجعل منه شخصاً فريداً، ويؤثر على أهمية دور الأسرة. وعملية التطبيع الاجتماعي Socialization، هي التي تساعد على اكتساب الشخص «الخلق الاجتماعي» والقيمة الاجتماعية Social Values، مع اكتسابه في الوقت نفسه «للأخلاق على المستوى الفردي».

كيف توظف نظرية التحليل النفسي في المجال الإرشادي:

نلاحظ كما سبق في عرضها للرواد وأصحاب الفكر المتطور لنظرية التحليل النفسي، أن هذه النظرية تعتمد على دينامية الطبيعة البشرية وعن بناء الشخصية،

وما تعتمد عليه من بحث لدراسة السلوك البشرى، وهى أيضاً طريقة علاج؛ حيث يعتبر المرضى فى رأى (فرويد) من أهم الأسباب، التى تؤدى إلى الصراع النفسى Psychological Conflict.

أما عن خطوات التحليل النفسى Psycho Analysis، والتى تدخل ضمن الخطوات العامة.. فأهمها الدينامية بين المسترشد (صاحب المشكلة) والمرشد المعالج، والتى يسودها التقبل والتفاعل الاجتماعى السليم والتطهير - التفريغ الانفعالى Catharsis للأشياء المكبوتة، سواء كانت أحداثاً أو خبرات أو دوافع أو صراعاً بكل العوامل المصاحبة الانفعالية، تؤدى إلى اختفاء أعراض «العصاب» والتداعى الحر Free Association، يكشف عن الأشياء والخبرات المكبوتة فى اللاشعور، عن طريق إطلاق العنان بحرية للأفكار والخواطر والاتجاهات والصراعات والرغبات والإحساسات، مع الاستفادة من «فلتات اللسان وزللاته»، ثم محاولة التفسير لما يكشف عن ذلك التداعى الحر.

وتكون مهمة التفسير شرح كل ما هو غامض بأسلوب منطقى صحيح، وبلغة علمية يفهمها صاحب المشكلة، خطوة مهمة فى تخفيف حدة الصراع النفسى Conflict، إلى جانب أنهما يساعدان فى إعادة التوازن لصاحب المشكلة، إلى جانب العمل على تخفيف حدة الصراعات وإعادة تمرس القيم والمبادئ، ومعرفة هدف صاحب المشكلة فى الحياة وتنمية مفهوم إيجابى عن الذات لديه، والتقليل من حدة القلق وتكوين الإرادة الإيجابية.

ذلك كله يغير كل ما يحيط بصاحب المشكلة من هواجس ومؤثرات ودوافع ومدى التغيير، الذى طرأ على نظرية التحليل النفسى الكلاسيكى، كما وردت عند (فرويد) وبعض الإجراءات الفنية، التى ظهرت لدى الفرويديين المحدثين Neo Freudians، والتى تتماشى مع مجريات الإرشاد النفسى وأهدافه.

وجهة نظر عن مدى فعالية هذه النظرية في مجال الإرشاد:

حظيت نظرية التحليل النفسي كاتجاه تحليلي في مجال الإرشاد النفسي بمعارضة ونقد شديدين، على أساس ما يلي:

(١) أن التحليل النفسي يهتم أساساً بالمرضى والمضطربين نفسياً، أكثر من اهتمامه بالأصحاء والأسوياء.

(٢) إجراءات التحليل النفسي تعد إجراءات مطولة تستغرق وقتاً طويلاً وجهداً ومالاً وتحتاج إلى خبرة دامغة، وتدريبات مكثفة قد لا تتوافر بسهولة إلا لعدد قليل من الإخصائيين.

(٣) إن بعض المشتغلين بالإرشاد النفسي يرون في تعصب أن التحليل النفسي هو الطريقة المثلى؛ بحيث يعلو على كل الطرق الإرشادية!!

(٤) هناك مقاومة عند بضع المشتغلين بالإرشاد النفسي، عندما يتعاملون مع التحليل النفسي.

ثالثاً، نظرية المجال Field Theory

ترتبط هذه النظرية باسم (كيرت ليفين Lewin)، وقد تأثر في نظريته بعلم النفس الجسثاتلي، التي نادى بها فرنر Wertheimer وكوهلر Kohler وكوفكا Koffka.

ركائز هذه النظرية:

تعتمد هذه النظرية على المجال الكلي، الذي يتدخل في عملية الإدراك، وأن الكل ليس مجرد مجموع الأجزاء، وإنما يتحدد بطبيعة الكل بحيث تتكامل الأجزاء في وحدة واحدة.

وتؤثر نظرية المجال على أن السلوك هو وظيفة المجال، الذي يوجد في وقت حدوث السلوك ونتيجة لقوى دينامية محركة، ويبدأ بتحليل الموقف ككل، ومن

الموقف الكلى تتمايز الأجزاء المكونة، ويؤكد (ليفين) أهمية قوى المجال الدينامية، التى تسهم فى تحديد (السلوك).

ويعرف المجال بأنه نتاج الوقائع الموجودة معاً، التى تدرك على أنها تعتمد على بعضها البعض.

مفاهيم نظرية المجال:

الشخص:

هو كيان محدود داخل المجال الخارجى الأكبر منه، والشخص له خاصيتان هما (الفصل) عن المجال و (الوصل) مع المجال، وبمعنى آخر (التفاضل أو التمايز والتكامل)؛ أى إن الشخص يكون منفصلاً عن المجال الكلى الأكبر، مندمجاً فى الوقت نفسه داخل المجال الجزئى، وهذا هو دافع الشخص.

المجال النفسى:

يوجد الشخص فى مجال نفسى أو بيئة نفسية خارج حدوده، ويحدث تفاعل بين الشخص ومجاله النفسى؛ بحيث يعتمدان بعضهما على البعض الآخر داخل (حيز الحياة Life Space).

المجال الموضوعى أو البيئة الموضوعية:

تلك التى تضم كل الإمكانيات التى تخرج من المجال السلوكى للشخص، والتى ليست فى حيز الحياة، ولكن تؤثر على الفرد.

المناطق:

ينقسم المجال الكلى إلى المناطق، وتحتوى كل منطقة على وقائع أو حقائق، وتسمى الوقائع الأساسية للمنطقة للشخصية الداخلية باسم الحاجات Needs.

الاتصال بين المناطق:

تتصل المناطق عن طريق الاتصال بين الوقائع الواقعة فى كل منهما بالأخرى ويحدث بينهما تفاعل وتأثير متبادل ينتج عنه حدث Event.

الحركة والاتصال،

وهى من الخواص المهمة للمجال النفسى، وتحدث كتناج للتفاعل بين الوقائع وأسماء ليفين (مبدأ الارتباط).

إعادة بناء حيز الحياة،

ويتم ذلك عن طريق الحركة والاتصال ونتيجة للتفاعل بين الوقائع.

الواقع،

وقد تحدث كيرت ليفين عن الواقعية واللاواقعية.. أما الواقعية فتتضمن حركة فعلية، واللاواقعية تتضمن حركة تخيلية، فيستطيع أن يحل مشكلة حلاً واقعياً أو حلاً لاواقعياً فى حلم يقظة.

الزمن،

يلذكر (كيرت ليفين) أن السلوك لا يتأثر بالماضى والماضى ويقرر أن الوقائع الحاضرة وحدها هى التى تستطيع أن تحدث سلوكاً حاضراً، أما الوقائع الماضية فلا تؤثر فى الحاضر.

ديناميات الشخصية،

يشبه ليفين بناء حيز الحياة بالخريطة الجغرافية؛ باعتبار أن الخريطة الجغرافية الجيدة تحتوى على جميع المعلومات، التى يحتاج إليها الشخص لتدله على الطريق الصحيح، كذلك.. فإن البناء الجيد لحيز الحياة - أى الشخص ومجاله - لابد وأن يحتوى على الوقائع اللازمة لتفسير السلوك المحتمل للشخص.

التحرك،

يتحرك الشخص خلال مجاله النفسى، مدفوعاً بحاجة تطلق الطاقة وتستثير التوتر، وتضفى قيمة إيجابية على المنطقة، التى فيها ما يشبع هذه الحاجة.. فيتحرك الشخص نحو منطقة إشباع الحاجة، وقد تكون الحدود بين المناطق سهلة

العبور فيتحقق الإشباع أو العكس؛ مما يجعل الفرد مضطراً إلى اتخاذ مهارات جانبية للحركة نحو الهدف، وهو إشباع الحاجة.

فقد التوازن؛

هو حالة عدم تساوى التوتر داخل المناطق المختلفة للشخص وارتفاع التوتر فى النظام كله، وإذا تكرر حدوث ذلك تراكم التوتر الداخلى واشتد، بما يحدث اندفاعاً مفاجئاً للطاقة فى المنطقة الإدراكية - الحركية - يؤدي إلى إحداث السلوك، الذى يطلق عليه «السلوك الانفجارى Explosive».

العودة إلى التوازن؛

وإعادة الشخص إلى حالة التوازن هو الهدف النهائى لجميع العمليات النفسية، بعدة طرق:

(أ) قيام الشخص بتحريك مناسب فى المجال النفسى، يؤدي إلى تحقيق الإشباع وتحقيق الهدف.

(ب) قيام الشخص بتحريك بديل، فى حالة وجود تنسيق كامل متبادل بين حاجتين؛ بحيث يؤدي إشباع إحدهما إلى إزالة التوتر المصاحب للحاجة الأخرى.

(ج) قيام الشخص بتحريك خياله كما فى أحلام اليقظة.

نمو الشخصية؛

تناول ليفين بعض التغيرات السلوكية التى قد تحدث خلال النمو، والتى تنتج عن التنوع فى أنشطة الشخص وانفعالاته وحاجاته وعلاقاته الاجتماعية، التى تزايد مع نموه، كما يرى ليفين أن النمو عملية مستمرة يصعب تقسيمها إلى مراحل منفصلة.

تطبيق نظرية المجال فى الإرشاد النفسى:

يلاحظ على نظرية المجال أن (كيرت ليفين) أنها كانت مرتبطة بالإرشاد النفسى بطريق غير مباشر، حيث طبق مفاهيم نظريته على دراسة السلوك فى الطفولة والمراهقة وديناميات الجماعة، وحل الصراع الاجتماعى، ومشكلات جماعات الأقلية وإعادة التعلم.. ولكنه لم يتعرض (ليفين) مباشرة فى كتاباته لتطبيق نظريته فى الإرشاد النفسى.

ويمكن أن تطبق نظرية المجال فى الإرشاد النفسى، على الوجه التالى:

(١) لابد من وضع معايير لكى نتعرف أسباب الاضطرابات والمشكلات النفسية. وقد تكون هذه المعايير:

(أ) معايير تتعلق بشخصية صاحب المشكلة وخصائصها، التى ترتبط بالاضطراب والمسببة له.

(ب) خصائص حيز الحياة التى ترتبط بصاحب المشكلة، عند حدوث الاضطراب.

(ج) الأسباب الشخصية والاجتماعية، التى تتعلق بالاضطراب النفسى.

(٢) يتكون الاضطراب النفسى من عدة مكونات، هى:

(أ) مجال الفرد خاصة عندما تبدأ ردود الأفعال.

(ب) المجال الثقافى والبيئى العادى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى.

(ج) مجال المرشد النفسى أو المعالج النفسى وتأثيره.

(د) مجال نظرية الإرشاد نظريًا وعمليًا.

(٣) تهتم نظرية المجال فى عملية الإرشاد والعلاج على ما يأتى:

(أ) أهمية التغيير الذى يحدث فى عملية الإدراك Perception، حيث يتأثر الإدراك بعامل الوقت - قيم الشخص - أهدافه - إدراك العوامل التى تهدده.

ب) محاولة مساعدة صاحب المشكلة حتى تخف حدة العوائق، التي تتدخل في إحداث المشكلة؛ فتجعل صاحب المشكلة أكثر مرونة وأقل جموداً، وتساعد في تحقيق أهدافه حتى لا يواجه مواقف محبطة.

ج) أهمية تغيير مفاهيم الفرد واتجاهاته.

د) أهمية التغيير التدريجي خطوة - خطوة في إعادة التعلم.

هـ) أهمية أن يستبعد صاحب المشكلة - كخطوة محورية في عملية التعليم (كأن يساعد المرشد صاحب المشكلة على إعادة خبراته الماضية وتنظيم الخبرات الحاضرة، ويعدل المجال الإدراكي للتوصل إلى الحل التلقائي المفاجئ الذي يستغرق بعض الوقت).

وجدير بالذكر أن هذه النظرية قد تعددت مفاهيمها وتعددت؛ بحيث لم تعد تمثل سلامة أو سهولة في تطبيقها في المجال الإرشادي.

رابعاً: النظرية السلوكية (يطلق عليها نظرية المثير والاستجابة أو نظرية التعليم)؛

ترتكز هذه النظرية على السوك، وكيف تتم عملية التعليم Learning Process ثم ما العوامل التي تؤدي إلى تغييره، وبطبيعة الحال يمثل ذلك الاهتمام بالسلوك وما يتعلق به أهمية كبيرة في عملية الإرشاد.

وأول ما يصادفنا في هذه النظرية أنها «عارضت نظرية السمات؛ على اعتبار أن ليس هناك صفة ثابتة مستقرة»؛ لأن الشخصية ليس لها بناء ثابت ودائم، وكل ما هناك هو مجموعة من العادات النوعية، تتعلق بالارتباط بين المثيرات والاستجابات Stimulus & Responces.

وترتكز هذه المدرسة على مجموعة من المفاهيم والمصطلحات، أهمها:

١) أن معظم سلوك الإنسان متعلم، ويمكن تعديل هذا السلوك المتعلم وفق ما تقتضيه المواقف والضرورة.

٢) هناك علاقة بين المثير والاستجابة. . فإذا كانت هذه العلاقة بينهما سليمة كان السلوك سوياً، والعكس ليس صحيحاً حيث تتأثر الاستجابة بالمثير الذى يصاحبها.

٣) هناك دوافع ودافعية Motivation تتدخل فى عملية التعليم؛ حيث لا تتم عملية التعليم دون دوافع؛ لأن الدافع هو طاقة كاملة قوية يحرك الطاقة الانفعالية الكاملة.

٤) التعزيز Reinforcement وهو التدعيم للسلوك والثبت، الذى يؤكد سلامة الخبرة، وبطبيعة الحال لابد وأن يرتبط بما يحققه من أثر طيب.

٥) أثر التعزيز وضع فى شكل منظم، أطلق عليه قانون الأثر Law of Effect.

٦) أشاروا إلى أن هناك طوفاناً يحدث Extin Tim، وهو حالة يضعف فيها السلوك المتعلم؛ بحيث يقل تأثيره ويخمد ويتضاءل، إذا لم يحدث المران والممارسة.

٧) تحدث تعميم السلوك Generalization، وذلك التعميم عبارة عن تدعيم للاستجابة المتعلمة الناجحة.

كيف توظف النظرية السلوكية فى مجال الإرشاد النفسى؟ يتم ذلك التوظيف فى،

- * تعزيز السلوك السوى المتوافق.
- * إعطاء صاحب المشكلة الفرصة لكى يتعلم سلوكاً جديداً، يلقي عنده قبولاً ورغبة مع التخلص من السلوك غير المرغوب.
- * تغيير السلوك غير السوى من خلال تحديد السلوك المراد تغييره، وكذلك خلق المناخ الملائم الذى يحقق هذا التغيير المنشود.
- * صيانة صاحب المشكلة، حتى لا يعود مرة أخرى إلى المشكلة.
- * ظهور الإرشاد السلوكى Behavioral Counselling، ذلك الذى اعتمد عليه العلاج السلوكى Behavior Therapy.

خامساً، نظرية الذات Self Theory

ترتكز هذه النظرية على دراسة الذات ومفهوم الذات Self Concept. ويعد مفهوم الذات حجر الزاوية في هذه النظرية، لأنه ينظم السلوك. ويعد كارل روجرز Rogers هو الذى قدم نظرية الإرشاد والعلاج النفسى المتمركز حول العميل Client - Centered أو غير المباشر Non - Directive. وقد اعتمدت هذه النظرية على مجموعة من المفاهيم للمكونات الأساسية؛ وأعنى بتلك المفاهيم والمكونات:

* اهتمت بالذات Self تلك التى تمثل كينونة الفرد، وتنفصل تدريجياً عن المجال الإدراكى، ثم مفهوم الذات Self Concept، وهو الذى يمثل تكويناً معرفياً منظماً ومتعلماً للمدركات الشعورية والتصورات الخاصة بالذات، ومفهوم الخبرة التى تمثل مجموعة من الخبرات والمعايير الاجتماعية، وهو الذى أطلقوا عليه مجال الخبرة الظاهرى Phenomenal Field.

كيف نستفيد من هذه النظرية فى الإرشاد النفسى:

تساعد فى ترسيخ مفهوم الذات الواقعى Realistic Self Concept بحيث تكون معظم حالات سوء التوافق هى نتيجة للفشل فى تنمية هذا المفهوم الواقعى، ورسم الخطط التى تتلاءم معه.

ويساعد هذا النمط من الإرشاد فى التوجيه المهنى Vocational Guidance، إلى جانب أن هناك مجالات أخرى إرشادية، تتمثل فى الإرشاد الزواجى Mar-riage Counselling.

وجدير بالذكر أن هذه النظرية قد قابلت بعض الانتقادات، تتمثل فى أن روجرز يرى أن الفرد يعيش فى عالمه الذاتى الخاص؛ بحيث يكون سلوكه ترجمة لإدراكه الذاتى.

وبطبيعة الحال... فإن هذا التقوقع شرنقة الذات يكون على حساب الموضوعية Objectivity، إلى جانب أن هذه النظرية لا تعطى اهتماماً كبيراً للاختبارات النفسية.

◆ نماذج من الإرشاد النفسي

في مجال الخدمة والرعاية الاجتماعية

- مواصفات البرنامج الإرشادي (إعداد - ركائز - خطواته).
- توظيف الإرشاد النفسي في مجال الرعاية الاجتماعية.
- الرعاية الاجتماعية من المقومات التربوية والإرشادية لتلاميذ المدارس.
- التغيير الاجتماعي وانعكاسه على السلوك في المجتمع.

مواصفات البرنامج الإرشادي

يستند الإرشاد النفسى لتنمية القدرات الابتكارية لدى الأطفال إلى الإدارة الواعية التى فى مقدورها، اعتماداً على المنهج العلمى السليم، أن تخطو خطوات نحو تحقيق هذه التنمية، والعمل على إظهار القدرات ومتابعتها، ومن هنا يمكن القول أن تخطيط البرنامج الإرشادى المقترح يعتمد على خطوات، لعل من أهمها(*):

- * توضيح أهداف البرنامج.
 - * توضيح الوسائل والطرق التى تعمل على تحقيق هذه الأهداف.
 - * العمل على إشراك أكبر عدد ممكن من العاملين فى المؤسسة، التى تطبق برنامج الإرشاد؛ لنضمن شبكة من العلاقات الاجتماعية المؤيدة لهذا البرنامج والمؤمنة بفاعليته.
 - * تحرى الدقة فى التماشى مع البرامج والمناهج المتبعة، دون الخروج على السائد المألوف أو المتبع من الأصول واللوائح والنظم.
 - * وضع مراحل التقويم بطريقة سليمة؛ لتتم المتابعة الواعية لدرجة التنمية المطلوبة.
- وإذا ما حاولنا أن نضرب مثلاً لتطبيق هذه الخطوات على المدرسة؛ بوصفها المؤسسة التربوية، التى تتطلع إلى تعليم التلاميذ، وهى فى سعيها الحثيث نحو
- (*) أرجع إلى أ.د. سيد صبحى فى دراسته عن «الإرشاد النفسى فى مجال الابتكار، كلية التربية، جامعة عين شمس، ١٩٩٧ .

تحقيق هذا الهدف، تعمل على إشباع حاجاتهم العضوية والنفسية والاجتماعية والثقافية والترويحية والمهنية والدوقية والجمالية؛ فإن الملاحظ أن البرنامج الإرشادي النفسى يعد بمثابة الوسيلة الإجرائية، التى من شأنها أن تحول الكلام النظرى إلى تطبيقات عملية وفعالية، خلال عمليتى التعلم وتقديم المقررات الدراسية.

واعتماداً على ذلك، فلا بد لمن يقوم بهذه المهمة التعليمية أن يهتم بالأدوار الآتية:

- * تعرف الفروق الفردية بين التلاميذ بطريقة علمية سليمة.
- * دراسة مسحية لتعرف حاجات التلاميذ الشخصية والاجتماعية، إلى جانب دراسة اتجاهاتهم وميولهم ونشاطهم.
- * تجهيز الإمكانيات المادية والبشرية للعمل على تحقيق إشباع تلك الحاجات
- * تحديد برنامج رمنى لتوظيف البرنامج، والعمل على التحقق من جدواه بطريقة موضوعية، تعتمد على التفاهم والتفاعل بين أعضاء فريق العمل الإرشادى.
- * تحديد الأفراد الذين لهم اتصال مباشر أو غير مباشر بالتلاميذ أفراد العينة.
- * تدريب الاختصاصيين على الوسائل الفنية والإدارية، والتنفيذية وما يتعلق بكل هذه الأمور من (اختبارات ووسائل ولوائح إدارية وهيئات ومؤسسات معينة، قد تساعد فى تقديم الخدمات، أو تمثل خبرة استشارية أثناء تنفيذ البرنامج الإرشادى).
- * عقد اجتماعات دورية لتقويم ماتم إنجازه من البرنامج، وتعرف مدى فاعلية البرنامج، وتأثيره على تنمية المهارات، وتغيير الاتجاهات إلى الوجهة المطلوبة.

وجدير بالذكر أن الإدارة المدرسية يجب أن تتميز بالديمقراطية، التى تعمل على تشجيع العاملين فى البرنامج، وتمكنهم من تخطيطه وتنفيذه بحرص، مع توظيف كل الوسائل المتاحة فى جو يتسم بالتفاعل والتعاون وإيمان بقيمة البرنامج.

وجدير بالذكر أن نجاح البرنامج الإرشادي على وجه العموم يعتمد على مجموعة من الأسس والركائز، التي تنتمي إلى المجال النفسى والتربوى والإدارى ومن الممكن أن نتناول هذه الركائز على الوجه الآتى :

الركيزة النفسية،

يعتمد البرنامج الإرشادى لتنمية الابتكار لدى الأطفال على أسس نفسية، لابد من مراعاتها، ولعل هذه الأسس هى :

- * الاهتمام بشخصية الطفل على وجه العموم (بنظرة شمولية دون التركيز على جانب معين أو محدد).
- * الاهتمام باكتشاف الفروق الفردية بين الأطفال، وفى ضوءها يتم تصنيفهم ووضعهم فى المواقف الملائمة لقدراتهم.
- * الاهتمام بقياس مستوى النضج، وما يواكبه من عوامل، تساعد على تعلم الخبرات بسهولة ومرونة وفهم.
- * الحرص على أن تكون المهام الملقاة على عاتق كل طفل فى مستوى قدراته؛ بحيث لا يجور أن يكلف طفل بعمل لا يقوى عليه.
- * إعطاء دور المرشد النفسى أهمية؛ بحيث يمثل همزة الوصل الحقيقية والفعالة، التى تعمل على ربط العلاقة بين التلميذ والإدارة المدرسية؛ فيشعر بقيمة وضرورة المناخ المدرسى، ويحرص على الانتماء إليه والتفاعل معه ويقدم له الخانات اللازمة.

الركيزة التربوية،

وإذا كنا قد حددنا أهم العناصر التى تندمج تحت الركيزة النفسية.. فإن هذه الركائز تستند إلى ركيزة تربوية تدعمها فى التطبيق، وتعنى بها التصور العام للمدرسة كمؤسسة تربوية، لابد من أن تراعى بعض الأمور الآتية فى أمر تنفيذ البرنامج الإرشادى:

- * أن يكون الهدف من البرنامج الإرشادي، الذي يعد لتنمية الابتكار متماشياً مع الفلسفة التربوية للمدرسة - أي لا يخرج البرنامج إلى الإطار التربوي العام الذي تدعّمه المدرسة.
- * أن يكون البرنامج جزءاً لا يتجزأ من العملية التعليمية ومكملاً لها ومدعماً للمفاهيم التربوية التي تحتوى عليها.
- * الاهتمام بدور المعلم تربوياً وتدعيم تصرفاته القيادية وتفاعله في رسم الخطط، والعمل على تنفيذ البرنامج.
- * اعتبار جميع الأفراد (الأطفال) المشتركين في البرنامج على درجة من السواء، تمكنهم من الاستمرار في تلقى البرنامج، وما يتضمنه من خبرات ومهارات.
- * مراعاة المشكلات التي قد يعاني منها الأطفال، واعتبارها متأثرة ومتكافئة؛ بحيث يمكن أن تؤثر بعضها في البعض الآخر.
- * الاعتماد على المواقف كمحركات رئيسية لدراسة المشكلات؛ فالمشكلة النابعة من الموقف هي أهم المشكلات.
- * عندما تتكامل وتتفاعل الجهود في أمر إعداد وتخطيط وتنفيذ البرنامج بين جميع العاملين في المدرسة، وكذلك الآباء والأمهات وجميع المؤسسات والهيئات الخارجية، فنحن نضمن للبرنامج النجاح والاستمرار والتأثير الموجب.

الركيزة الإدارية،

- يعتبر البرنامج الإرشادي في نجاحه على مجموعة من الأسس الإدارية التي تحقق العوامل الآتية:
- * تهيئة المناخ الإداري السليم المعتمد على الإمكانيات المخططة، وفق إدارة سليمة تعمل على متابعة وتنفيذ البرنامج بكل ما يتطلبه من «مكان ووقت وأدوات ووسائل»؛ لتيسير العمل في البرنامج ومساعدة أفرادها على الاستفادة وتوظيف الخبرات في جو، يحقق لهم التهيئة السليمة لتقبل الخبرات.

* اختيار فريق العمل الذى سوف يقوم بإدارة المجموعات من الأطفال أو العمل على تنفيذ البرنامج؛ بحيث يتميز أفراد الفريق بكل الصلاحيات النفسية والانفعالية والخبرات، التى من شأنها أن تساعدهم على إدارة العمل.

* مراعاة أن يتكون دولا ب العمل الإدارى من أولئك، الذين يتميزون بالقيم الأخلاقية والدينية والفنية والجمالية والحرص على النظام، الذى يسمح للعمل أن يتم بطريقة سليمة.

* دراسة نظم وقوانين ولوائح العملية التعليمية، وما تتطلبه من أصول إدارية وقانونية، تخدم سير العمل فى البرنامج بعيداً عن عوامل الضغط والروتين.

* المتابعة الواعية التى تعمل على تعرف مدى فعالية البرنامج الإرشادى المقدم للأطفال، وكيف يحقق هذا البرنامج دوره، وإلى أى حد استطاع أن يحقق الهدف المنشود.

البرنامج الإرشادى المثمر إذاً يعتمد على ركيزة نفسية وركيزة تربوية، ثم ركيزة إدارية إلى جانب ما يتطلبه العمل الإرشادى من تفاعل ووصال بين المعلم والأسرة؛ لأن المدرس فى مدرسة الحضانة أو فى الابتدائى يعد بديلاً عن الأبوين؛ وخاصة ما تقوم به الأم من رعاية؛ الأمر الذى يتطلب أن يقوم المدرس فى هذه المراحل التعليمية بكل ما من شأنه أن يحقق التكيف الاجتماعى للطفل فى مرحلة المدرسة الابتدائية، ويتم له كل ذلك، إذا ما كانت الصلة وثيقة بين المدرسة والمنزل، وأن يعمل المدرس على إشراك الآباء والأمهات فى أمر التعامل مع قدرات الأولاد (بنين وبنات)؛ حتى يتم صقل الخبرة وتدعيمها على مستوى المدرسة والمنزل فهذه المشاركة هى المحور الرئيسى لنمو القدرات.

وهناك بعض الملاحظات المهمة، التى ينبغى مراعاتها، ونحن نعد البرامج الإرشادية لتنمية قدرات الأطفال الابتكارية، تلك الملاحظات التى تحدد مسار التدريب الذى سوف يراعيه البرنامج المستخدم.

ويتحدد نطاق هذا التدريب تبعاً لمراحل معينة يمكن عرضها على الوجه الآتى:

المعرفة:

يقصد بها فى مجال تدريب قدرات الأطفال على الأداء الابتكارى، من خلال جمع المعلومات التى يجب الإلمام بها لمزاولة العمل، وما يتطلبه من معرفة الأسباب والطرق والإجراءات، وما يتعلق بها من لوائح تنظيمية تنظم العمل وتتحدد فيها المسؤوليات والواجبات وعلاقات العمل، وما يتعلق بها من قيم؛ حيث لا يجوز أن يتم العمل، دون أن تتحدد القيم المطلوبة للإجراءات بحيث يتعلم الأطفال أن العمل الممتار والمبتكر هو ذلك، الذى يعتمد على مجموعة من القيم والأصول والأخلاقيات.

ويلاحظ أن نطاق المعرفة يتشعب إلى آفاق متعددة يجب مراعاتها ونحن نقوم بتنمية قدرات الأطفال الابتكارية فمن هذه الآفاق:

«ما يتحتم معرفته، ومنها ما يجب معرفته ومنها، ما يستحسن معرفته».

ومن نواحي المعرفة المطلوبة للطفل أثناء البرنامج على سبيل المثال:

* معرفة الخامات التى سوف نستخدمها.

* التنبيه إلى خطورة الآلات، إذا كانت هناك بعض الآلات، التى سوف نستخدمها وتعويده الطريقة الصحيحة التى ترشده وتوجهه فى التعامل معها.

* توظيف الوقت بطريقة سليمة؛ بحيث يستطيع أن يؤدى فيه ما عليه من واجبات، وأن يقدم لمجاراته فى حدود الوقت المتاح، وأن تعرف مهاراته فى مدى توظيف الوقت.

المهارات:

لابد من مراعاة المهارات المطلوبة لأداء العمل بطريقة سليمة والتى لا تخرج عن كونها:

* مهارات قيادية، يظهر فيها بعض الأطفال قدراتهم ومهاراتهم القيادية، والتى تعمل على تحميلهم المسؤولية وإدارة العمل والتفاعل مع الزملاء.

* مهارات إنسانية ويقصد بها مجموعة التصرفات السلوكية، التي لابد وأن يتعودها الطفل؛ حتى يستطيع أن يستفيد من الخبرات المقدمة إليه، وتلك المهارات التي تتعلق بكل ما تعلمه الطفل من مهارات تعليمية خلال المقررات الدراسية، والتي ينبغي أن يوظفها البرنامج التدريبي، فلا يمكن أن تكون هناك برامج تنموية للقدرات بعيداً عن الخبرات التعليمية.

* مهارات أداء العمل، وهي التي تعمل على تعويد الأطفال التهيؤ للعمل والإنتاج بطريقة سليمة، تسمح لهم بالأداء السليم وتوظيف الجهود بالطرق الصحية، التي تجعلهم يوظفون طاقاتهم التوظيف الأمثل، ويتم ذلك بتدريبهم على الأعمال التي سوف يمارسونها ويتفاعلون معها.

العصف الفكري:

وإذا كنا قد حددنا من خلال الاهتمام بالمعرفة، وما يواكبها من مهارات ضرورة الاهتمام بهذه الجوانب. . فإن مرحلة العصف الفكري - Brain Storming، وما يتطلبه من حماس واهتمام وتعاون. . وغير ذلك من أحاسيس تدفع الفرد إلى الاندماج في العمل والارتباط والسعي إلى أدائه بكفاءة - وتكاد تكون مرحلة (العصف الفكري) هي مرحلة رفع الروح المعنوية وحفز مشاعر الأفراد، ودفعهم إلى العمل والإنتاج باستمرار.

والطفل يحتاج إلى هذه المرحلة، إذا أردنا له أن يبلغ شأواً في أمر الإنتاج الابتكاري؛ لأن رفع الروح المعنوية للطفل والعمل على تشجيعه هي التي تحكم إلى حد بعيد مستوى أدائه، وهي بدورها التي تدفعه إلى أن يسعى إلى تحقيق مكانته بين الأطفال، وإذا صلح التوجيه، وكانت عملية العصف الفكري تتم على أسس، تراعى فيها الجوانب النفسية، وتضع في اعتبارها المهارات والاستعدادات فإن هذه العملية سوف تخرج من كوامن الطفل تلك الأفكار المبتكرة التي يحملها بين جوانبه. . . كما يحمل البحر في أحشائه الدر. . . ولا يعرفها إلا الصياد الماهر، الذي يبحث ويفكر ويكافح للحصول على الجواهر والصدفات اللؤلؤية!!

والملاحظ على كل الإجراءات السابقة أنها تقودنا إلى ما يسمى بالإرشاد النفسى الجمعى، ذلك الذى يعتمد على ما يقدمه من توجيهات وإرشادات محاولة منه للتغيير وتحويل السلوك، من وضع معين إلى وضع آخر، يواكبه أداء منظم وتخطيط سليم.

ويمكن أن نعرف الإرشاد الجمعى على هذا المستوى بأنه محاولة للتغيير؛ خاصة عندما يكون هناك سلوك مضطرب، أو بعض عوامل الخوف، التى قد تعترى بعض الأطفال المبتكرين عند مزاولتهم للمناشط أو الأعمال، التى تتطلب إظهار المهارات الابتكارية. ويمكن توظيف الإرشاد الجمعى لبعض الأطفال الذين تظهر عليهم أعراض الاضطرابات أو الخوف، من خلال بعض الطرق التى تحقق لهم التفاعل مع جماعة الزملاء.

ويعتبر أسلوب جماعة المواجهة Encounter Groups أو جماعات تدريب الحساسية من الأساليب، التى تهدف تطور الشخص من الناحية النفسية من خلال التفاعل مع الجماعة، ويعوده هذا الأسلوب استخدام الصراحة والطلاقة والأمانة عن طريق التعبير عن مشاعره نحو الآخرين فى داخل جماعة الأطفال أو خارجها.

والإرشاد الجمعى تتجلى أهميته كتكنيك من التكنيكات الإرشادية، التى قد تساعد على تنمية قدرات الأطفال الابتكارية على الوجه الآتى:

* يعطى الطفل الفرصة للتعلم من خلال الجماعة، ومن الخطأ أن نتصور أن العمل مع الجماعة يعطل القدرات أو يقلل من الإنتاج الابتكارى؛ لأن الطفل فى حضرة الجماعة يتعلم كيف يتبادل رأى، وكيف يوظف ما تعلمه إلى جانب ما يتعلم من أساليب قيادية، من شأنها أن تجعله يحقق الوصال بينه وبين الطفل الآخر.

* تضع الجماعة اعتماداً على لوائح ونظم البرنامج بعض المعايير، وذلك ما يجعل الأطفال يتعلمون كيف يضبطون تصرفاتهم ويتفاعلون مع غيرهم، فيتجهون إلى السلوكيات المرغوبة ويتعدون عن السلوكيات غير المرغوبة.

* يمكن هذا الأسلوب الإرشادي من تغيير المعايير الخاطئة، التي قد تنتشر بين الأطفال كالميل للتهجم والنقد غير المنطقي، أو التكاسل عن القيام ببعض الواجبات الملقاة على عاتقهم.

وهكذا يتمكن الطفل من خلال هذا الأسلوب الرشيد أن يكون صداقات جديدة أيضاً على الدعم المعنوي، الذي يمكنه من تقبل مواقف الإحباطات المختلفة، التي قد تواجهه أثناء ممارسة العمل، الذي يعبر من خلاله عن قدراته الابتكارية.

* يتعود الطفل من خلاله تفاعله من الجماعة أن يضع لنفسه محكات، يتعرف من خلالها مدى تقدمه بالنسبة للآخران، ويكون قادراً بالتالي على تصحيح بعض تصرفاته الخاطئة، التي قد تؤدي إلى إزعاج الأطفال الآخرين وإثارة الضيق لديهم، وأن يدعم بفضل التوجيه المقدم إليه بعض التصرفات، التي قد تجعله مقبولاً وجذاباً من الآخرين.

* من الممكن خلال هذا الأسلوب الإرشادي أن تستخدم الجماعات أسلوب لعب الأدوار، وهو يعتمد على الأداء التمثيلي المتسم بالمرونة، من خلال استخدام الأدوار كوسيلة تنفيسية من وسائل اكتشاف المشكلات الشخصية؛ إذ يستطيع الطفل أن يعبر ويبتكر ويؤدي باستبصار، اعتماداً على توجيهات معينة وإرشادات محددة.

* بقدر ما تدفع الجماعة الأطفال إلى العمل بقدر ما تظهر قدراته، ويساعد هذا الأسلوب الإرشادي على أن يخرج كل طفل قدراته، وأن يختار الوسيلة الملائمة اعتماداً على الموجه، والتي تساعد على اكتشاف قدراته وسط الجماعة.

* يستخدم أيضاً منهج جماعات المواجهة لتدريب بعض الأطفال، من خلال مواجهة الجماعة على تطوير إمكانياتهم الشخصية وتدريب حساسيتهم؛ خاصة عند التفاعل مع الأطفال، أو التعرض للضغوط الاجتماعية أو ما قد يظهر من جماعات الأطفال.

وعندما نقوم بعملية الإرشاد عن طريق جماعات المواجهة، أو عندما نقوم بأى إجراء إرشادى فلا بد من التنبه إلى مجموعة من البروتوكولات، تلك التى تتعلق ببعض الواجبات والحقوق.

ولابد من تعويد جماعة الأطفال الجوانب الآتية:

١- احترام مواعيد الجلسات الإرشادية، على أن يكون الحضور والانصراف فى الأوقات المحددة.

٢- تنفيذ كل الإرشادات مع مراعاة الفروق الفردية والمتابعة المستمرة.

٣- التمييز بين المشكلات، والحرص على أن يعطى الفرصة كاملة للتعبير عنها، مع الالتزام التام بأن تظهر هذه المشكلات على أرضية من التفاهم والتفاعل، والحرص على الطفل ونموه بطريقة سليمة.

أساليب ينبغى مراعاتها فى العمل مع الأطفال أثناء البرنامج:

- * العمل على تخفيض مستوى القلق والتوتر، الذى قد يعترى بعض الأطفال.
- * استخدام بعض المدعمات المادية مثل (الطعام أو المرطبات)؛ بحيث يشعر الطفل بالمناخ الملائم، الذى يساعده على إظهار قدراته والتعبير عن مهاراته واستعداداته.
- * من الممكن أن نقسم الأطفال لجماعات صغيرة؛ بحيث يتم بينهم التجانس، الذى من شأنه أن يجعل أصحاب هذه الجماعات الصغيرة يتبادلون أطراف الحديث، ويتبادلون الرأي والتشاور حول ما يجعل قدراتهم فى أعلى وأبهى صورة.
- * أن يتم العمل والتعامل مع الأفراد (الأطفال) على أسس صحيحة، وأن يكون التنافس بينهم على أساس صحى يؤدي إلى ريادة جاذبية وتفاعل جماعة الأطفال ومدحهم؛ خاصة عندما تصدر منهم استجابات تستحق ذلك، ومن الممكن أن يتم ذلك من خلال استخدام أجهزة التسجيل بالفيديو أو أجهزة التسجيل السمعية.

* ويعتبر أسلوب العصف الفكري Brain Storming، الذي استخدمه Osborn من الأساليب التي تساهم في تحقيق تماسك الجماعة، وتزيد من جاذبيتها، وتساعد على إظهار مهاراتهم وتعبر عن قدراتهم.

ولكى تتم ترجمة هذه المطالب إلى سلوكيات إجرائية، فلا بد من التركيز على تحقيق التعاون والتفاعل بين أفراد الأبطال .. وعلى الوجه والمرشد أن يساعد الأبطال على تحقيق هذا التفاعل.

ولهذا.. فمن الضروري أن يعمل الجماعة على توزيع نسبة التفاعل بين الأبطال؛ بحيث عندما يتاح لكل طفل أن يقوم بدوره متفاعلاً، فإن هذا الدور يمكنه من أداء المهام الملقاة على عاتقه بسهولة.

وبطبيعة الحال.. فإن هذا الأمر ليس دائماً سهل التحقيق؛ فالأبطال يتفاوتون فيما بينهم فبعضهم نجده يتحدث أكثر وينشط أكثر، وهناك بعضهم الآخر الذي قد نجده يتحدث أقل، وينطق بدرجة لا تمكنه من أداء واجباته، أو الإعلان عن مهاراته.. فلا يملك إلا أن يلتزم الصمت والانزواء، ولعل ذلك ما يدفعنا إلى تأكيد ضرورة الاهتمام بالفروق الفردية بين أفراد الجماعة (الأبطال)، في هذه النواحي المعبرة عن ضعف الاستعدادات المعتمدة على المهارات الاجتماعية، إلى جانب معاناتهم من القدرة على الحديث والتواصل؛ مما يتعكس أثره على كل ما يتعلق بتأكيد ذواتهم وثقتهم بأنفسهم وقد يتم ذلك من خلال تمارين التفاعل Interactional Games.. تلك التمارين، التي تعمل على تشجيع الأبطال أصحاب المشكلات أو الانسحاب على التفاعل والاندماج.

الرعاية الاجتماعية من المقومات التربوية لتلاميذ المدارس^(*)؛

الرعاية الاجتماعية في المدرسة

الرعاية الاجتماعية المدرسية هي مجموعة الجهود والخدمات والبرامج، التي يهيئها أخصائيو اجتماعيون للأبطال والتلاميذ في المدارس، على اختلاف

(*) المجلس القومي للخدمات والتنمية الاجتماعية وشعبة الرعاية الاجتماعية، أرجع إلى المجلد الخاص بالدورة السابعة عشر للمجلس، إعداد د.أ. سيد صبحي، عضو المجلس القومي للخدمات والتنمية الاجتماعية، للمجالس القومية المتخصصة، ١٩٩٧.

مستوياتها، بهدف تحقيق ما تصبو إليه التربية الحديثة، وهو تنمية شخصيات التلاميذ لأقصى حد مستطاع، عن طريق مساعدتهم على الاستفادة من الفرص والخبرات التعليمية إلى أقصى مدى، تسمح به قدراتهم واستعداداتهم المختلفة.

ونظراً لأن وزارة التعليم تتبع سياسة ومنهجاً محدداً في الرعاية الاجتماعية.. فإن هذا الدور في حدود هذه السياسة، وفي حدود ما ينبغى أن يكون هو ما يأتي:

جوانب التربية في عالمنا المعاصر، ويقصد بها،

- * التربية والتعليم حق لجميع المواطنين.
- * تكوين الشخصية المتكاملة هو المحور الأساسي في التربية؛ أي لا يقتصر على تلقين المواد الدراسية.
- * أن ينظر إلى التلاميذ نظرة متكاملة من خلال مجموعة من العوامل الجسمية، والوجدانية، والخلقية والعقلية، والاجتماعية، إلى جانب ما يتطلبه أمر تكوينهم من تفاعل في البحث والتحصيل مع المناخ المدرسي، وما يحيط به من أجواء اجتماعية خارجية.
- ومن هذه المبادئ: نجد أن التربية الحديثة تسعى إلى تحقيق الفائدة لأكثر عدد ممكن من المواطنين، من خلال الفرص التربوية المهيأة لهم، كما أنها تهتم بتنمية شخصية التلاميذ في جوانبها بطريقة متكاملة.
- واعتماداً على هذا الهدف الإنمائي للتربية الحديثة.. فإن نمو الشخصية «أو تكاملها» يعنى به أن ينهض الفرد بسموليياته نحو نفسه ومجتمعه، على وجه يرضيه ويرضى مجتمعه في آن.
- ولابد أن يتم النمو الشخصي عن طريق الاهتمام بناحيتين رئيسيتين: الفرد، ثم علاقاته المختلفة ببيئته ومجتمعه.
- والاهتمام بالفرد يكون عن طريق إشباع حاجاته المختلفة سواء أكانت جسمية أم عقلية أم خلقية أم وجدانية أم اجتماعية، كما يكون الاهتمام بشبكة العلاقات

التي يمكن أن يكونها ذلك التفاعل عن طريق تشجيع وتكوين علاقاته السليمة في بيئته. وبهذا يتم تحقيق حاجات التلاميذ الأساسية منذ مرحلة الطفولة المبكرة. وما يواكبها من مراحل إنمائية أخرى.

وإذا تحددت مهمة التربية على هذه الصورة، أمكن إدراك المجالات التي من الممكن أن تعمل فيها خدمات الرعاية الاجتماعية؛ لتعين التربية الحديثة في الوصول إلى أهدافها.

وهذه المعاونة تتبلور في صورة عمليات مختلفة، تتم خارج نطاق حجرة الدراسة، وتهتم هذه العمليات بتنمية النواحي المختلفة لشخصيات التلاميذ، كالقوى الجسمية والصحية، والقدرات العقلية، والجوانب الوجدانية، والقيم الخلقية والجمالية.

ومن ثم.. فالرعاية الاجتماعية تبدأ في أداء دورها، كما حددت وأشارت هيئة الصحة النفسية العالمية في ميثاق العمل الاجتماعي والنفسى ١٩٩٣، بند ١٥ الباب الأول، بأن مهمتها: تحقيق هذا التكيف المنشود، والعمل على توفير الجو المدرسى الملائم لاستقبال الصغار، حتى تصبح المدرسة مجتمعاً يربط الطفل باهتمامات لا تقل في شدتها وتأثيرها عن اهتماماته الأسرية، مما يؤكد أن مهمة المدرسة تعد امتداداً لوظيفة الأسرة في عملية التنشئة الاجتماعية، وما تتطلبه من توفير لجوانب الرعاية اللازمة لنموهم، والعمل على إشباع حاجاتهم، والكشف عن قدراتهم ومهاراتهم ومتابعتها، والقيام بتقصي مشكلاتهم وإرشادهم إلى الطرق والوسائل السليمة لحلها.

أهمية الرعاية الاجتماعية في المدرسة،

اعتماداً على تطوير وظيفة المدرسة في الوقت الراهن، ونماشياً مع تطور المجتمع وحركته السريعة وما يواكبها من مشكلات.. أصبحت المدرسة مؤسسة تربوية لها أهدافها الاجتماعية، بعد أن كانت تركز كل اهتمامها على تلقين التلاميذ المقررات المدرسية.

ولعل ذلك ما يجعل الرعاية الاجتماعية في المحيط المدرسى تمثل ضرورة؛

لأنها مكمله لرسالة المدرسة فى إعداد التلاميذ؛ لكى يكون فى مقدورهم التعامل مع حياتهم الاجتماعية، حيث تهدف الرعاية الاجتماعية - من خلال الخدمات والبرامج التى يقدمها الأخصائيون الاجتماعيون - تحقيق أهداف التربية الحديثة، أى تنمية شخصيات الطلاب إلى أقصى حد مستطاع، بمساعدتهم على الاستفادة من الفرص والخبرات المدرسية، بما تسمح به قدراتهم واستعداداتهم المختلفة.

وقد تمحدد مفهوم الخدمة الاجتماعية فى المجال المدرسى بالولايات المتحدة على أساس التعريف، الذى تبناه مكتب الخدمة الاجتماعية فى المجال المدرسى بالجمعية الأمريكية للأخصائيين الاجتماعيين، والذى مؤداه: الخدمة الاجتماعية فى المجال المدرسى هى جزء من تعاون مهنى مشترك، بغرض فهم البرامج المدرسية، وتقديم المساعدة للتلاميذ الذين يواجهون صعوبات فى الاستفادة من موارد وامكانيات المدرسة بكفاءة، ويصبح الغرض من هذه الخدمة الاجتماعية هو تقديم المساعدة للتلميذ، الذى يواجه صعوبات باستمرار؛ لوقايته من خطورة تلك الصعوبات حتى لا يستحيل علاجها بعد تفاقمها.

واستناداً إلى ما سبق يمكن أن نشير إلى أهم التعريفات، التى تمحدد أسلوب ممارسة الخدمة الاجتماعية المدرسية، على النحو الآتى:

* الخدمة الاجتماعية المدرسية (وما تمثله من رعاية اجتماعية) مهنة إنسانية تهدف رفع الكفاية التعليمية، خلال مجموعة من الممارسات، يلعب فيها التلميذ دوراً كحالة فردية، أو كعضو فى مجتمع مدرسى، أو كشخص لبيئة محلية.

* الخدمة الاجتماعية المدرسية أداة لتغيير التلميذ أو الجماعة أو المجتمع المحلى، الذى تشع فيه المدرسة الطمأنينة خلال أداء أهدافها، ويتم هذا التغيير تدريجياً منطلقاً من الإطار القيمى الخلقى، الذى يتمثل فى المعايير التى يضعها المجتمع (الأم) أو ما يطلق عليه «المجتمع الأصلى».

* الخدمة الاجتماعية المدرسية «عمل علمى»؛ إذ يواجه الأخصائى الاجتماعى

المشكلات - فردية وجماعية ومجتمعية - بمنهج علمي، يقتضى المشكلات ويحددها ويخاطب الواقع تطبيقاً وتجريباً، للوصول إلى النتائج والحلول الملائمة.

* الخدمة الاجتماعية أداة أو وسيلة لتحقيق «رفاهية المجتمع المدرسى» عن طريق توظيف الطاقات البشرية المتاحة، وحفزها على العمل البناء، وربط تلميذ المدرسة بالبيئة المحلية: متفاعلاً متعاوناً مثمراً منتجاً بما يحقق رفاهية المجتمع.

وتشير التعريفات السابقة التى تحدد أسلوب ممارسة الخدمة الاجتماعية إلى أن الخدمة الاجتماعية تتطلع إلى إشباع مجموعة الاحتياجات الاجتماعية للتلاميذ على الوجه الآتى:

١- احتياجات نفسية:

تتمثل فى ضرورة شعور التلميذ بالامن والتقدير من جانب الآخرين وحرية التعبير عما يحش به نفسه.

٢- احتياجات اجتماعية:

تظهر فى رغبة التلميذ فى الانتماء والمشاركة والتوافق مع الجماعات التى يعيش فيها.

٣- احتياجات تعليمية:

يقصد بها الرغبة فى تحصيل المعرفة واكتساب المهارات والخبرات المختلفة.

٤- احتياجات صحية:

بحيث تتوافر للتلميذ الصحة البدنية وسلامة الجسم؛ لتمكينه من استخدام طاقاته إلى اقصى حد ممكن.

٥- احتياجات اقتصادية:

تساعد على ارتداء الملابس النظيفة المناسب والانتقال دون جهد وتوفير الإمكانات المادية المدرسية للتحصيل المدرسى.

٦- احتياجات ترويعية:

يستطيع التلميذ من خلالها أن يمارس أنشطة وهوايات تقابل طاقاته، وتكسبه مهارات ضرورية لحياته الاجتماعية والاقتصادية مستقبلاً.

وتتخذ هذه الاحتياجات أشكالاً وصوراً اجتماعية متفاوتة من مرحلة تعليمية إلى أخرى نتيجة لتفاعل الأوضاع المدرسية الجديدة مع أوضاع التلميذ نفسه، والتي يأتى بها إلى المدرسة، فالتلميذ فى مرحلة التعليم الأساسى (ابتدائى وإعدادى) كمجتمع مدرسى صغير، قد يجد نفسه مطالباً بأن يتكيف مع جماعات مدرسية جديدة، تخالف جماعات الجيرة التى عاش فيها سنى حياته الأولى «ما قبل المدرسة»، كما يواجه التلميذ مسئوليات جديدة ترتبط بالتحصيل الدراسى؛ فهى بالنسبة له تمثل مسئولية جديدة.

أما التلميذ الذى يتابع دراسته فى (المرحلة الثانوية) كمجتمع مدرسى أكبر.. فإنه يرغب فى الانتماء إلى جماعات، تمنحه الأمن والتقدير وتؤكد حرته الشخصية، بالإضافة إلى مشاكل المراهقة الأخرى: العقلية والنفسية والاجتماعية الناجمة عن مواجهة نموه فى هذه الفترة من العمر.

مجالات الرعاية الاجتماعية للطلاب:

ويلاحظ أن للأخصائى الاجتماعى التعليمى دوره فى تنفيذ الخدمات الاجتماعية فى المدرسة، فهو بجوار كونه طاقة فنية تعاون المدرسة على أداء وظيفتها الاجتماعية، يقع على عاتقه تنفيذ خدمات اجتماعية تعليمية مباشرة فى المجالات التالية:

أولاً: فى المجال الإنشائى:

تمكين الطلاب من التنشئة الاجتماعية الصالحة عن طريق:

أ- توفير الجماعات المنظمة وإتاحة الفرص الكافية لاشتراك أكبر عدد ممكن من طلاب المدرسة فيها؛ بما يكشف عن مواهبهم وميولهم وقدراتهم.

ب- تهيئة الخدمات والمشروعات التى تقابل الاحتياجات الأساسية للطلاب كتوفير واستثمار أوقات الفراغ فى الأندية ومراكز الخدمة الاجتماعية والمعسكرات

وغيرها من البرامج التي تعاون الطالب على تحقيق نموه الانفعالي والاجتماعي والفكري والبدني.

ج - استخدام الإمكانيات التي تساعد على توجيه الطلاب تعليمياً ومهنياً، عن طريق المناهج والنشاط بأنواعه، وبحيث تكون المناهج والخدمات الاجتماعية وحدة متكاملة.

د - توفير ألوان متنوعة من الهوايات وتشجيع الطلاب على ممارستها داخل المدرسة وخارجها، حتى يستفيدوا منها في استثمار وقت فراغهم وفي حياتهم العلمية المستقبلية.

ثانياً، في المجال الوقائي،

وقاية الطلاب من التعرض لمعوقات أو صعوبات عن طريق:

أ - تعاون كل من الأسرة والمدرسة في رعاية الظروف الصحية للطلاب، بتوفير وسائل الوقاية الصحية والنفسية والاجتماعية وتمكينه من الاستفادة منها.

ب - رعاية الظروف الانفعالية للطلاب بتبصيرهم بمشكلاتهم واتجاه كل من المدرسة والأسرة إلى التعامل معهم، وتمكين الطلاب من الاشتراك في مجال الإدارة الذاتية دعماً لثقتهم في أنفسهم، وتمكيناً لهم من استعادة ثوابتهم واستقرارهم الانفعالي.

ج - رعاية الظروف الاجتماعية للطلاب داخل المدرسة وخارجها، تمكيناً لهم من الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من المناهج الدراسية، وتجنبياً لهم من الانحراف أو مواجهة صعوبات لا يستطيعون التغلب عليها وحدهم.

ثالثاً، في المجال العلاجي،

معاونة الطالب على معالجة ما يقابلهم من مشكلات عن طريق:

أ - مساعدة الطلاب على مواجهة المشكلات الانفعالية، التي يملكون بها كالقلق وفقدان الثقة بالنفس والشعور بالنقص والعدوان والانطواء.

ب - مساعدة الطلاب على مواجهة التخلف الدراسي، الذي يرجع إلى أسباب

ذاتية، أو بسبب ضعف مستوى ذكاء بعضهم، أو لعدم توافق البرامج الدراسية مع قدراتهم وميولهم، أو لإهمالهم واجباتهم الدراسية، وما يترتب على ذلك من تصرفات مضطربة كالهروب وعدم الاستمرار في الدراسة.

ج - مساعدة الطلاب على مواجهة مشكلاتهم الاجتماعية، والتي قد تتمثل في المستوى الاقتصادي للأسرة أو لوجود اضطرابات عائلية أو غير ذلك.

* والتلميذ خلال مواجهته لاحتياجاته الأساسية أو احتياجاته المتجددة، يستطيع أن يحققها بقدراته الذاتية، أو عن طريق المساعدة الأسرية أو المدرسية أو المجتمعية... وفي الوقت نفسه قد يعجز عن مقابلة هذه الاحتياجات.

* ومن ثم لابد للخدمة الاجتماعية المدرسية أن تقدم للتلميذ داخل مجتمعه المدرسي وخارجه عديداً من جوانب الرعاية الاجتماعية حتى يستطيع أن يواجه هذه المشكلات التي قد تؤثر عليه كفرد وعلى حياته المدرسية، وحتى لا تعوقه عن التحصيل أو السير في ركب المجتمع المدرسي.

ولما كانت المؤسسات التعليمية المتمثلة في المدارس تنتشر في ربوع جمهورية مصر العربية - من المدينة الكبرى إلى أصغر لجمع أو كفر - كان لابد للخدمة الاجتماعية المدرسية من تمكين دور التعليم على أداء رسالتها في التربية والتعليم، والإسهام بصورة أكبر في وضع تصور الرعاية الاجتماعية في المجال المدرسي.

جوانب الرعاية الاجتماعية في المدرسة:

وفيما يلي أهم صور الرعاية الاجتماعية في المجتمع المدرسي والدور الجوهري للأخصائي الاجتماعي في تنفيذ الخدمات الاجتماعية في المدرسة، من خلال:

أ - خدمة فردية.

ب - خدمة جماعية.

ج - خدمة مجتمعية.

١- الخدمات الفردية، وتشمل ما يأتي:

أ. هي المجالات الفردية:

يقوم الأخصائي الاجتماعي ببحث الحالات السلوكية والنفسية والاجتماعية

والصحية والعلمية للتلاميذ، خاصة من هم فى حاجة إليها، وتطبيق القواعد المهنية والفنية للعمل فى خدمة الفرد (من دراسة وتشخيص ورسم خطة للعلاج والمتابعة)، عند التصدى لبحث هذه الحالات وإعادة تكيف الطالب، كدراسة المشكلات الخاصة بالتحصيل (طلبة متأخرون دراسياً أو متكررو الرسوب، أو لا يميلون للدراسة ويتم بحث الحالات من قنوات مختلفة).

ب- فى مجال المعونات:

يقوم الأخصائى الاجتماعى بحصر الحالات، التى تحتاج إلى معونات اقتصادية معينة، وترتيبها حسب أولوياتها، وسواء كانت نقدية أو عينية.

ج- فى البطاقة المدرسية:

العمل على تطبيق نظام البطاقة المدرسية تطبيقاً صحيحاً؛ حتى يمكن الاستعانة بها فى بحث الحالات للتلاميذ ومتابعة تاريخهم الاجتماعى.

د- فى البطاقة الاجتماعية:

العمل على تطبيق البطاقة الاجتماعية على وجه الدقة من خلال حصر الطلاب المتفوقين علمياً والموهوبين وقيادات الاتحاد الطلابية، على أن يستمر العمل بهذه البطاقة مدة الدراسة التى يقضيها الطالب بالمدرسة... بهدف حصر الرعاية التى قدمت له، وأنواع النشاط التى يمارسها، والوقوف على مستوى تحصيله الدراسى ومتابعة نموه؛ على أن يتم متابعة هذه البطاقة بصفة مستمرة، وتوضع فى ملف الطالب عند التحويل أو تخرجه فى المدرسة.

وتهدف البطاقة أيضاً تعرف المستويات الفكرية والاجتماعية والبدنية للطلاب، الذين يتعامل معهم الأخصائى الاجتماعى؛ حتى يمكن خدمتهم وفق احتياجاتهم وظروفهم الفردية والجماعية.

هـ- فى مجال رعاية الطلبة المتفوقين:

يقوم الأخصائى الاجتماعى بعملية حصر الطلاب المتفوقين فى النواحي

العلمية والاجتماعية والثقافية والفنية والرياضية، وفقاً لمقاييس معينة يدرّب عليها الاختصاصي فنياً ومهنيًا.

وهي مجال رعاية القيادات الطلابية،

للأخصائي الاجتماعي دوره في رعاية القيادات الطلابية بالمدرسة، من خلال:

- * تتبع المستوى التحصيلي للقيادات بالمدرسة.
- * إعداد معسكرات لصقل وتدريب القادة.
- * عقد لقاءات مع القادة السياسيين بالمحافظة (مجلس الشعب، مجلس الشورى، المجلس المحلي).
- * عقد لقاءات دينية وثقافية بالاتصال بالجهات المختصة (تحت اسم الموسم الثقافي)، وطرح موضوعات مختلفة عن المخدرات أو عن الإضرار بالبيئة وتأثيرها على الشباب، بحيث يتناولها بالتحليل والمناقشة أحد علماء الطب النفسي والاجتماعي.
- * رعاية الطلاب الذين يتوافر فيهم نضج الشخصية والقدرة على حسن التصرف وتحمل المسؤوليات؛ لكي يعدوا للقيادة إعداداً تربوياً صحيحاً.

وهي مجال رعاية الطلبة المعاقين،

على الاختصاصي الاجتماعي ما يأتي:

- * الا يغفل تقديم الرعاية الاجتماعية للطلاب المعاق من الناحية التأهيلية، ومن منطلق أن تقدم الدول يقاس بمدى تقدمها في رعايتها للمعاقين، ومن ثم لا بد من حصر عددهم في المدرسة، مع تحديد نوع الإعاقة سواء كانت (مرض القلب، شلل الاطفال، عجز أطراف، نقص طرف، ضعف السمع الشديد، ضعف البصر الشديد) وتقديم الخدمات والرعاية اللازمة للطلاب المستحقين لها، والاتصال بمراكز التأهيل الشامل للمعاقين؛ لتنسيق الخدمات وتوفير الاجهزة التعويضية لهم، ومساعدتهم

فى الحصول على كرسى متحرك أو عكازين أو نظارة طبية أو سماعة أو دراجة .

* أن يوجه الطلبة المعاقين من ناحية الإعاقة إلى البرامج والأنشطة البديلة، التى تتفق ونوع الإعاقة، وتعوضهم عن ذلك العجز.

* إشراك الطلبة المعاقين فى مباريات رياضية بين المدارس على مستوى المرحلة بالمحافظة ثمهيدا لاشتراكهم فى بطولة الجمهورية للمعاقين؛ ومن ثم لتمثيل مصر فى بطولة العالم .

* الاتصال بمكتب الخدمة الاجتماعية المدرسية ومراكز التأهيل الشامل للمعاقين لتنسيق الخدمات والرعاية .

* إقامة معسكرات شاطئية ترفيهية للطلاب المعاقين .

* متابعة حالات المتخلفين دراسيا .

* تنظيم رحلات خارجية للمعاقين .

* إجراء بحوث ودراستات واستطلاع رأى حول المشكلات الطلابية للمعاقين .

ج- الغياب العام:

على الأخصائى الاجتماعى ما يأتى :

* أن يرجع لسجل الغياب أسبوعيا لاكتشاف الحالات المتكررة، حيث إن عدم انتظام الطالب فى الدراسة ونفوره من الجو التعليمى وكثرة غيابه يهين له وقت فراغ، قد يستغله فى نشاط غير مرغوب فيه (انحرافات اجتماعية...) .

* أن يعمل على دراسة هذه الحالات والوقوف على أسباب ذلك، مثل: كراهية الطالب للمدرسة، أو عدم انسجامه مع زملائه، أو فشله فى الدراسة، أو عدم قدرته على الوفاء بمطالب المدرسة . ومن ثم يقترح

العلاج المطلوب للحالات التى تحتاجه، ويتصل بالجهات التى تعينه فى ذلك وخاصة أسرة الطالب .

ط. سجل الزائرة الصحية:

يجب أن يرجع الأخصائى الاجتماعى بالمدرسة لسجل الزائرة الصحية أسبوعياً - والتى يلزم وجودها فى كل مدرسة أو مجموعة مدارس - لاكتشاف الحالات المرضية، أو التى تدعى المرض لمعرفة أسباب ذلك، وتحديد مدى التمارض، ووضع العلاج الصحيح لهذه الحالات .

ى. فى أوقات الامتحانات الدورية:

يمتد دور الأخصائى الاجتماعى مع الطالب فى أوقات الامتحانات الدورية على مدار العام الدراسى، ومن ثم يشمل دوره توعية الطلاب ورعايتهم بصورة أعم وأشمل فى مثل هذه الأوقات من العام الدراسى، وعليه أن يجعل الطلاب مستعدين للامتحانات بطريقة صحيحة، ويقبلون عليها فى راحة واطمئنان عن طريق إزالة القلق عن نفوسهم، وتبصيرهم بطرق الاستذكار الصحيحة وكيفية تنظيمهم لأوقات الامتحان .

كما أن كثرة الاتصال بالطلاب تساعد الأخصائى الاجتماعى على اكتشاف الحالات التى أصيبت فعلاً نتيجة قرب أيام الامتحانات، وعليه أن يقوم بالتركيز على رعاية هذه الحالات حتى يتحقق لأصحابها الشفاء .

ك. فى أوقات الحصص الاحتياطية:

يقوم الأخصائى الاجتماعى بالالتقاء بالطلاب فى الحصص الخالية - والتى لا يشغلها مدرس بمادة علمية - بواقع حصة أسبوعياً، ويعمل على إشاعة الاطمئنان فى نفوسهم، ومعاونة من تواجهه صعوبات لمساعدتهم على التغلب عليها، سواء كانت صعوبات فى المواد الدراسية أو صعوبات أسرية أو مدرسية .

٢- الخدمات الاجتماعية:

للأخصائى الاجتماعى دور فعال فى الخدمات الاجتماعية للطالب، من خلال:

- * إشراك الطلاب فى الفرق الرياضية المختلفة، وفقاً لميول كل طالب مما يعطيه نمواً جسمانياً سليماً.
- * أن تتجه الأنشطة المدرسية المختلفة نحو تهيئة المجالات، التى يمارس فيها الطالب الأعمال الفردية والجماعية ممارسة فعلية بأقسام متكافئة، فضلاً عن تكليفه ببعض المسؤوليات فى النظافة والنظام المدرسة لتدعيم الحكم الذاتى.
- * إعطاء الطالب قسطاً من الحرية كاختيار هواية، واختيار الفريق الذى ينسجم معه.
- * أن يعطى الطلاب فى الجو المدرسى مزيداً من الحرية المنظمة، مع مزيد من المسؤوليات حتى يدركوا حقوقهم وواجباتهم قبل أنفسهم وقبل أسرهم ومجتمعهم.
- * أن ينمى فى الطالب الشعور الوجدانى، من خلال تدعيمه لشخصيته وتوجيهها إلى المسالك الطبيعية السليمة فى رفق وأناة؛ حتى يثق كل طالب بنفسه ويشب على حب الحق ويحترم رأى الآخرين. والعمل على الاستقرار والطمأنينة فى الحياة المدرسية، عن طريق تكوين علاقات طيبة، وخلق صداقات بين جميع الأفراد معلمين وتلاميذ.
- * تدعيم ثقة الطالب بنفسه وتحريره من الكبت والخاوف وجعله فى مستوى مقبول من الاتزان العاطفى والنمو الروحى، من خلال مساعدته على مزاولة الشعائر الدينية والتدريب على الصفات الخلقية الحسنة، مع إشراك التلاميذ فى الجماعات الخيرية، وإتاحة زيارتهم للمؤسسات التى ترعى المرضى وتساعد المحتاج وتأوى الأحداث، وأن يخرج بهم أيضاً إلى الحدائق العامة والشواطئ حتى يتمتعوا بالطبيعة فى أروع صورها.

* أن ينمى فى الطالب المواطنة السليمة، من خلال بث الروح الوطنية وتنشئته على الاعتزاز بوطنه، وبذلك يقوى إيمانه بحق الوطن عليه وتزداد محبته وولائه له.

٣- الخدمات المجتمعية:

على الأخصائى الاجتماعى أن يعمل على ما يأتى:

- * وضع خطة لتنظيم تبادل الخدمات الاجتماعية بين المدرسة، وما فيها من هيئات ومؤسسات معنية برعاية الطلاب.
- * تشكيل المجالس المدرسية اللازمة، والمعاونة فى تنظيم العمل داخل المجتمع المدرسى، وتحقيق رسالة المدرسة التربوية.
- * وضع خطة عمل هذه المجالس ومواعيد اجتماعاتها الدورية وأهداف كل مجلس والأمور المخصصة بدراستها، حرصاً على عامل الوقت أثناء الاجتماع، ومنعاً لتكرار مناقشة موضوعات واحدة فى مجالس مختلفة.
- * الإشراف على مجالس الفصول من بداية تشكيلها بالانتخاب حتى نهاية أعمالها وأنشطتها فى نهاية العالم الدراسى، فيعمل الأخصائى الاجتماعى على:
 - التبصير بأهداف هذه المجالس .
 - توضيح دور كل طالب ممثل، لكل لون من ألوان النشاط (اجتماعى - ثقافى ودينى - رياضى - فنى) بهذه المجالس، وكذلك دور رئيس مجلس الفصل والأمين المساعد والطالب أمين السر (الذى يقوم بعملية التسجيل).
 - مساعدة هذه المجالس على تنفيذ الخطط ومتابعتها.
 - مسئولية مساعدة مجلس الفصل على وضع الخطط ومتابعتها.
 - مسئولية مساعدة مجلس الفصل على وضع الخطط لخدمة الفصل المدرسى.

- تدريب الطلاب عن طريق هذه المجالس على تحمل المسؤولية والتعاون مع الغير وانكار الذات ورعاية مصالح الفصل، والتحول من الشخصية الانعزالية إلى الشخصية الاجتماعية.

* العمل مع البيئة والمجتمع، عن طريق:

- تنظيم برامج لدعم الصلة بين المدرسة والمنزل، وتكوين علاقات اجتماعية سليمة مع البيئة الخارجية.
- دعوة ولي الأمر للمدرسة باستمرار؛ للوقوف على مستوى الطالب الدراسى وسلوكه ليزداد ثقة بالمدرسة.
- توجيه الآباء والأمهات إلى الأساليب الصحية فى تربية أبنائهم وطرق معاملتهم فى هذه السن.
- دعم الصلة بين المدرسة والبيئة الخارجية، عن طريق تنظيم الزيارات للمؤسسات الخارجية كالمستشفيات ودور الحضانه ومراكز التأهيل والمنشآت العامة ومديرية الشباب والرياضة والمشروعات الجديدة.
- الإسهام فى الاحتفالات العامة والدينية والمهرجانات المختلفة والمعارض وغيرها.
- إحداث التغير الاجتماعى اللازم للنهوض برسالة المدرسة ورسالة مجالس الآباء والمعلمين؛ حتى تتحول إلى ركائز للتقدم والنهوض بالمجتمع.

البرامج العامة والمشروعات:

يقوم الأخصائى الاجتماعى التعليمى بالتخطيط والإشراف على تنظيم البرامج العامة والمسابقات والمسكرات والمشروعات، التى تنشط الخدمات الاجتماعية بالمدرسة.

دور الأخصائى الاجتماعى فى الإدارة الاجتماعية:

- ينحصر دور الأخصائى الاجتماعى فى الإدارة الاجتماعية فى النقاط التالية:
- * وضع الخطة والبرنامج الزمنى للتربية الاجتماعية، ويقوم باعتمادها من ناظر

المدرسة، على أن يرسل صورة منها لتوجيه التربية الاجتماعية لمتابعة تنفيذها.

- * وضع ميزانية التربية الاجتماعية وتوزيعها على البنود المختلفة.
- * تدريب الطلاب عن طريق الجماعات والبرامج والأنشطة على طريقة التسجيل، وكيفية الإعداد للاجتماعات وإدارتها وتنظيمها.
- * تدريب الطلاب على طريقة الإدارة في البرامج العامة والمشروعات والجماعات والمجالس والاحتفالات والمعسكرات.
- * يقوم باستخدام الأدوات المعينة لأعمال التربية الاجتماعية كالسجلات واستمارات البحث الاجتماعى، واستمارات الاستبيان، واستمارات المسح الاجتماعى باختلاف أنواعها.

البرامج المتطورة للرعاية الاجتماعية في المجتمع المدرسى:

عند وضع هذه البرامج يجب أن يراعى فيها:

- * مقابلة الاحتياجات الأساسية للطلاب.
- * استعداد الطلاب لتقبل هذه البرامج.
- * أن تهدف لتحقيق خطة التنمية الاجتماعية.
- * توفير الإمكانيات التي تساعد على تنفيذ تلك البرامج.
- * أن البرامج الموضوعة لها فوائد ملموسة نسبياً للطلاب؛ حتى يمكن كسب ثقتهم، مما يدفعهم إلى الإقبال على المشاركة فيها.
- ولكى تتم تلك البرامج المتطورة لعمل الأخصائى الاجتماعى التعليمى، عليه أن يقوم بالآتى:

- * الاهتمام بمشاكل رعاية الطلبة الأحداث هو جزء من مكافحة انحراف الطلبة، باعتبار أن مكافحة الانحراف مجال تلتقى فيه التربية الاجتماعية للطلبة مع واجب الدولة عامة فى الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة، وضد الانحراف السلوكى بوجه عام.

- * حصر الطلبة ذوى المستوى الضعيف علمياً من واقع درجات الكشف؛ تمهيداً لعمل فصول تقوية لهم فى الأجازة؛ حتى لا يلحقوا بفصول المسار الخاص.
- * أن يمتد عمل الخدمة الاجتماعية المدرسية مع الطلبة، الذين تحولوا بالفعل إلى فصول المسار الخاص، لتأهيلهم لاختيار التدريب المهنى، الذى يوائم ميولهم واتجاهاتهم ورغباتهم.
- * الحصول على مساعدة أماكن العبادة (المسجد والكنيسة) فى الحالات التى يحتاج فيها الأمر إلى معونة أخلاقية - وتشجيعهم بروح الصداقة - كحالات التزمت والتعصب أو الانحراف.
- * وجود الاختصاصى الاجتماعى بالقرب من لجان الامتحانات يعتبر ضرورة؛ حيث يشع فى نفوس الطلاب الثقة والطمأنينة ويزيل عنهم القلق، بدلاً من كونه ملاحظاً كالمدرس.
- * أن يكون هناك تقويم اجتماعى ومسلكى للطلاب فى ألوان النشاط المختلفة فى اجل المدرسة، ومدى إقباله عليها وانتفاعه بها، ومدى قدرته على مواصلة التعليم بالمرحلة التالية.
- * الإكثار من الرحلات والمعسكرات والزيارات للمؤسسات المختلفة فى المحيط التعليمى؛ لتعرف معالم البلاد وإدخال عنصر الترويح على الطلاب، على أن يمتد خلال العطلة الصيفية، ألا يكون قاصراً على العام الدراسى فقط.
- * حصر الطلاب البارزين فى الرياضة سواء الأسوياء والمعاقين، ووضع نظام للتنفيذ والإشراف والتدريب والإسعافات، بالتعاون بين الاتحادات الطلابية ومراكز رعاية الشباب، بما يكفل المحافظة على المستوى اللائق للطلبة الأبطال منهم، ويوضح الطريق السليم للتقدم بالمستويات الأخرى فى مراحل الإعداد على أسس علمية سليمة.
- * عقد ندوات للطلاب - كملتقى الفكر الإسلامى - يديرها كبار المتخصصين، ودعوة أحد الأئمة ورجال الدين للرد على تساؤلات الطلاب، فيما يسود من تيارات واتجاهات منحرفة. وكذلك ندوات ثقافية لتوعية الطالب بعرويته

وبلده مصر؛ حتى يكون داعياً لها غيوراً عليها معتزاً بها للدرجة التضحية في سبيل رفعتها.

- * عمل رحلات سياحية مخفضة للطلاب في الأجارات الصيفية.
- * تعرف أسباب مشكلات الطلاب من خلال تدريبهم على إعداد البحوث والدراسات؛ تمهيداً للقيام ببحوث شاملة، تساعد على وضع سياسة لعلاج هذه المشكلات.
- * فتح مشروعات لتشغيل طلاب المدارس، بالتنسيق مع جمعية رعاية الطلاب والشئون الاجتماعية ومستوى الطلاب بالمحافظة.
- * توجيه الأسرة للتعاون في علاج مشاكل الطالب وإبعادهم عن رفاق السوء، والإفادة من المؤسسات الترويحية للوقاية من الانحراف.
- * معاونة الوحدات المحلية الشعبية في نظافة الحى والمنطقة المحيطة بالمدرسة؛ تدعيماً لنظام الإدارة لنظافة وتزيين الميادين العامة والنافورات والتشجير.
- * للأخصائى الاجتماعى إسهاماته الفعالة فى البرامج الاجتماعية من زيارة للمرضى فى المستشفيات ومؤسسات الأحداث ومراكز التأهيل الشاملة للمعاقين؛ مما يساعد على توطيد العلاقات وتنمية روح المحبة.
- * كما أن له دوره فى مساعدة الهيئات فى بحوثها ومشروعاتها.

التوصيات

- وعلى ضوء ما سبق، هناك مجموعة التوصيات التربوية والنفسية، هي:
- العمل على إيجاد العلاقة المتكاملة بين الأخصائى الاجتماعى والأخصائى النفسى، على أن يعمم الأخصائى النفسى فى المدارس بمراحلها المختلفة؛ فالرعاية الاجتماعية تحتاج إلى الرعاية النفسية وتكامل معها.
- * الاهتمام بالطلاب المتفوقين وتشجيع الاشتراك فى الأنشطة المختلفة وممارسة الهوايات لتنمية المواهب، وتمكين هؤلاء الطلاب من التفوق والابتكار، والعمل على إثارة دافع الطموح لديهم، وكذلك الاهتمام بالتلاميذ المعاقين وتقديم الخدمات التأهيلية التى تمكنهم من التوافق السليم.
- * الاهتمام بالنادى المدرسى، سواء الذى يعمل طوال العام أو النادى الصيفى الذى يجعل من المدرسة مركزاً للإشعاع فى البيئة المحيطة، ويضفى على عمل الأخصائى الاجتماعى قيمة وظيفية، تبعده عن الجوانب الشكلية فى أداء مهمته.
- * الاهتمام بالمسابقات الدينية وتشجيع التلاميذ على الالتزام بالمنافسة الشريفة، مما ينعكس أثره على شخصيات التلاميذ وتنميتها فى المسار الصحيح والطريق القويم.
- * الاهتمام بالبطاقة المدرسية بحيث تواكب التطور الإثنائى للتلاميذ، وتستمر مع مراحلهم الدراسية لتعطى صورة صادقة عن أحوالهم: الصحية، والاجتماعية، والتحصيلية، والخلقية، وتحدد قدراتهم وهواياتهم فى المراحل المدرسية المختلفة.

* الاهتمام بعقد دورات تدريبية للأخصائيين الاجتماعيين بالاشتراك مع المؤسسات الاجتماعية والعلمية والثقافية والدينية الموجودة في المجتمع المحلي؛ بحيث يشارك فيها الخبراء والفنيون لإيجاد علاقات قوية بين المدرسة وهذه المؤسسات؛ للاستفادة منها في مجال الرعاية الاجتماعية للطلاب.

* الاهتمام بالتوعية الدينية والحرص على غرس قيم العمل والمواطنة الصالحة للفرد والمجتمع.

* ضرورة وعي الإدارة المدرسية بالدور المهم، الذي يؤديه الأخصائي الاجتماعي في المدرسة، وأن يترجم هذا الوعي في تدعيم خدمات الرعاية الاجتماعية، مع تسهيل كل الإجراءات، التي من شأنها أن تساعد الأخصائي الاجتماعي على أداء مهمته واختصاصه.

* الاهتمام بمشروعات الخدمة العامة والإدارة الذاتية ومعسكرات العمل، التي تمكن التلاميذ من التفاعل المثمر والعمل الجاد، وتغرس فيهم الانتماء السليم والسلوك القويم.

* عقد دورات تدريبية للأخصائيين الاجتماعيين؛ حتى يكون الأخصائي الاجتماعي على علم ودراية بالنواحي الاجتماعية والنفسية للتلاميذ.

* ضرورة إتاحة المساحة اللازمة في المدارس لممارسة الأنشطة الرياضية والهوايات، وقد يكون من الممكن للتغلب على هذه المشكلة أن تتعاقد المدارس، التي تفتقر إلى الملاعب مع مراكز الشباب المحيطة بها.

* ألا تكلف المدرسة الأخصائي الاجتماعي بأي عمل خارج تخصصه الأصلي. ولا بد أن توفر له الإمكانيات من حيث المكان والتجهيزات الملائمة، وأن يتاح له الوقت الكافي لممارسة الأنشطة الاجتماعية، خلال البرنامج الدراسي اليومي.

* أن يتم توزيع الأخصائيين الاجتماعيين على المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية بشكل يسمح بمواكبة كثرة أعداد التلاميذ، حيث يتعامل الأخصائي الآن مع ٥٠٠ تلميذ على الأقل (انظر الجدول المرفق)، وهذا لا يتيح لخدمات الرعاية الاجتماعية أن تؤدي مهمتها بسهولة ويسر، إلى جانب عدم وجود الأخصائي الاجتماعي في بعض إجراءات مهمته.

* نظراً لما يواجه الأخصائي الاجتماعي من أعباء في أداء عمله، فإن التقدير للمادى لا بد وأن يراعى هذه الأعباء؛ حتى يتمكن من العمل بالجهد الذي يشعره بهذا التقدير.

* ضرورة إلقاء الضوء على أهمية دور الأخصائي الاجتماعي، الذي ينبغي أن يتكامل مع دور كل من: الطبيب والمعلم ومجالس الآباء، ومع ما تقدمه الزائرة الصحية من خدمات؛ حتى يتم العمل بصورة متكاملة تسود فيه روح الجماعة.

* أن تركز الإدارة المدرسية على أهمية دور الرعاية الاجتماعية للتلاميذ؛ إذ إن أسلوب التعليم وطريقته وإعداد المعلم في حاجة إلى إعادة دراسة وتحديث وتطور شامل، والأخصائي الاجتماعي عضو في منظمة متكاملة لا يمكن إصلاح جزء منها دون بقيتها؛ الأمر الذي يقتضى أن نولى الاهتمام بهذا الدور الاجتماعي لأهميته البالغة في حياة الطفل واحتياجاته.

**بيان إحصائي بعدد الأخصائيين الاجتماعيين والموجهين
لجميع المراحل بمدارس الجمهورية (وفق آخر إحصائية ١٩٩٥)**

البيان	الحاجة الفعلية (المطلوبة)	المتاح الآن (الموجود)	العجز	تحت التعيين
الأخصائيون بالمرحلة الثانوية	٦٠٥٢	٣٨٧٧	٢٦٩٠	-
الأخصائيون الأوائل ثانوى	١٧٢٣	١٢٧٦	٥٨٨	٧٤
الموجهون بالمرحلة الثانوية	٣٩٥	٢٣٩	١٥٨	-
الموجهون بالمرحلة الإعدادية	٦٣٥	١٩١	٦٦٤	٥
الأخصائيون الأول إعدادى	٢٨٣٦	٢٢١٦	٨٢١	٣٢
الأخصائيون الاجتماعيون إعدادى	١٠٤٦١	٥٩٣٤	٥٠٣٢	١٤٣
أخصائيو المرحلة الابتدائية والمشرف الاجتماعى	١٥١١٦	٩٥٠٧	٧٠٢٠	٦٤٢
الأخصائيون الأوائل ابتدائى	٢٨٤٥	٩٦٧	٢٠٤٧	٧
موجهو المرحلة الابتدائية	٨٢٧	٢٥٤	٥٧٣	-
موجهو المرحلة الابتدائية	٧٠	١٨	٧٦	-
وكلاء الأقسام جميع المحافظات	٤٦	٣٥	٣١	-
رؤساء الأقسام (المحطات طلابية وخدمة مدرسية)	٨٥	٣٦	٤٩	-

* المصدر: وزارة التربية والتعليم - إدارة التربية الاجتماعية.

التغير الاجتماعي وانعكاسه على السلوك في المجتمع (*)

التغيرات وآثارها

إن التغيرات التي حدثت ولا تزال تحدث في شتى مجالات الحياة في مصر، وفي المنطقة التي نعيش فيها وفي العالم، تتم بسرعة وشمول لم يعرف لهما مثيل في تاريخ البشرية؛ فالذي كان يحدث في العالم من تغيرات في القرون الماضية، وكان يتم خلال مئات السنين، أصبح يحدث مثله وأعمق منه وأشمل في سنوات معدودات.

لقد تغيرت مظاهر المدنية والحضارة والاتصالات والتكنولوجيا والمعلومات ونتجت عنها معطيات ثقافية واجتماعية جديدة، علينا أن نتعامل ونتفاعل معها، وإلا تخلفنا وزادت الهوة التي تفصل بيننا وبين دول العالم المتقدم.

وبسبب هذه التغيرات تأثرت وتغيرت المفاهيم والقيم والعادات والتقاليد، وانعكس ذلك على بعض السلوكيات؛ مما أدى إلى ظهور التباين والاهتزاز في بعض القيم السائدة في المجتمع.

ومنذ الحرب العالمية الثانية، ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، مرت مصر بظروف وتطورات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، أثرت بدورها في سلوكيات الأفراد، ويرجع ذلك إلى التغيرات التي جرت في المفاهيم والقيم الموحية لتلك السلوكيات.

التغيرات الأساسية خلال نصف القرن الأخير

ولاشك أن المفاهيم والقيم المستقرة في وجدان الأفراد وعقولهم، قد تغيرت نتيجة لمؤثرات عديدة خلال الحقيقة الماضية؛ مما يقتضى عرض التغيرات الملموسة الواضحة، التي طرأت على حياة المجتمع المصري، في النصف الأخير من القرن

(*) عرض على المجلس بتاريخ ١/١/١٩٩٧، ارجع إلى المجلس القومي للمخدمة والتنمية الاجتماعية ١٩٩٧، إسهام الزملاء أعضاء الشعبة، إشراف أ.د. / ميد صبحي، عميد كلية التربية التوعية، القاهرة، ورئيس قسم الصحة النفسية، كلية التربية، جامعة عين شمس.

العشرين، وتتبع هذه التغيرات وآثارها الإيجابية والسلبية، ووسائل تقوية ودعم الآثار الإيجابية منها، والتصدي للسلبيات التي نشكو عنها في أيامنا الحاضرة.

ولعل أول ما يتبادر إلى ذهن المفكرين والكتاب والاجتماعيين عند رصد هذه التغيرات، هو المراحل التي مرت بها التغيرات السكانية في مصر منذ عهد محمد على، مروراً بعصر اسماعيل حتى ثورة ١٩١٩ وما بعدها، وما صاحب ذلك من آثار اجتماعية واقتصادية؛ فقد شهدت مصر خلال هذه الفترة تغيرات أساسية، كان لكل حقبة منها انعكاساتها على السلوك في المجتمع.

الحقبة الأولى:

حقبة الملكية والاحتلال البريطاني:

وفيهما كان التعليم محدوداً وبمصرفات، كما كان مقصوراً على القادرين، وكانت فئة كبار الملاك هي صاحبة السيادة، كما كانت السلطة الفعلية في يد الاحتلال البريطاني، وفي مثل هذا المناخ كان طبعاً أن يحدد السلوك في المجتمع عاملان أساسيان، أولهما: روح المقاومة الوطنية للاحتلال البريطاني، وثانيهما: روح السخط من انتفاء عدالة التوزيع واستئثار الأقلية الغنية بخيرات المجتمع.

الحقبة الثانية:

ثم جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢، فأحدثت تحولاً مهماً في تاريخ مصر، ظهرت آثاره في المسألة الاجتماعية، فقد صدر قانون الإصلاح الزراعي في ٩ سبتمبر ١٩٥٢، محاولاً تغيير خريطة المجتمع في الريف المصري، وأتاح قدراً من رفع المستوى الاقتصادي للمزارع.

وحققت الثورة مجانية التعليم العالي والجامعي، بعد أن كانت مقصورة على ما قبله من مراحل، وبذلك استطاع كثيرون من أبناء المزارعين الوصول إلى التعليم الجامعي والعالي، وانتشرت الأنشطة الثقافية العامة، وأنشئت لأول مرة وزارة

للثقافة، وافسح المجال أمام المرأة لتعمل في مختلف الميادين، كما فتحت أمامهم عضوية المجالس النيابية والمناصب الوزارية.

وفي المجال الاقتصادي، أقدمت الثورة على تخصيص الاقتصاد المصرى ثم تأميمه، وحل كثير من المصريين محل الأجانب في مجال المال والتجارة والشركات والمصانع، وهكذا فتحت لأول مرة مجالات عمل واسعة أمام المصريين، ودخلت الثورة مجال التصنيع، واتجهت إلى الصناعة الثقيلة، وفتحت في مجالها فرص عمل كثيرة وجديدة، وأضيف إلى عائد الدخل القومى من الإنتاج الزراعى عوائد الصناعة والخدمات المهنية.

وهكذا.. بصورة عامة، تطورت العوامل الاجتماعية والاقتصادية في مصر، وبدأت تؤثر في أحوال السكان الرئيسية وفي عدد المواليد والوفيات والهجرة الداخلية والخارجية والزيادة السكانية، وترك هذا كله تأثيره الاجتماعى.

ومن ثم تميز النصف الأول من حقبة الثورة بعاملين أساسيين، أولهما: إجلاء المستعمر البريطانى، وثانيهما: تحقيق العدالة الاجتماعية، وهو ما كان له أثره في سلوك المجتمع، كسيادة روح الأمل والاعتزاز والانضباط والتطلع إلى مستقبل أفضل.

أما في النصف الثانى من حقبة الثورة، فقد كان التوجه إلى التأميم وتصفية القطاع الخاص، والأخذ بشعارات أهل الثقة قبل أهل الخبرة، والتوجه للتركيز على الكم والتنازل عن الكيف، وكذلك الاهتمام بالصناعة قبل الزراعة، ثم كانت الحروب التى استنزفت ثروتنا الاقتصادية، حتى استدرجنا إلى حرب ١٩٦٧، ثم تفرغنا لحرب الاستنزاف، مما أصاب الكثيرين بالاحباط، وإن كان قد أشعل في نفوس البعض روح التحدى والإرادة القوية لتغيير السلوك، وأخذ الأمور بالجدية والموضوعية.

الحقبة الثالثة:

وهى حقبة الرئيس أنور السادات، الذى جعل همه الأول تحرير الأرض

المصرية واسترداد سيناء، وقد تحقق ذلك بعد حرب ١٩٧٣، ثم جعل همه بعد ذلك إحداث عملية الانتعاش الاقتصادى والاجتماعى، من خلال الانفتاح على العالم الخارجى، والتحول إلى النظام الديمقراطى وتعدد الأحزاب، وتشجيع القطاع الخاص. والتوسع فى التعليم الجامعى بإنشاء عدد من الجامعات فى الأقاليم والمحافظات، وتيسير الهجرة إلى الخارج وعمل المصريين هناك، وإنشاء مدن ومجتمعات عمرانية جديدة، واستزراع الصحراء وتوسيع الرقعة الزراعية، وبالفعل حدث تغير كبير فى كل هذه المجالات، وكانت له انعكاساته على السلوك فى المجتمع؛ بعد استعادة الكرامة وروح النصر مع حرب أكتوبر، وإحياء القطاع الخاص، والسماح بتعدد وجهات النظر السياسية.

وكان من أوضح الآثار التى ترتبت على التغيرات السكانية فى هذه الفترة: زيادة الهجرة، والهجرة المؤقتة على وجه الخصوص، وهى ظاهرة تستحق الاهتمام والدراسة المتأنية، وقد أفرزتها الظروف المتغيرة فى مصر، وفى الاقطار العربية البترولية؛ فعند بداية تطور دول الخليج لجأت مصر وغيرها من دول الجوار السابقة فى حضارتها كالعراق وسوريا، فاستعانت بأبناء هذه الدول فى بناء المدن الجديدة وشق الطرق وتشيد المدارس والمستشفيات، وهكذا هاجر من مصر فى أوائل السبعينيات أعداد كبيرة من المعلمين والمهندسين والأطباء والإداريين وعمال البناء وغيرهم.

ويتراوح عدد الذين هاجروا هجرات مؤقتة حوالى ٥ ملايين، يمثلون مع من يعولونهم من أفراد أسرهم نحو ثلث سكان مصر، كانوا يحولون نحو ٧ مليارات من الجنيهات، وهو ما يفوق دخل قناة السويس وعائدات النفط المصرى.

وفتحت العراق باب الهجرة أمام المزارعين منذ أكثر من عقدين، وهى أول دعوة لهم ليعملوا فى الخارج، ولاشك أن الهجرة إلى البلاد النفضية - وإن كانت مؤقتة - غيرت من سلوك المصريين المهاجرين، وأنماط مساكنهم ومعيشتهم ونظرتهم إلى الحياة عامة.

الحقبة الرابعة:

وهى التى مارلنا نعيشها - حقبة الرئيس محمد حسنى مبارك - وقد واجهت مصر فى السنوات الأخيرة تحديات كثيرة، كان لابد من مواجهتها، وكان لذلك انعكاساته على السلوك فى المجتمع .

ومن أبرز هذه التحديات مشكلة الانفجار السكانى، وهى مشكلة عويصة، استلزمت إنفاق مليارات الجنيهات على إعادة بناء وتوسيع البنية الأساسية والمرافق العامة، التى تهالكت وعجزت عن مواجهة المتطلبات المتزايدة، إضافة إلى التوسع فى مجالات التعليم والصحة والنقل والطاقة والإسكان، وكذلك مواجهة الأعباء المتراكمة نتيجة تأثر اقتصاديات البلاد - فى الفترات السابقة - من توالى الحروب .

وكان فى مقدمة هذه الأعباء: كثرة الديون المستحقة على مصر هى وفواتدها، وزيادة الواردات على الصادرات، وزيادة ما نستهلكه على ما ننتجه، وارتفاع معدلات التضخم، وتزايد البطالة، وتفاقم أزمة الإسكان، وما صاحب ذلك كله من اتجاه بعض فئات الشعب إلى العنف والإرهاب والانحراف، وتسلب الفساد إلى بعض المواقع، مما ترك آثاره على السلوك الاجتماعى، وعلى العلاقات الاجتماعية.

غير أن جهودنا الدائبة مكنتنا من اجتياز معظم المشاكل الاقتصادية، وعبور عنق الزجاجة بنجاح برنامج الإصلاح الاقتصادى التى تمكنت به مصر من خفض المعجز فى الموازنة وميزان المدفوعات، واستقرار سعر الصرف، وخفض معدلات التضخم، وإسقاط جزء كبير من المديونية الخارجية، وإزالة عدد من العقبات الاقتصادية والتشريعية التى كانت تحول دون تحقيق انطلاقة اقتصادية، إلى جانب عديد من المشروعات الضخمة، وفى مقدمتها: مشروع توشكى لتعمير جنوب الوادى الذى بدأت خطواته بحفر قناة توشكى - والذى يشر ببداة مرحلة حضارية جديدة، وكذلك مشروع تعمير شمال سيناء وإمكاناته الواسعة، ومشروع «شروق» لتنمية الريف المصرى .

ونستعرض فيما يلى بعض القضايا المؤثرة، ثم نعقب عليها بالمقترحات المناسبة، من خلال التوصيات الواردة فى نهاية هذه الدراسة.

أوضاع الهرم السكانى

ويقصد به توزيع السكان حسب الفئات العمرية، والنوع (أى الذكور والإناث)، ويرتكز هذا الهرم فى مصر على قاعدة عريضة من صغار السن، تمثل ٤٠٪ من السكان، الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة، بينما تصل هذه النسبة فى غرب أوروبا إلى ٢٣٪ فقط، ثم تحيى فئة السكان من ١٥-٤٩ سنة، وتبلغ نسبتها فى مصر ٤٧,٧٪، بينما تبلغ فى غرب أوروبا ٦٨٪، يليها كبار السن فى مصر أى الأكثر من ٦٥ سنة نسبتهم حوالى ٧٪، بينما تصل فى غرب أوروبا إلى ٢٥٪.

ويتضح من الهرم السكانى أن نسبة العاملين والنشطين العاملين والنشطين اقتصادياً لا تزيد عن ٥٨٪ من شريحة السكان فى سن العمل والإنتاج من ١٥ إلى ٦٤ سنة، ومعنى ذلك أن عبء الإعالة فى مصر يزيد على ما هو عليه فى الدول المتقدمة.

مشكلة المقرر

يتأثر سلوك الإنسان بعاملين أساسيين، هما: عقيدته ومثله وقيمه، ثم أحواله الاقتصادية ومدى قدرته على سد احتياجاته المعيشية. وتتلخص المشكلات الاقتصادية التى نواجهها فى قضية واحدة هى مشكلة الفقر، ونظراً لقلبة الحس الدينى لدى المصريين كافة، فمن المناسب أن نعرض موجزاً للتصور الإسلامى لهذه المشكلة، حيث لم يرجعها إلى الفقراء أو إلى قلة الموارد كما ذهب التصور الرأسمالى، أو إلى علاقات التوزيع كما ذهب التصور الاشتراكى، وإنما أرجعها إلى القصور فى استغلال الموارد الطبيعية لا إلى قلتها، وإلى شح الأغنياء وسوء التوزيع لا إلى الملكية الخاصة، ومن ثم حث الإسلام على تنمية الإنتاج كما أمر بعدالة التوزيع.

ولمواجهة مشكلتى الفقر والبطالة، والتى لهما انعكاساتهما السيئة على السلوك

فى المجتمع، أوجد الإسلام - منذ بدايته - مؤسسة مستقلة عن الجهاز الإدارى للدولة، ليس بموارد ومصاريفها فحسب، بل والعاملين عليها، وهى مؤسسة الزكاة التى هى - بالتعبير الحديث - مؤسسة الضمان الاجتماعى فى الإسلام، ولم تكن وظيفتها مجرد الإعانة العارضة أو المؤقتة، وإنما تمكين المحتاج من الاكتفاء، ومن إغناء نفسه بنفسه بحث يكون له مصدر دخل ثابت بعينه؛ فمن كان من أهل الاحتراف ولا يجد ما يشتري به الآلات اللازمة لحرفته، أو كان من أهل التجارة ولا يجد رأس المال الذى ينافس فيه، أو كان من أهل الزراعة ولا يجد الأرض التى يزرعها أو أدوات الرى والحراث؛ فعلى الدولة أن تعطى كل واحد من هؤلاء من صندوق الزكاة كل ما يحتاجه من مال بالقدر الذى يمكنه من مزاولة تجاره أو مهنته، ويعود عليه بدخل يكفيه هو وأسرته على الدوام، ويتحول من مستحق للزكاة إلى معط لها.

هذا... وقد شاركت مصر بمختلف أجهزتها الحكومية وغير الحكومية فى مارس سنة ١٩٩٥، فى مؤتمر كوبنهاجن، الذى دعت إليه هيئة الأمم المتحدة لمواجهة ثالث «الفقر، البطالة، والتفكك الاجتماعى»، ولقيت الورقة التى قدمها الوفد البرلمانى المصرى - برئاسة رئيس مجلس الشعب - لمواجهة مشكلة الفقر ترحيباً وتقديراً كبيرين؛ إذ تضمنت إنشاء صندوق أو جهاز مستقل لدعم الفقراء، يمول من مخصصات الميزانية العامة لكل دولة، ومن مساهمات الأهالى ورجال الأعمال ومن المنح والتبرعات، واشترط الاقتراح المصرى أن يتولى إدارة وتخطيط هذا الجهاز أو الصندوق فى كل دولة بعض الشخصيات العامة من خارج الجهاز الحكومى.

والواقع أن الورقة المصرية لمؤتمر كوبنهاجن تمثل عودة إلى الأسلوب، الذى أوجده الإسلام منذ أربعة عشر قرناً؛ إذ تنادى بإنشاء صندوق أو جهاز مستقل: تكون له شخصية مستقلة، ومقر معلوم ومجلس إدارة مستقل، يختار أعضاؤه من الشخصيات العامة ذات الخبرة والسمة الطيبة، ويتلقى هذا الصندوق كمرحلة أولى زكوات الأفراد اختياريّاً وعن طيب نفس، ثم يقوم سنوياً ببيان وإعلان

مقدارها وأوجه إنفاقها حسب أولويات الحاجة، مع استثمار جانب منها فى مشروعات إنتاجية، تعود بالنفع على المحتاجين والمستحقين بالفعل.

إن أغلب المصريين بحكم عقيدتهم الدينية يخرجون زكواتهم تلقائياً، وعن طيب خاطر، إلا أنه يتم توزيعها دون تنظيم أو تنسيق، ودون الاستفادة الحقيقية من هذه الأموال ووصولها إلى مستحقيها الحقيقيين، فإ إنشاء صندوق للزكاة لا يكلف أولى الأمر شيئاً ولا يلقي على المواطنين أية أعباء مالية جديدة. وكل المستهدف هو تجنب فرضي توزيع الزكاة، أو بعثرة أموالها الطائلة، دون أن توضع فى مكانها أو مجالها المناسب.

إن إنشاء جهاز أو صندوق للزكاة بالأداة القانونية المناسبة يعتبر وسيلة لمواجهة مشكلات الفقر والبطالة والتفكك الاجتماعى، كما أن فيه راحة نفسية وشجاعة لهمم المواطنين فى اتجاه الخير، وهو فى الوقت ذاته يرفع عن كاهل الدولة عبء مواجهة مشكلة الفقر، وضرورة ضمان حد الكفاية لكل مواطن، لكى تتفرغ الدولة بجهودها للمسئوليات الرئيسية، ومن أهمها: الحفاظ على الأمن الداخلى والخارجى، ودفع عجلة التنمية تحقيقاً لتقدم مواطنيها مادياً وروحياً.

القدوة واختيار القيادات

لا شك أن اختيار القيادات إذ لم يتم وفقاً للمعايير السليمة التى نصت عليها الشريعة والقانون، يؤدى إلى انصراف فى السلوك الاجتماعى، وإلى التعسف فى استعمال السلطة، والإخلال بالعدالة الاجتماعية والانتقاص من تكافؤ الفرص والاستقرار الاجتماعى، كما يؤدى إلى انعدام المنافسة وفقدان الحماس للتفوق والإبداع فى الدراسة والجد والاجتهاد فى العمل، كذلك يؤدى ضعف الإشراف من جانب القيادات على الرؤوسين إلى الانحراف فى السلوك، ويتضح أن العلاقة بين الانحراف فى السلوك واختيار القيادات - أيا كان موقعها - طردية وليست عكسية، فموضوعية الاختيار تؤدى بالتبعية إلى الحد من الانحراف فى السلوك الاجتماعى، والعكس صحيح.

ظواهر اجتماعية مستجدة

وقد استجذبت على المجتمع المصرى فى السنوات الأخيرة ظواهر اجتماعية شغلت المفكرين والناس العاديين، وأرقت الكثيرين، منها: ظاهرة الإرهاب والعنف وفرض الرأى بالقوة، ومنها: التحلل من القيود وإغفال القيم الدينية والأخلاقية، وقيام صراعات مادية ومذهبية، ولم تقتصر على مجتمعنا العربى، بل تفشت فى مجتمعات أخرى كثيرة، بسبب التغيرات الفكرية والخلافات السياسية والاجتماعية التى تتابعت خلال القرنين الأخيرين، وكانت فى جملتها وليدة للتحول الصناعى، ومرتبطة بالاكشافات العلمية وظهور حركات سياسية وتيارات فكرية شملت مختلف أنحاء العالم.

واتسم هذا العصر فى دول الغرب بضعف نظام الأسرة وتحلله، وكان ذلك بسبب عوامل كثيرة، منها: تركيز الناس على المادة والقيم الاقتصادية دون المعنوية أو الروحية أو الدينية.

وقد استهوت الثقافة الغربية بعض الكتاب المسلمين، فتأثروا بفلسفات الغرب ومذاهبه الفكرية الاجتماعية، ومن ثم ظهر تياران: أحدهما يدعو إلى التجديد فى كل شىء، وآخر يتشبث بقيم المجتمع وتقاليد وأدابه الموروثة.

وانتصر الاتجاه الأول فبدأ التغير فى كثير من المجالات الثقافية والدينية الاجتماعية، وانتشر ذلك بين فئات الشعب، وخاصة الشباب. ونتيجة لعدم الالتفات إليهم أو الاهتمام بهم، بدت ظاهرة التطرف على بعض الشباب، الذين كان يجب إعدادهم بدنياً وعقلياً ودينياً؛ حتى يكونوا أسوياء قادرين على تحمل المسؤولية والنهوض بها، وهكذا ظهر التناقض بين طرفين: أحدهما يتسم بالغلو فى الدين والتشدد فى فهم أحكامه؛ والآخر يتحلل من الدين والقيم الأخلاقية، وهذا التطرف هو نتيجة سوء الفهم، الذى يؤدى إلى التشدد الذى يرفضه الإسلام، ومن ثم لا بد من نشر مبادئ وتعاليم الإسلام الصحيحة فى كل مراحل التعليم وفى الحياة والبيت، وعلينا أن نفرق بين الأسباب المحلية والأسباب الوافدة الموفدة.

وسائل الإعلام الحديثة وقوة تأثيرها

وكانت قوة تأثير وسائل الإعلام الحديثة - المقروءة والموسوعة والمرئية - من أهم التغيرات التي طرأت على المجتمع؛ فهذه الوسائل تملك من الإمكانيات الفعالة ما يؤهلها للقيام بدور شديد التأثير في سلوكيات المجتمع، لسعة انتشارها وقدرتها على التأثير والجذب، ومخاطبة الجماهير باستخدام الفنون المؤثرة التي يقبل عليها الناس في كل مكان، وخاصة الدراما التلفزيونية والأفلام السينمائية، التي تعرض على شاشة التلفزيون.

وقد زادت خطورة هذه الرسائل، بعد أن أصبح العالم أشبه بقرية واحدة، تتمكن في سماتها وسائل البث التلفزيوني من توصيل ما تحمله من وسائل إعلامية وفكرية وفنية إلى معظم أنحاء الدنيا، في أسرع وقت، مما لم يكن يدور في خلد البشر قبل أعوام قليلة.

وبدورنا لا نستطيع أن نمنع ما تبثه القنوات الفضائية مما يكون مخالفاً لمفاهيمنا أو عاداتنا أو معتقداتنا أو سلوكياتنا، وعلينا إذا أردنا أن نتصدى لذلك أن نبدأ بتحليل الواقع؛ فدراسة الواقع من ناحيتي الشكل والمضمون تعد نقطة البداية الصحيحة، التي لا بد منها للتطوير والتغيير الإيجابي، وأن نبحث كل العوامل والظروف المحيطة، لنعرف ما هو إيجابي يتطلب دعمه وإثراؤه، وما هو سلبي للحد من آثاره ومقاومته، ثم يبقى أن نحدد الأهداف التي نريد تحقيقها.

من هنا كان لا بد من مجال ترشيد السلوك أن يكون الهدف محدداً في مسارات، يتفق عليها من خلال رؤى مستقبلية واضحة.

وهذه المهمة ليست مسئولية الإذاعة والتلفزيون وحدهما، فهناك مؤسسات أخرى لها أدوارها، ومن الضروري أن تتكامل جهودها، وأن نصل إلى تحديد الفئات المستهدفة التي توجه إليها برامج الإذاعة والتلفزيون،؛ فنحدد من نخاطبه وما مستواه العلمي وبيئته وثقافته؛ حتى تكون البرامج الموجهة إليه ملائمة ومحقة للأهداف المرجوة.

وتحتاج عملية ترشيد السلوك بوجه عام إلى فهم كل ما من شأنه أن يؤثر فيما

يصدر عن الأفراد من سلوكيات مرغوب أو غير مرغوب، والإذاعة والتلفزيون يوجهان برامجهما إلى كل الناس في مختلف الأماكن من كل المستويات التعليمية والثقافية، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بمسألة السلوك الرشيد. . . فلا بد أن يستند ذلك إلى رؤية علمية واضحة، وتحديد وتحليل كل مفهوم إلى مكوناته، التي يمكن لوسائل الإعلام التعامل معها، كالتطرف والسلبية واللامبالاة وعدم الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية.

وعند التصدى مثلاً لمفهوم تعاطى المخدرات، يجب تعرف ما ينطوى تحت هذا المفهوم من مفاهيم فرعية، مثل: اختيار الأصدقاء والتفكك الأسرى وطريقة شغل أوقات الفراغ، والتدخين، ومراحل الإدمان والمواد التي تسببه. .

ويجب مراعاة التسلسل والتتابع وعمق المواد المقدمة لكي يحدث ثمثل تدريجي لمعانى هذه المفاهيم من جانب الجمهور المستهدف، ويحدث تأثيرها في الاتجاهات والقيم، وهو ما يستند إليه كل سلوك رشيد مطلوب.

وهكذا يمكن النظر بعين تحليلية نافذة، تتناول برامج الإذاعة والتلفزيون في مجال ترشيد السلوك، على أن يتبع ذلك بيان لما يمكن إضافته وإثراؤها؛ حتى يقوم كل منهما بدور فعال في مجالات ترشيد السلوك وتعديل الاتجاهات بطريقة رشيدة.

توصيات ختامية

وعلى ضوء ما سبق، وما دار فى اجتماع المجلس من مناقشات، يوصى بما
يأتى:

* الاهتمام المستمر فى جميع مراحل التعليم ووسائل الإعلام ودور العبادة،
بشرح مبادئ الأديان السماوية وعقائدها وتشريعاتها وقيمها العليا
وأخلاقياتها؛ حتى يدرك الشباب - خاصة - مبادئ الأديان السماوية
السمحة، وما تحض عليه من أخلاقيات حميدة فاضلة.

* إنشاء صندوق مستقل للزكاة يتمتع بالشخصية المعنوية المستقلة، كما ينظم له
أسلوب تلقيه للزكوات وأوجه إنفاقها، وتكون له فروع بالمحافظات والمدن
والقرى.

* وضع استراتيجية لحث المواطنين على المشاركة الشعبية والجهود التطوعية،
والبعد عن السلبية والعزوف الاجتماعى والسياسى، مع توفير الاعتمادات
اللازمة؛ للحصول على الخدمات الاجتماعية الخاصة برعاية الطفولة
والأمومة والشباب وكبار السن، وكذلك تشجيع الجمعيات والمؤسسات
الأهلية العاملة فى هذه الميادين، ودعم دورها.

* تشجيع القيم المجتمعية التى تحض على الشورى والتكافل الاجتماعى، من
خلال مختلف مؤسسات التربية والتنشئة الاجتماعية.

* التدقيق فى اختيار القيادات الصالحة لتكون قدوة طيبة للآخرين، سواء فى
العمل السياسى أو الإدارى، أو فى الاتحادات والنقابات والجمعيات، وضمان

حسن سيرة هذه القيادات ونزاهتها وإخلاصها فى أداء العمل، والبعد عن استغلال المناصب المواقع فى تحقيق المصالح الخاصة، على أن يكون اختيار القيادات محققاً لمبدأ «الشخص المناسب للمكان المناسب»، مع مراعاة العدالة والمساواة وإتاحة الفرص المتساوية أمام الجميع.

• الحرص على التكامل والتنسيق بين مختلف وسائل الإعلام القروية والمسموعة والمرئية، مع ضرورة الاهتمام بمشكلات الشباب المعاصر وتوجيههم، وإرشادهم عن طريق البرامج الفنية والثقافية غير المباشرة، وكذلك برامج الأطفال، مع التأكد من سلامة التوجيه والوفاء بمتطلبات النمو لهذه المرحلة العمرية.

• العمل على رفع مستويات المسرحيات والأفلام السينمائية والتمثيلية والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية من النواحي الفنية والثقافية، لترغيب المستمعين والمشاهدين بمصر والعالم العربى فى هذه الأعمال الفنية، ومن ثم يمكن انصرافهم عن متابعة ما تبثه القنوات الفضائية الأجنبية من برامج محشوة، بما يخالف عقائدنا وأخلاقنا وقيمنا ومثلنا العليا.

• الاستعانة بالمتخصصين فى علوم التربية وعلم النفس والاجتماع لتخطيط البرامج الموجهة للشرائح المختلفة من المستمعين والمشاهدين للأجهزة الاعلامية، بحيث تكون هذه البرامج موحدة الهدف ومتناسقة متكاملة، ومؤثرة بالقدر المطلوب.

• الاهتمام بوضع دراسات وبحوث عملية، سليمة، ترصد مختلف التغيرات، التى طرأت على المجتمع المصرى، خلال النصف الثانى من القرن العشرين، وبيان الإيجابيات التى تستلزم الدعم والتقوية، والسلبيات التى نحتاج إلى التصدى والمقاومة والعلاج.

◆ وجهة نظر ختامية

إذا كانت هذه الدراسة تهدف توضيح أهمية أن يكون الإنسان صحيحاً نفسياً
فعالاً في مجتمعه.. فإن الحقيقة التي تكمن وراء هذا الهدف تشير إلى ضرورة
وجود البعد الديني، كأساس من الأسس، التي تركز عليها الشخصية السوية،
سواء كانت موجهة ومعلمة أو موجهة ومتعلمة.

وإذا كان الناس جميعاً ينشدون السعادة ويتطلعون إليها (حتى أولئك الذين
ليس لديهم أى إحساس بالحياة الرشيدة والقيم الدينية).. فإن السر في هذا
البحث المستمر عن السعادة قد يرجع إلى ذلك الميل النفسى، الذى يجعل الإنسان
بوصفه أسمى المخلوقات، يبحث عن القيم ويقدرها ويعترف بتأثيرها.

والواقع... أن السعادة لا تعتمد فقط على هذا الميل النفسى، ولكن قيمة
الحياة تتجلى عندما يكون فيها موضع خير؛ بحيث يصبح فى وسعنا أن نلمسه
ونريده ونتطلع إليه.

وذلك عكس الشر فهو هذا الذى لا نريده ولا نجه أن يكون ذلك، إذا أردنا
لأنفسنا أن نجنبها مخاطر الحياة وما يحيطها من مشكلات وصعاب، وأن نحرص
على سعادتها.

وإذا كانت الحياة الإنسانية على وجه العموم تمثل مخاطرة.. فإنه لابد لنا من
تحملها والقيام بأعبائها، على اعتبار أن هذه المخاطرة قد تنجح أو قد تفشل،
فلابد وأن يعلم الإنسان أن نجاحه أو فشله فى هذه الحياة لن يكون رهناً ببعض
الظروف الخارجية، بل سيكون متوقفاً على مدى توافر القيم الروحية والأخلاقية
لديه؛ فإذا واجهته الحياة بالمحن والتجارب الشاقة.. فإن استجابته لها بفضل هذه

القيم الروحية لن تكون استجابة الرجل الضعيف المستكين، وسوف يعلن عن صحته النفسية ومقدرته وإرادته على مواجهة إحباطات الحياة، ليس بالصراخ والعويل والشكاوى والتبرم، بل بالاستجابة لها بردود أفعال إيجابية، يؤكد فيها ذاته، ويعلن من خلال إرادته القوية وقيمه الدينية الأصيلة الثابتة رفضه لكل استسلام!

وإذا كانت هذه الدراسة قد تناولت الصحة النفسية من منظور أخلاقي ديني، واسترشدنا فيها بآيات من القرآن الكريم، وأشرنا في بعض فصولها إلى جهود بعض العلماء العرب في مضمار الصحة النفسية كرواد لعلم النفس والصحة النفسية.. فإن هذا الهدف من عرضنا لهذه الآراء، وتلك الأفكار قد يتبلور في حقيقة مهمة مؤداها:

إن العودة إلى القيم الدينية من الأمور الضرورية، التي تحقق للإنسان صحته النفسية، وإن عدم التشبث بالأفكار الأجنبية وما يصاحبها من نظريات قد لا تمثل سوى ذلك العرض المرضي، الذي لا يتفق في غالب الأحيان مع تراثنا وقيمنا وديننا وعاداتنا... والعودة إلى الدين وأصالة التراث من الأمور المهمة جداً... بعد أن انحرف بنا الطريق، وعشنا سنوات طوال نلوك بالستنا تلك المذاهب والأفكار الأجنبية... ولم نصل إلى الحلول لمشكلاتنا، بل وتراكمت المشكلات أكثر... وتعقدت الأمور بصورة مفرقة. وجدير بالذكر أن هذا الاجتهاد قد سبقنا إليه أساتذة أفاضل حاولوا، ونحن معهم أن يؤكدوا هذه الحقيقة المهمة (العودة إلى القيم الدينية، والاسترشاد بعلماء العرب بوصفهم يمثلون الريادة الفكرية).

ولما كان البحث العلمي هو بمعنى ما من المعاني اجتهاد واستفهام وتساؤل... فإن الأخطاء لابد وأن تحدث في مضمار البحث العلمي... وعلينا ألا نضيع الوقت في مجرد تعرف من يقع عليه وزر الأخطاء... بل ينبغي أن نركز اهتمامنا وجهودنا على تحديد من الذي سينال فخر تصحيح الأخطاء.

والحمد لله والشكر على نعمة العقل والفكر تلك النعمة، التي نجعلنا إلى
جانب عظيم نعمائه الأخرى، نتوجه إليه سبحانه وتعالى شاكرين طائعين.
ويارب إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة على، وإن ظهرت المساوئ
منى فأنت سبحانه منزّه عن ذلك، ولك الحجة على...
والله يوفق الجميع لما فيه خير أنفسهم والبحث العلمى، وكل ما يحقق الخير
لمصرنا الغالية

دكتور/ سيد صبحى

أستاذ الصحة النفسية والعلاج النفسى

كلية التربية جامعة عين شمس

المراجع أولاً: المراجع العربية

القرآن الكريم

ابن جماعة،

تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٩٦٥ .

ابن حزم،

طوق الحمامة (في الألفة والآلاف) تحقيق فاروق سعد، مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٧٥ .

ابن حزم،

مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان المكتبة السلفية - المدينة المنورة - ١٩٧٠ .

ابن حزم،

الأخلاق والسير (في مداواة النفوس)، دار الآفاق الجديدة - الطبعة الثانية - بيروت .

ابن قيم الجوزية،

تحفة المودود بأحكام المولود، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - ١٩٧٩ .

ابن قيم الجوزية،

الفوائد، المكتبة القيمة - القاهرة - ١٩٨٠ .

ابن قيم الجوزية،

الجواب الكافي، عيسى الحلبي - القاهرة - ١٩٥٠ .

أبي الفرج الجوزي،

الأذكياء، مكتبة الغزالي - بيروت - ١٩٧٠ .

أبي الفرج الجوزي،

أخبار الحمقى والمغفلين، مكتبة الغزالي - بيروت - ١٩٧٠ .

ابن مسكويه،

تهذيب الأخلاق، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨١ .

البستي،

روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق محمد محيى الدين وآخرين -

دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٧٥ .

الخوارزمي،

مفاتيح العلوم، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٦٢ .

أحمد عبد القفور عطار،

آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الإسلامية، دار الآفاق الجديدة

- بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٦٧ .

حسّين محمد مخلوف،

كلمات القرآن (تفسير وبيان)، دار المعارف - ١٩٨١ .

زكريا إبراهيم،

ابن حزم الأندلسي - سلسلة أعلام العرب - ٥٦، الدار المصرية للتأليف

والترجمة - ١٩٦٠ .

سيد صبيحي،

الإنسان وسلوكه الاجتماعي، دار مرجان للطباعة والنشر - الطبعة

الثانية - ١٩٧٩ .

سيد صبحي:

المفهومية: دراسة عن الشخصية المصرية - ١٩٩٥ .

سيد صبحي:

النمو النفسي للإنسان - المكتبة التجارية الحديثة - ١٩٩٣ .

سيد صبحي:

دراسة نفسية في الذبحة الصدرية - دار الثقافة - القاهرة - ١٩٨٠ .

سيد صبحي:

علاج الاتجاهات كأسلوب للعلاج النفسي - مجلة كلية التربية جامعة
عين شمس - العدد الأول - ١٩٧٨ .

سيد صبحي:

الرؤية بعيون الآخرين . مكتبة كلية التربية جامعة عين شمس ١٩٩٥ .

صموئيل مغاريوس:

الصحة النفسية والعمل المدرسي، النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة
الثانية - ١٩٧٤ .

عبد العزيز القوصي:

أسس الصحة النفسية، دار القلم - الكويت - ١٩٧٢ .

عبد العزيز القوصي:

علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية، دار النهضة المصرية - القاهرة -
١٩٧٨ .

عبد السلام عبد الغفار:

مقدمة في الصحة النفسية، دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٧٦ .

هيباس محمود العقاد:

الإنسان في القرآن الكريم، كتاب الهلال - العدد ١٣٦ - سبتمبر
١٩٦١ .

هتحي وضوان:

الإسلام والإنسان المعاصر، سلسلة اقرأ - دار المعارف - ٤٠٦ -
١٩٧٥.

هؤاد كامل:

إيريك فروم (الدين والتحليل النفسي)، مكتبة غريب - ١٩٧٧.

فيكتور فرانكل:

الإنسان يبحث عن المعنى، ترجمة طلعت منصور، دار القلم - الكويت
- ١٩٨٢.

محمد قطب:

دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق - لبنان - ١٩٧٩.

مصطفى سيد الواحد:

شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم، مكتبة المتنبي - ١٩٧٥.

محمد علي البار:

خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر - ١٩٨٠.

محمد عثمان نجاتي:

القرآن وعلم النفس، دار الشروق - بيروت - ١٩٨٢.

يوسف القاضي:

علم النفس التربوي في الإسلام دار المريخ - ١٩٨١.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1. Babsky. E: "Human psychology" Moscow. Volume 1. 1975
- 2- Eysenck, "Fact and Fiction" in psychology, Britain, Penguin Books 1956
- 3- Freud, S. "Three Contributions to the Sexual Theory" pelican Books, 1960

- 4- **Frankl, V.E.** Man's search for meaning an introduction to logotherapy. A/L a Hobad Better yourself Books, 1974.
- 5- **Marcuse, H.** " Eros & Civilization", New Jersey: Prentic Hall, 1968.
- 6- **Wall W.D.** Education and Mental Health 2nd Ed. UNESCO, 1973.
- 7- **Wall W.D.** "Constructive education Harrop" The UNESCO Press, 1975.
- 8- **Wilson, J.** Education and the concept of Mental Health Routledge & Kegan Paul, London, 1968, Behaviour Modification.

المحتويات

نحو مفهوم الصحة النفسية

* معنى الأمن النفسى ٧

* الإنسان وكيف يسعى لتحقيق صحته النفسية ٧

شعاب الطريق

* دراسة النفس البشرية وصعوبتها ١٧

* النفس بين قدماء الفلاسفة والقرآن الكريم ٢١

* الصحة النفسية وبعض الاتجاهات الفكرية ٢٧

الشخصية السوية

* معنى السواء النفسى ٣٥

* خطوات السواء النفسى ٤٠

* الاتجاهات المختلفة التى تناولت السواء النفسى ٤٣

الشخصية وتكامل الإنسان

* التعريف الإجرائى للشخصية ٦٠

* الشخصية فى حركتها وتكاملها ٦٢

* تصرفات معبرة عن شخصيات (المسعد) والمنحوس - النكدى

(والبحبوح) ٦٣

* البناء النفسى للشخصية فى الإسلام ٧٦

عندما يتذرع الإنسان بالحيل الهروبية

* أولاً: حيل تعتمد على العدوان ٨٧

* ثانياً: حيل تعتمد على الانسحاب ٨٨

* ثالثًا: حيل تعتمد على الإبدال ٩١

- وجهة نظر في هذه «التماحيك» السلوكية ٩٣

مواقف نفسية إرشادية

* أولاً: الخوف ومشكلاته السلوكية ٩٩

* ثانيًا: تحقيق الذات وإرادة الفعل ١٠٤

* ثالثًا: العلاج بالمعنى وتوظيف الإرادة ١١٣

* رابعًا: الرضا وقيمة الاطمئنان ١٢٤

* خامسًا: الحب وبهجة الحياة ١٤٣

البعد الديني والصحة النفسية

* القرآن الكريم مصدر للصحة النفسية ١٤٩

* الشخصية السوية من وجهة نظر القرآن الكريم ١٥٩

جهود العلماء المسلمين في الصحة النفسية

* ابن مسكويه والصحة النفسية ١٦٩

* ابن حزم ومداواة النفوس ١٨٧

* ابن قيم الجوزية ورعاية الطفولة ٢٠٣

* ابن جماعة والمعلم المرشد ٢١٣

* أبي الفرج الجوزي والقدرات العقلية ٢٣١

المرض العقلي والمرض النفسي

* أولاً: ما المرض العقلي Psychosis؟ ٢٤٣

* ثانيًا: المرض النفسي ٢٦٤

الإرشاد النفسي

* معنى الإرشاد ٢٧٧

* الاتجاهات المستقبلية للتوجيه والإرشاد ٢٧٨

* نظريات الإرشاد النفسي ٢٨٠

* كيف توظف نظرية التحريك النفسي في المجال الإرشادي ٢٨٥

نماذج من الإرشاد النفسى

فى مجال الخدمة والرعاية الاجتماعية

- * مواصفات البرنامج الإرشادى ٢٩٧
- * البرامج العامة والمشروعات ٣٢١
- * التوصيات ٣٢٥
- * التغير الاجتماعى وانعكاسه على السلوك فى المجتمع ٣٢٩
- * توصيات ختامية ٣٤٠
- وجهة نظر ختامية ٣٤٣
- المراجع ٣٤٩

نبذة عن المؤلف

- * أستاذ الصحة النفسية والعلاج النفسى - كلية التربية - جامعة عين شمس
- * عميد كلية التربية النوعية - جامعة عين شمس (١٩٩٧ - ١٩٩٩)
- * أستاذ ورئيس قسم الصحة النفسية والعلاج النفسى - كلية التربية - جامعة عين شمس (١٩٩٥ - ١٩٩٨)
- * رئيس قسم علم النفس التربوى - كلية التربية - المدينة المنورة - جامعة الملك عبد العزيز (١٩٨٧ - ١٩٩٣).
- * مقرر شعبة الرعاية الاجتماعية (المجالس القومية المتخصصة).
- * عضو هيئة الصحة النفسية العالمية.
- * عضو الموسوعة القومية للشخصيات البارزة بمصر.
- * أمين لجنة الترقىات العلمية (مستوى أستاذ مساعد) المجلس الأعلى للجامعات.
- * أمين صندوق المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين.
- * حاصل على شهادة الجدارة من مركز السير الذاتية للعلماء البارزين فى مجال التخصص (المملكة المتحدة - كمبريدج) ١٩٩٣.
- * حاصل على تقدير مركز السير الذاتية بأمريكا A.B.I للعلماء أصحاب الإنتاج المتميز ١٩٩٤.
- * حاصل على التقدير العالمى من الموسوعة العالمية بكمبريدج لعام ١٩٩٥ للعلماء البارزين فى مجال التخصص.
- * عضو المجلس الأعلى للثقافة (شعبة التعليم).
- * عضو مجلس إدارة - المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين - القاهرة.
- * حاصل على جائزة الإنتاج المتميز (علم النفس) من مركز السير الذاتية بكمبريدج - ٢٠٠٢.
- * عضو مجلس اتحاد الإذاعة والتليفزيون (شعبة التعليم).

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٢٠٣٩

الترقيم الدول : 3-977-01-8633 I. S. B. N.



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة
نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ
على إصدارات هذه المكتبة التي قدمت خلال الأعوام
الماضية ذخائر الإبداع والثقافة المصرية والعربية
والإنسانية النادرة وتقدم في عامها الحادي عشر
أكثر من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع
والفكر زادا معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة في
مسيرتها الحضارية .

سوزان مبارك

Bibliotheca Alexandrina



0435392



التلف

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الرقم : ٣٠٠ قرش

To: www.al-mostafa.com